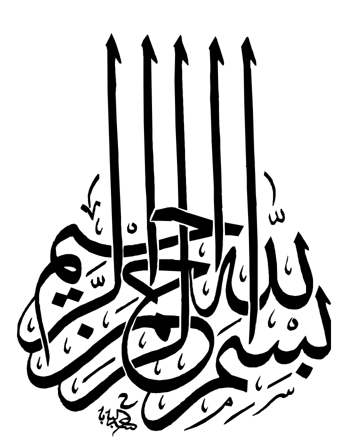


شرح

حديث جبريل

عَلَيهُ السَّلام





الطَّبعَةُ الأُولَى

١٤٤٠هـ / ٢٠١٨م







شرح

حديث جبريل

عليه السلام

تأليف

حمد بن إبراهيم العثمان


بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

إنَّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، مَن يهدِ الله فهو المهتدي، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، ﷺ؛ أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتابُ الله، وخير الهدي هدي محمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النَّار.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أمَّا بعدُ؛ فإنَّ حديث جبريل عليه السلام ذكَر فيه النَّبيُّ ﷺ: أركانَ الإيمان، وحقيقةَ الإسلام والإحسان، وهذا الحديث قد جمَعَ مسائل الدِّين

كلِّه، ولذلك فإنَّ العناية بشرحه هو تبيين لحقيقة الدِّين، لذلك رغبتُ أن يكون لهذا الحديث مصنَّف خاصٌّ في شرحه؛ لشأن هذا الحديث العظيم في تبيين الدِّين.

وجزى الله خيرًا علماء المسلمين المحقِّقين من أهل السُّنَّة والجماعة الذين سبقونا في شرحه، وانتفعنا من شروحاتهم التي أدَّت إلينا الدِّين صافيًا من كدر البدع.

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: حَدَّثَنِي أَبِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَىٰ عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّىٰ جَلَسَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَىٰ فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**» ، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**» ، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**» ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «**مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**» قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ

أَمَارَتِهَا، قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَىٰ الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ» ، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»(١).



---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النَّبيَّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان (ص١٢ – رقم ٥٠)، ورواه مسلم في صحيحه، وهو أوَّل حديث من الصَّحيح المسند بعد المقدِّمة، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (ص٢٤، ٢٥ – رقم [٩٣] ١ – (٨)).




الْبَابُ الْأَوَّلُ

مجمل ما تضمَّنه حديث جبريل






مجمل ما تضمَّنه حديث جبريل

حديث جبريل هذا فيه بيانُ الدِّين كلِّه، فمن أراد أن يوجز شرح الإسلام فإنَّه يجد بيانَه في حديث جبريل.

حديث جبريل فيه شرحٌ لعقائد الإسلام وعباداته وأخلاقه، فالإيمان جاء شرحُه مقرونًا بالإسلام؛ فكان الإيمان بالاقتران مع الإسلام يُراد به اعتقادُ الباطن، وهو الإيمان بالله وملائكته وكُتُبه ورُسُله واليوم الآخر والقَدَر خيره وشرِّه، وكان الإسلام مُرادًا به أركان الإسلام وشعائره من الشَّهادتين، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، وصوم رمضان، والحجِّ.

وتضمَّن الحديثُ شرحَ الإحسان، وهو عبوديَّة الله بالمراقبة، وهذا متضمِّن لأدب العبوديَّة لله، وأداء حقِّه مع استحضار رؤية الله للمخلوق في كلِّ الأحوال.

وتضمَّن حديثُ جبريل بيانَ اختصاص عِلْم الله بوقت قيام السَّاعة، وأنَّ هذا من عِلْم الغيب الذي اختصَّ الله به نفسَه، ولم يطلع عليه مخلوقًا، لا ملكًا مقرَّبًا ولا نبيًّا مرسلًا.

وفي جواب النبيِّ ﷺ لجبريل عن قيام الساعة منهج تعليمي عظيم، وهو عدم التكلف في طلب معرفة ما استأثر الله بعلمه؛ فإنَّ ذلك تكلُّف، وقد

يكون من أسباب الإلحاد وتقحم النَّار.

قال رجل من فقهاء المدينة[١]: «إنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ علم علمًا علَّمه العباد، وعلم علمًا لم يُعلِّمه العباد، فمن يطلب العلم الذي لم يعلمه العباد لم يزدد منه إلا بُعدًا».

وتوهَّم بعض من حاد عن منهج النبيِّ ﷺ والصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ؛ أنَّه بطلب علم الفلسفة والكلام يدرك علم الغيب، وكان ذلك دهليزًا لكثير منهم للكفر والإلحاد، فمن أين للفلاسفة أن يهدونا في الدين وقد ضلوا عن أوضح علومه الفطرية الضرورية وهو توحيد الله؟!

وما استأثر الله بعلمه فلا سبيل لأحد أن يحيط به.

ومن أوضح معالم منهج الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ الكفُّ عن الخوض فيما اختصَّ الله بعلمه.

والتابعون للصحابة بإحسان كانوا على هذا المنهج السديد من الكفِّ عن الخوض في الغيبيَّات.

سأل رجل الشعبي رَحِمَهُٱللَّهُ: هل للشيطان زوجة؛ لأن الله يقول: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ [الكهف:٥٠].

فقال الشعبي رَحِمَهُٱللَّهُ: ذاك عرس ما حضرناه.

جواب مفحم فيه الزجر عن التكلُّف في الخوض في الأمور الغيبيَّة بغير علم.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٦)، وذم التأويل (ص٢١- رقم ٢٩).

والسلف من تابعي التابعين ساروا على منهج الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من عدم الخوض في ما لا سبيل إلى العلم به من أمور الغيب.

سأل رجل الإمام مالكًا عن الاستواء كيف هو؟

فقال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: الاستواء معلوم، والإيمان به واجب، والكيف مجهول، وما أُراك إلا مبتدعًا.

قال العلَّامة المجدِّد محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ ناصحًا للأخذ بمنهج السلف في ترك الخوض في الغيبيات[1]: «أن تقطعوا أطماعكم عن إدراك حقيقة الكيفية؛ لأنَّ إدراك حقيقة الكيفية مستحيل، وهذا نصَّ اللهُ عليه في سورة طه حيث قال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]».

وكان مجلس الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من النبي ﷺ على نحو من أدب جبريل في جلوسه إلى النبي ﷺ، مجلس سكينة ووقار وحسن استماع في تلقي العلم، فكانوا يجلسون حوله كأنَّما على رؤوسهم الطير. رواه أبو داود من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والمعنى أنهم يسكنون فلا يتحركون، ويغضون أبصارهم، والطير لا يقع إلا على ساكن[2].

---

(١) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات (ص٤٣).

(٢) جامع الآثار في السير ومولد المختار (٥/ ٢١٣).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار، وهم جلوس فيهم أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ فلا يرفع أحد منهم إليه بصره إلا أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ فإنَّهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما، ويتبسمان إليه ويتبسم إليهما. رواه الترمذي.

قال الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «هذا من تواضع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، الذي هو خفض أبصارهم، واستعمالهم السكينة والوقار في مجلسه».

وكان من أدب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إذا حضروا مجلس رسول الله ﷺ جلس أحدهم حيث ينتهي المجلس. رواه أبو داود من حديث جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والترمذي، وقال: حديث حسن. فلم يكونوا يتخطون الرقاب، ولا يؤذون من سبقهم إلى مجلس العلم.

قال عُمَرِ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَىٰ عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّىٰ جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَىٰ فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ.

هذا تحديث من الفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن صفة تلقِّي علم الإسلام

---

(١) جامع الآثار في السير ومولد المختار (٥/ ١٦٦).

مجملًا من حديث جبريل عليه السلام؛ فأخبر الفاروق أنَّ الرَّسول الملكيَّ جبريل عليه السلام وهو الموكَّل بسماع كلام الله الوحي وأدائه إلى محمَّد رسول الله ﷺ، جاء إلى النَّبي ﷺ في صورة رجل، وقام بسؤال النَّبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان وقيام السَّاعة؛ ليسمع الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجوبة النَّبي ﷺ فتكون بيانًا للمؤمنين علم الدِّين.

ولله درُّ الفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث ذَكَر صفة جلوس جبريل الذي جاء متعلِّمًا بين يدي الرَّسولِ ﷺ المُعلِّمِ، وهذا يدلُّ على عناية أكابر الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بأدب تلقِّي العِلْم عن العالِم.

والتَّعليم النَّبوي في حديث جبريل تضمَّن بيانَ حقيقة الدِّين كلِّه، وهو الصِّراط الموصِّل إلى جنَّات النَّعيم، لذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ في وصف نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٣﴾ [المؤمنون: ٧٣].

والإيمان بالله هو الإسلام له بعبوديَّته وحده لا شريك له، وهذا هو حقيقة الدِّين كلِّه، وهو الذي لأَجْله خُلقنا، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

وكيفيَّة عبادة الله هذه بيَّنها النَّبيُّ ﷺ لأمَّته، وهو الصِّراط المستقيم الذي أمرَنَا اللهُ بالسَّير عليه وسلوكه للقاء الله بموجبات رضاه، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «العبادة والطَّاعة والاستقامة ولزوم الصِّراط المستقيم، ونحو ذلك من الأسماء؛ مقصودها واحد، ولها أصلان: «أحدهما»: ألَّا يُعبدَ إلا الله.

و«الثَّاني»: أن يُعبد بما أمَرَ وشرَعَ، لا بغير ذلك من البدع، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥]، فالعمل الصالح هو الإحسان، وهو فعل الحسنات».

وأساس الإيمان بالله هو الإيمان بكلماته الشَّرعيَّة واتِّباعها؛ لأنَّ الله تعبَّدنا بها، وهو خطابه إلينا، وهذا الأساس الذي يقوم عليه الدِّينُ كلُّه، وهو الذي اهتدىٰ به أوَّل المؤمنين من أمَّتنا محمَّدٌ ﷺ، وهو الذي يهتدي به من آمن بالله ربًّا ورضي بالإسلام دينًا وبمحمَّدٍ ﷺ رسولًا، قال تعالى ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النمل: ٨١]، وقال سبحانه: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ١٧٢، ١٧٣).

صراط الله المستقيم هو ما علمه الرسول الملكي جبريل عليه السلام والرَّسول البشريُّ محمد ﷺ للنَّاس كافَّة من معنىٰ: الإيمان والإسلام والإحسان؛ قال الفاروق عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَيْنَا نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجلٌ شديد بياض الثِّياب، شديد سواد الشَّعر، لا يُرىٰ عليه أثر السَّفَر ولا يعرفه منا أحد، حتىٰ جلس إلىٰ النبيِّ ﷺ فأسند ركبتيه إلىٰ ركبتيه، ووضع كَفَّيْه علىٰ فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام.

فقال رسول الله ﷺ: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحجَّ البيت إن استطعت إليه سبيلًا**». قال: صدقت. قال: فعجبنا له، يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خَيْره وشرِّه**». قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»، رواه البخري ومسلم.

أوضح النبي ﷺ في حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ **مسمَّىٰ**: الإسلام، والإيمان، والإحسان، وهذا هو حقيقة الفقه في الدِّين، ولذلك قال النبيُّ ﷺ بعد شرح معاني هذه المسميات: «**هذا جبريل أتاكم يُعلِّمكم دينكم**»، وفي قوله هذا حثٌّ علىٰ تعلُّم الدين بفقه هذه المسميات والأخذ بها.

والعلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ شرح حديث معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يفقِّهه في الدين**» بحديث جبريل؛ لأنَّه حقيقة الدِّين كلِّه.

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الفقه في الدين يشمل الفقه في أصول الإيمان، وشرائع الإسلام والأحكام، وحقائق الإحسان؛ فإنَّ الدين يشمل الثلاثة كلها؛ كما في حديث جبريل لما سأل النبيَّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، وأجابه النبيُّ ﷺ بحدودها.

ففسَّر الإيمان بأصوله الستة، وفسَّر الإسلام بقواعده الخمس، وفسَّر الإحسان بـ «**أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»؛ فيدخل في ذلك التفقُّه في العقائد، ومعرفة مذهب السلف فيها، والتحقُّق به ظاهرًا وباطنًا، ومعرفة مذاهب المخالفين، وبيان مخالفتها للكتاب والسنَّة.

ودخل في ذلك علم الفقه، أصوله وفروعه، أحكام العبادات والمعاملات، والجنايات، وغيرها.

ودخل في ذلك التفقُّه بحقائق الإيمان، ومعرفة السير والسلوك إلى الله، الموافقة لما دل عليه الكتاب والسنَّة.

وكذلك يدخل في هذا: تعلُّم جميع الوسائل المعينة على الفقه في

---

(١) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار (ص٢٢، ٢٣).

الدين؛ كعلوم العربية بأنواعها.

فمن أراد الله به خيرًا فقَّهه في هذه الأمور، ووفَّقه لها».

والدين هو الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

والعمل بالإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ والمتابعة للنبي ﷺ هو الإحسان، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الدين هنا بمعنى العمل، وإنما قلنا ذلك؛ لأن الدِّين يُطلق بمعنى الجزاء، مثل قول الله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]».

وقال شيخنا العلامة العثيمين[٢]: «قوله: ﴿مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٢٥]، الإسلام بمعنى الإخلاص».

وقال العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «قوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ جملة حالية من ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مِّمَّنْ أَسْلَمَ﴾، والإحسان هنا: الموافقة للشريعة، فيكون في الآية دليل على شرطي العبادة، وهما الإخلاص والمتابعة».

(١، ٢) تفسير سورة النساء (٢/ ٢٦٩).

(٣) تفسير سورة النساء (٢/ ٢٦٩).

فأحسن الناس دينًا هو من كان محسنًا في عبادة ربِّه، مخلصًا في عمله، متابعًا للرسول ﷺ في صفة تعبُّده لله.

ومن هنا قال النبيُّ ﷺ بعد أن شرح معنى الإسلام والإيمان والإحسان في أجوبته لسؤالات جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**هذا جبريل أتاكم يُعلِّمكم دينكم**».

وقد شرح العلماء معنى الإيمان، وبيَّنوا أن الإسلام هو حقيقته، قال العلَّامة أبو عبيد القاسم بن سَلام (ت: ٢٢٤هـ)[1]: «المذهب في الإيمان؛ إنما هو دخول في الدين، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ [النصر: ١-٣]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة: ٢٠٨]؛ فالسلم: الإسلام، وقوله: ﴿كَآفَّةٗ﴾ معناها عند العرب الإحاطة بالشيء. قال رسول الله ﷺ: «**بُني الإسلام على خمس**»، فصارت الخمس كلها هي الملَّة التي سمَّاها الله سلَمًا مفروضًا».

ولذلك نفى علماء الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الدِّين عمن لم يأتِ بالإسلام، قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[2]: «من لم يُصلِّ فلا دين له».

وقال الفاروق عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[3]: «إنَّه لا حظَّ لأحد في الإسلام أضاع

---

(١) الإيمان (ص٥١، ٥٢)، ط - ١٤٢١هـ.

(٢) رواه أبو بكر ابن أبي شيبة في «الإيمان» (ص٤١ - رقم ٤٧)، بإسناد حسن.

(٣) رواه أبو بكر ابن أبي شيبة في «الإيمان» (ص٦٩ - رقم ١٠٣)، وقال العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: =

الصلاة».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن المسلم هو المطيع لله، ولا تصحُّ الطاعة من أحد إلا مع الإيمان».

وطاعة الله عَزَّوَجَلَّ هي عبوديته، وهي الأعمال الصالحة.

قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «لا يجوز أن يُعبد إلا الله، لا إله إلا هو، وهذا أصل الدين، وأساسه، ودِعامته، وأوله وآخره، وباطنه وظاهره، والوسيلة هي الأعمال الصالحة الحسنة».

الإسلام هو الطاعة، وهو العمل بشرائع الإسلام، وهذا الذي بيَّنه النبيُّ ﷺ للصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في جوابه لجبريل، وهو بيان للأمَّة كلها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «المؤمنون صدقوا الرسول ﷺ فيما أخبر به عن الله، وعن اليوم الآخر؛ فآمنوا بالله واليوم الآخر، وأطاعوه فيما أمر ونهىٰ، وحلَّل وحرَّم؛ فحرَّموا ما حرَّم الله ورسوله، ودانوا

=

«صحيح الإسناد علىٰ شرط الصحيحين».

(١) مجموع الفتاوىٰ (٧/ ١٥٧).

(٢) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص٢١).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٥٦٠).

دين الحق؛ فإنَّ الله بعث الرسول ﷺ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحلُّ لهم الطيبات، ويُحرِّم عليهم الخبائث؛ فأمرهم بكل معروف، ونهاهم عن كل منكر، وأحلَّ لهم كلَّ طيب، وحرَّم عليهم كلَّ خبيث».

الإسلام معناه الذي ينتظم كل أنواعه؛ هو الإخلاص لله وحده لا شريك له، والانقياد له؛ فهو التوحيد والعمل الصالح.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الإسلام يجمع معنيين:

أحدهما: الاستسلام والانقياد، فلا يكون متكبِّرًا.

والثاني: الإخلاص: من قوله تعالى: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر: ٢٩]، فلا يكون مشركًا، وهو أن يُسْلِم العبد لله ربِّ العالمين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٣]».

---

(١) الاستقامة (ص٥٠٨).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لفظ الإسلام: يتضمن الاستسلام والانقياد، ويتضمن الإخلاص».

وقال شيخ الإسلام[2]: «لا بُدَّ في الإسلام من الاستسلام لله وحده، وترك الاستسلام لما سواه، وهذا حقيقة قولنا: «لا إله إلا الله»؛ فمن استسلم لله ولغيره فهو مشرك، والله لا يغفر أن يُشرك به، ومن لم يستسلم له فهو مستكبر عن عبادته، وقد قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]».

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]، فقوله تعالى: ﴿فِى ٱلسِّلْمِ﴾؛ أي: في الإسلام، وفي الطاعة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «كلاهما مأثور عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وكلاهما حقٌّ؛ فإنَّ الإسلام هو الطاعة».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[4]: «كل ما كان من الإسلام وجب الدخول فيه؛ فإن كان واجبًا على الأعيان لزمه فعله، وإن كان واجبًا على الكفاية اعتقد وجوبه، وعزم عليه إذا تعين، أو أخذ بالفضل ففعله، وإن كان مستحبًّا اعتقد حسنه وأحبَّ فعله».

(١، ٢) الصراط المستقيم (ص٥٦٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٦٦).

(٤) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٦٧).

حديث جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ اشتمل على الدين كله، والدين هو العلم النافع والعمل الصالح؛ فالعلم النافع هو الإيمان، والعمل الصالح هو الإسلام، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ [الفتح: ٢٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «العمل الصالح هو عبادة الله وحده لا شريك له، وهو الدين، دين الإسلام، والعلم والهدى هو تصديق الرسول ﷺ فيما أخبر به عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وغير ذلك.

فالعلم النافع هو الإيمان، والعمل الصالح هو الإسلام.

العلم النافع من علم الله، والعمل الصالح هو العمل بأمر الله؛ هذا تصديق الرسول فيما أخبر، وهذا طاعته فيما أمر».

وقال العلَّامة أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣﴾ [التوبة: ٣٣]؛ فالهدى هدى الإيمان وهو القول، والدين هو: العمل وجميع الفرائض والشرائع والأحكام، ومجانبة الحرام والآثام.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٧٠، ١٧١).

(٢) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٧٧٥).

فالدين ليس هو خصلة واحدة، ولكنَّه خصال كثيرة من أقوال وأفعال، من فرائض وأحكام، وشرائع وأمر ونهي؛ فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ يجمع ذلك كله حتى صار دينًا قيِّمًا».

حديث جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ تضمَّن بيان الدِّين كلِّه، ففي الإيمان شرح ما يجب تصديقه من الخبر في الاعتقاد المستلزم لعمل القلب والجوارح، ولذلك جاء شرح ما لا يصح الإيمان إلا به من إسلام القلب والوجه لله وحده لا شريك له، وأداء أركان الإسلام.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «على هذين الأصلين مدار الإيمان، وهما: تصديق الخبر، وطاعة الأمر».

وقال تعالى: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ١٤ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٦﴾ [الليل: ١٤-١٦].

وحديث جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ اشتمل على الدين كله، وهو مضمَّنٌ في سورة البيِّنة التي أمر الله رسوله محمدًا ﷺ أن يقرأها على أبيِّ بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، قال النبيُّ ﷺ لأبيٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: «**إنَّ الله أمرني أن أقرأ عليك**: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [البينة: ١]»، رواه البخاري ومسلم.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٠٧).

قال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «خصَّ هذه السورة بالذكر؛ لما اشتملت عليه من: التوحيد، والرسالة، والإخلاص، والصحف والكتب المنزلة على الأنبياء، وذكر الصلاة، والزكاة، والمعاد وبيان أهل الجنة والنار، مع وجازتها».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيِّنًا ما في سورة البيِّنة من حقيقة الدين[٢]: «السورة التي قرأها النبيُّ ﷺ على أبيٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، لما أمره الله تعالى أن يقرأ عليه قراءة إبلاغ وإسماع بخصوصه، فقال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البيِّنة: ٤، ٥] الآية، وهذا حقيقة قوله: «لا إله إلا الله»، وبذلك بُعث جميع الرسل، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]».

والمسلم يتميَّز عن الكافر بحقيقة الدين، وبإقامة شعائر الإسلام، وشرائعه، وشعب الإيمان.

قال العلَّامة أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١﴾ [الروم: ٣١]؛ فجعل الله من ترك الصلاة مشركًا

---

(١) فتح الباري (٧/ ١٦١).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥١).

(٣) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٧٩٤).

خارجًا من الإيمان؛ لأنَّ هذا الخطاب للمؤمنين تحذير لهم أن يتركوا الصلاة فيخرجوا من الإيمان، ويكونوا كالمشركين».

وقد فسَّر علماء السلف من التابعين الإسلامَ بصراط الله المستقيم، وذلك لأنَّ إخلاص العمل لله عَزَّوَجَلَّ والانقياد له؛ هو العلم النافع والعمل الصالح، وهو العلم بالصراط المستقيم وبالسير عليه بإخلاص لله وحده.

قال أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «تعلَّموا الإسلام، فإذا تعلَّمتموه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم؛ فإنَّه الإسلام، ولا تحرِّفوا الإسلام يمينًا وشمالًا، وعليكم بسنَّة نبيكم - ﷺ -، والذي كان عليه أصحابه، وإياكم وهذه الأهواء التي تلقي بين الناس العداوة والبغضاء».

فالإسلام هو توحيد الله بعبوديته التي لا تكون ولا تُقبل إلا باتباع الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال سبحانه: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران: ٥٠، ٥١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الذي أمرنا الله بسؤال هدايته؛ فإنَّه قد وُصف بأنَّه الإسلام، ووُصف بأنه اتباع القرآن، ووُصف بأنه طاعة الله ورسوله، ووُصف بأنه طريق العبوديَّة، ومعلوم أنَّ

(١) الاستقامة (ص١٩٢).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٧/ ٣٩).

كل اسم من هذه الأسماء يجب اتباع مسماه، ومسماها كلها واحد وإن تنوَّعت صفاته».

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب «أصول الإيمان»: [الصراط هو الإسلام][1].

وساق حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «**ضرب الله مثلًا صراطًا مستقيمًا، وعلىٰ جنبتي الصراط سوران وأبواب مفتحة، وعلىٰ الأبواب ستور مرخاة، وعلىٰ باب الصراط داعٍ يقول: يا أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعًا، ولا تتعوجوا، وداعٍ يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد فتح شيء من تلك الأبواب قال: ويحك، لا تفتحه؛ فإنك إن تفتحه تلجه.**

فالصراط: الإسلام، والستور حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، وذلك الداعي علىٰ رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم».

ثم قال[2]: «رواه رزين، ورواه أحمد والترمذي عن النوَّاس بن سمعان بنحوه».

وحديث النوَّاس بن سمعان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **قال عنه الترمذي**[3]: «حسن غريب».

والإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ هو حقيقة «لا إله إلا الله»، وذلك يستلزم الإيمان

(١، ٢) أصول الإيمان (ص١١٣).

(٣) جامع الترمذي (ص٦٤٢).

بالملائكة والرسل وكتب الله؛ فالرسل أرسلهم الله بوحيه ليبيِّنوا للناس حق الله عليهم بعبادته، وكيف يعبدوه، وذلك مفصَّل في وحي الله الذي في كتبه.

والإيمان بالملائكة هو من الإيمان بالله الذي وكل بهم وظائفهم، ومنهم من هو موكل بأداء كلام الله ووحيه، وهو جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

والإيمان باليوم الآخر هو من الإيمان بالله الذي إليه ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ ليجازي خلقه بما عملوا في دار الاستخلاف.

والإيمان بالقدر خير وشرِّه هو من الإيمان وأفعال الله التي قضاها كونًا.

وإقامة أركان الإسلام من الصلاة والزكاة والصيام والحج؛ هو من الإسلام لله بالطاعة، وذلك هو الإيمان بالله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ التصديق الحقيقي بـ«لا إله إلا الله»، يستلزم التصديق بشُعبها وفروعها كلِّها، وجميع الدِّين - أصوله وفروعه - من شعب هذه الكلمة.

فلا يكون العبد مصدِّقًا بها حقيقة التصديق حتىٰ يؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، ولقائه.

ولا يكون مؤمنًا بأن الله إله العالمين حتىٰ يؤمن بصفات جلاله ونعوت كماله.

ولا يكون مؤمنًا بأنَّه «لا إله إلا هو» حتىٰ يَسْلُبَ خصائص الإلهية عن

---

(١) التبيان في أيمان القرآن (ص٩١، ٩٢).

كل موجود سواه، ويسلبها عن اعتقاده وإرادته، كما هي منفيَّةٌ في الحقيقة والخارج».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ متحدثًا عن ضرورة الناس إلىٰ الإيمان بالله وبالرسل وباليوم الآخر للهداية للحق، ولتحصيل سعادة الدارين، فقال[1]: «إنَّ الله سبحانه جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، وبعثوا جميعًا بالدعوة إلىٰ الله وتعريف الطريق الموصل إليه، وبيان حالهم بعد الوصول إليه.

فالأصل الأول يتضمَّن إثبات الصفات والتوحيد والقدر، وذكر أيام الله في أوليائه وأعدائه، وهي القصص التي قصَّها علىٰ عباده، والأمثال التي ضربها لهم.

والأصل الثاني يتضمَّن تفصيل الشرائع والأمر والنهي والإباحة، وبيان ما يحبُّه الله وما يكرهه.

والأصل الثالث يتضمَّن الإيمان باليوم الآخر، والجنَّة والنار، والثواب والعقاب.

وعلىٰ هذه الأصول الثلاثة مدار الخلق والأمر، والسعادة والفلاح موقوفة عليها، ولا سبيل إلىٰ معرفتها إلا من جهة الرسل».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ٩٥، ٩٦).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ التوحيد والإيمان بالرسل متلازمان، وكذلك الإيمان باليوم الآخر هو والإيمان بالرسل متلازمان؛ فالثلاثة متلازمة، ولهذا يُجمع بينها في مثل قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠]، ولهذا أخبر أن الذين لا يؤمنون بالآخرة مشركون، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الزُّمَر: ٤٥].

وأخبر عن جميع الأشقياء أن الرسل أنذرتهم باليوم الآخر، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩﴾ [المُلك: ٨، ٩]».

وقال شيخ الإسلام[2]: «هذه الأصول الثلاثة: توحيد الله، والإيمان برسله، وباليوم الآخر؛ هي أمور متلازمة».

وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «من جمع «الخصال الثلاث» التي هي جماع الصلاح، وهي الإيمان بالخلق والبعث: بالمبدأ والمعاد، والإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، وهو أداء المأمور به، وترك

(١) نقض المنطق (ص١٧٣، ١٧٤).

(٢) نقض المنطق (ص١٧٥).

(٣) تفسير شيخ الإسلام (١/ ٣٠٤).

المنهي عنه؛ فإنَّ له حصول الثواب وهو أجره عند ربِّه، واندفاع العقاب؛ فلا خوف عليه مما أمامه، ولا يحزن على ما وراءه، ولذلك قال: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]. إخلاص الدين لله، وهو عبادته وحده لا شريك له، وهو حقيقة قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وهو محسن.

فـ«الأول»، وهو إسلام الوجه؛ هو النية، وهذا «الثاني» وهو الإحسان؛ هو العمل».

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢١]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]؛ فالله يدعو إلى الجنة، وطريقها بيانه على الله، وعلى المخلوقين اتباعه والسير عليه حتى تكون ثوابًا لهم.

قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩].

قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الحق طريقه على الله، ويرجع إليه».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «القصد: السبيل القصد الذي يوصل إلى الله، وهي طريق عليه».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «علينا أن نتبع الكتاب، وعلينا

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٢٠٨).

(٢) بدائع الفوائد (١/ ٢٠٨) باختصار.

(٣) مجموع الفتاوى (١٩/ ٨٤).

أن نتبع الرسول ﷺ، واتباع أحدهما هو اتباع الآخر؛ فإنَّ الرسول ﷺ بلَّغ الكتاب، والكتاب أمر بطاعة الرسول ﷺ، ولا يختلف الكتاب والرسول ﷺ البتة، كما لا يخالف الكتاب بعضه بعضًا، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]».

فحديث جبريل دالٌّ علىٰ أن الإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرِّه؛ يصدِّقه الإسلام بالعمل لله والاتباع للنبي ﷺ، وإقامة أركان الإسلام.

والاتباع للنبي ﷺ لا يكون إلا بالعلم بصراط الله الذي علمه النبي ﷺ لأمَّته، والسير عليه.

قال زيد بن أسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **- وهو من سادات التابعين وعلمائهم -**(١): «لابُدَّ لأهل هذا الدِّين من أربع: دخول في دعوة الإسلام، ولابُدَّ من الإيمان، وتصديق بالله، وبالمرسلين أولهم وآخرهم، وبالجنة وبالنار، وبالبعث بعد الموت، ولابُدَّ أن تعمل عملًا تصدِّق به إيمانك، ولابد أن تعلَّم علمًا تحسن به عملك، ثم قرأ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]».

فالإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر متلازمان؛ قال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «الإيمان» (ص٨٥ – رقم ١٣٦)، وقال العلَّامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السند إليه صحيح».

أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦].

فمن علم أنه مجزي بأعماله في الدنيا، وأن الجزاء الأوفى يكون في اليوم الآخر؛ عمل صالحًا، وعبد الله عَزَّوَجَلَّ الذي يجازي عباده.

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «العلم بالجزاء والإيمان به هو أعظم الدواعي للقيام بالتقوىٰ».

وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٢٣].

قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩].

قال العلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «السعي للآخرة هو العمل بكل ما يُقَرِّب إليها، ويُدْني منها، من الأعمال التي شرعها الله علىٰ لسان نبِّيه محمد ﷺ.

---

(١) تيسير اللطيف المنَّان (ص١٠٥).

(٢) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص١٠٦، ١٠٧).

فإذا تأسست على الإيمان، وانبنت عليه؛ كان السعي مشكورًا مقبولًا مضاعفًا، لا يضيع منه مثقال ذرة».

من أراد الآخرة عمل لها بالسير إلى الله عَزَّوَجَلَّ على صراطه المستقيم، ومن كفر باليوم الآخر أو غفل عنه؛ فني بمتاع الدنيا عن عبادة الله وذكره.

قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ [النجم: ٢٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «هذا حال من لم يُحقِّق الإيمان بالله واليوم الآخر، فأعرض عن ذكر ربه والعمل لمعاده؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، فاتباع هواه هو اتباع متاع الحياة الدنيا».

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(٢)]: «أي: إليه يصير العباد».

وحقيقة الدِّين كلِّه الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ والاتباع لرسوله ﷺ، عن سفيان بن عبد الله الثقفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله! قُلْ لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك؛ قال: «**قل: آمنت بالله، ثم استقم**»، رواه مسلم.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)]: «طلب منه أن يُعلِّمه كلامًا جامعًا لأمر الإسلام كافيًا حتى لا يحتاج بعده إلى غيره، فقال له النبيُّ ﷺ:

(١، ٢) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص١٦٤).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٥٠٧).

«**قل: آمنت بالله، ثم استقم**»، وفي الرواية الأخرىٰ: «**قل: ربي الله، ثم استقم**»؛ هذا منتزع من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فُصِّلَت: ٣٠]».

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الاستقامة: هي سلوك الصِّراط المستقيم».

وقال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «أعطاه النبي ﷺ كلمتين: «**آمنت بالله**»، محل الإيمان القلب، «**ثم استقم**» علىٰ طاعته، وهذا في عمل الجوارح.

وهذا حديث جامع من أجمع الأحاديث».

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف في الجنة، كما تراءون الكوكب الشرقيَّ أو الغربيَّ في الأفق؛ لتفاضل ما بينهم**».

فقالوا: يا رسول الله! تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «**بلىٰ، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله، وصدَّقوا المرسلين**».

الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ حقيقته الاتباع لرسوله ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٥١٠).

(٢) شرح الأربعين النَّوويَّة (ص٢٦١).

تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

فالإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ واليوم الآخر، وطاعة أمر الله، واجتناب نهيه، وتصديق خبره، والعمل بأحكامه؛ هو حقيقة الدين.

قال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

الإيمان بالله هو الأساس الذي يُبنى عليه العمل الصالح، قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤].

والإيمان بالله هو الدين كله، قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فمن آمن بالله وأطاعه وكفر بما يُعبد من دون الله؛ فقد حقق التوحيد «لا إله إلا الله».

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «من خلع الأنداد والأوثان، وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يُعبد من دون الله، ووحَّد الله فعبده وحده، وشهد أنَّه «لا إله إلا هو» ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾، أي: فقد ثبت في أمره، واستقام على الطريق المثلى، والصراط المستقيم».

---

(١) تفسير القرآن العظيم (ص٢٠٢).

الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ هو الأساس لفعل كل شعب الإيمان، ولطاعة الرسول ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ [النساء: ٨٠].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّ الإيمان يدعو إلىٰ طاعة الله ورسوله، كما أن من لم يطع الله ورسوله فليس بمؤمن».

والله عَزَّوَجَلَّ بيَّن أنَّ الإيمان بالله هو الموجب لتحقيقه بطاعة أمره واجتناب نهيه وتصديق خبره، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء: ٥٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «أمر سبحانه بطاعته وطاعة رسوله، وافتتح الآية باسم الإيمان المُشْعِر بأنَّ المطلوب منهم من موجبات الاسم الذي نُودُوا وخُوطبوا به، كما يقال: يا من أنعم الله عليه وأغناه من فضله! أحسِنْ كما أحسن الله إليك، ويا أيها العالم علِّم الناس ما ينفعهم، ويا أيها الحاكم احكم بالحق، ونظائره.

ولهذا كثيرًا ما يقع الخطاب في القرآن بالشرائع، بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان (ص٣٢٥).

(٢) الرسالة التبوكية (ص٤٢، ٤٣).

ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: ٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١]، ونظائره.

ففي ذلك إشارة إلىٰ أنكم إن كنتم مؤمنين؛ فالإيمان يقتضي منكم كذا وكذا، فإنَّه من موجبات الإيمان وتمامه».

والإيمان بالله هو أساس التقوىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، واللفظ لمسلم: قال رسول الله ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**».

وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حديثه عن معرفة دين الإسلام، قال: «وهو ثلاث مراتب: الإسلام، والإيمان، والإحسان»[1].

ثم قال شيخ الإسلام[2]: «المرتبة الثانية: الإيمان، وهو بضع وسبعون شعبة، فأعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان.

وأركانه ستة: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر،

---

(١) ثلاثة الأصول (ص٦٤، ٦٥)، بشرح العلَّامة العثيمين.

(٢) ثلاثة الأصول (ص٧٦، ٧٧).

والقدر خيره وشرِّه».

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الجمع بين ما تضمَّنه كلام المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ من أنَّ الإيمان بضع وسبعون شعبة، وأنَّ الإيمان أركانه ستة؛ أن نقول: الإيمان الذي هو العقيدة أصوله ستة، وهي المذكورة في حديث جبريل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حينما سأل النبيَّ ﷺ عن الإيمان، فقال: «**الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه**»، متفق عليه.

وأما الإيمان الذي يشمل الأعمال وأنواعها وأجناسها؛ فهو بضع وسبعون شعبة، ولهذا سمَّىٰ الله تعالىٰ الصلاة إيمانًا في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، قال المفسِّرون: يعني صلاتكم إلىٰ بيت المقدس؛ لأنَّ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ كانوا قبل أن يؤمروا بالتوجُّه إلىٰ الكعبة يصلُّون إلىٰ بيت المقدس».

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «الإيمان اسم جامع لشرائع الإسلام، وأصول الإيمان، وحقائق الإحسان، وتوابع ذلك من أمور الدين، بل هو اسم للدين كله».

والإيمان بالله هو الإيمان بربوبيَّته، وألوهيَّته، وأسمائه وصفاته، وذلك توحيد المعرفة والإثبات والقصد والطلب؛ فالمسلم يتألَّه لله بعبوديَّته بما

---

(١) شرح ثلاثة الأصول (ص٧٦، ٧٧)، المجلد السادس من مجموع الفتاوىٰ.

(٢) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص٥٤).

شرع؛ أداءً لحقِّه في تفردُّه بالرُّبوبية وكمال نعوته وأسمائه، قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥].

قال العلامة أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العُكبري الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٣٨٧هـ)[1]: «حسبك من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ بآية جمعت كلَّ قول طيِّب وكلَّ عمل صالح؛ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]؛ فإنَّه جمع في هذه الآية القول والعمل والإخلاص والطاعة لعبادته، وطاعته والإيمان به، وبكتبه، وبرسله، وما كانوا عليه من عبادة الله وطاعته.

فهل للعبادة التي خلق الله العباد لها عمل غير عمل من الإيمان؟

فالعبادة من الإيمان هي، أو من غير الإيمان؟

فلو كانت العبادة التي خلقهم الله لها قولًا بغير عمل؛ لما أسماها عبادة، ولسمَّاها قولًا، ولقال: وما خلقت الجن والإنس إلا ليقولون.

وليس يشك العقلاء أنَّ العبادة خدمة، وأنَّ الخدمة عمل، وأنَّ العامل مع الله عَزَّوَجَلَّ إنَّما عمله أداء الفرائض، واجتناب المحارم، وطاعة الله فيما أمر به من شرائع الدين وأداء الفرائض».

فعبوديَّة الله وتوحيده، والعمل له بطاعته، والاتباع لنبيِّه ﷺ؛ هو حقيقة الإيمان.

---

(١) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٧٩٢، ٧٩٣).

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس الإيمان بالتمنِّي ولا بالتحلِّي»، **ومصداق ذلك في قوله تعالىٰ:** ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ [البقرة: ١٨٩]، والتقوىٰ هي الإيمان والعمل الصالح؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧].

فالمتقون هم الذين صدقوا الاعتقاد بالقول والعمل، فآمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأقاموا الصلاة والزكاة والصوم والحج، وفرائض الإسلام وواجباته، وأدوا حقَّ الله وحقوق عباده.

قال أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ [(١)]: «﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، تكلموا بكلام الإيمان وحقَّقوه بالعمل».

وقال تعالىٰ: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ١٢٤﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «الأماني: أحاديث النفس

---

(١) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٧٩٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان (ص٢٠٣).

المجردة عن العمل، المقترن بها دعوىٰ مجردة، لو عُورضت بمثلها لكانت من جنسها، وهذا عامٌّ في كل أمر، فكيف بأمر الإيمان والسعادة الأبدية؟!

فإن أمانِيَّ أهل الكتاب قد أخبر الله بها؛ أنَّهم قالوا: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ﴾ [البقرة: ١١١]، وغيرهم ممَّن ليس ينتسب لكتاب ولا رسول من باب أولىٰ وأحرىٰ، وكذلك أدخل الله في ذلك من ينتسب إلىٰ الإسلام لكمال العدل والإنصاف؛ فإنَّ مجرد الانتساب إلىٰ أيِّ دينٍ كان لا يفيد شيئًا إن لم يأتِ الإنسان ببرهان علىٰ صحَّة دعواه، فالأعمال تصدق الدعوىٰ أو تكذبها».

وفي حديث جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ **ذكر النبي** ﷺ **أساس أركان الإيمان، فقال: «الإيمان أن تؤمن بالله»**، وذكر من بقية أركانه أن تؤمن «برسله»، وذلك هو أساس الإسلام، حيث قال النبيُّ ﷺ: «**الإسلام أن تشهد: أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله**»، فالإيمان بالله أن تشهد أن لا إله إلا الله، والإيمان بالرسل هو أن تشهد أنَّ محمدًا رسول الله ﷺ؛ لأن الكفر بمحمَّد ﷺ كُفرٌ بجميع الرسل، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]. فالكفر بواحد من الرسل كفر بجميع الرسل؛ كما قال تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، وذلك أن نوحًا أوَّل رسول إلىٰ الأرض؛ فالكفر به كفرٌ بجميع الرسل، فمن لم يؤمن بجميع الرسل فهو كافر؛ لأن الرسل

جميعًا مبعوثون من عند الله، فهم رسل الله عليهم الصلاة والسلام، ولذلك فإنَّ دعوتهم واحدة وهي توحيد الله؛ لذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ في دلائل نبوة محمد رسول الله ﷺ: ﴿جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «رسول الله ﷺ جاء بالحق في جميع شرعة الله تعالىٰ له من الإخبار والطلب، ﴿وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ أي: صدَّقهم فيما أخبروا عنه من الصفات الحميدة، والمناهج السديدة، وأخبر عن الله تعالىٰ في شرعه وأمره كما أخبروا، ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ [فصلت: ٤٣] الآية».

وورقة بن نوفل رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ كان من بقايا الحنفاء من أهل الكتاب، عندما أخبره النبيُّ ﷺ عن الوحي الذي أتاه؛ قال: «هذا الناموس الذي كان ينزل علىٰ موسىٰ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ»، متفق عليه.

وهرقل عندما سأل أبا سفيان عن محتوىٰ دعوة محمد رسول الله ﷺ فأجابه: «إنه يأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به، ويأمرنا بالصلاة والصلة والعفاف»، فقال هرقل: لئن كان ما تقول حقًّا فإنه سيملك ما تحت قدمي هاتين. رواه البخاري ومسلم.

فدعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واحدة، فمن كَفَر بواحد منهم فهو كافر بالجميع.

والإحسان هو تحقيق الإيمان والإسلام، وهو العمل بالقرآن، واتباع

---

(١) تفسير القرآن العظيم (ص١١٥٥).

صراط الله، وهو الإيمان بالله وباليوم الآخر، قال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾ [لقمان: ١ – ٥].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ بيان للمحسنين، وعلىٰ هذا فلا تكون نعتًا، بل تكون بيانًا؛ أي: عطف بيان، والمحسنون هم ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤﴾».

وقال شيخنا العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنَّ القرآن الكريم جمع الخير كلَّه، فهو علم نافع؛ لقوله تعالىٰ: ﴿هُدٗى﴾، وعمل صالح؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَرَحۡمَةٗ﴾؛ لأنَّ الرحمة لا تنال إلا بالعمل الصالح».

وقال المجدِّد العلَّامة محمد العثيمين[٣]: «قوله تعالىٰ: ﴿لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾، يستفاد منه أنَّه كلَّما ازداد الإنسان إحسانًا؛ ازداد انتفاعًا بالقرآن بالهداية والرحمة، بناءً علىٰ القاعدة: أنَّ الحُكم إذا عُلِّق بوصف كان يقوىٰ بحسب وجود ذلك الوصف».

---

(١) تفسير سورة لقمان (ص١٩).

(٢) تفسير سورة لقمان (ص١٨).

(٣) تفسير سورة لقمان (ص١٧).

وقال العلامة العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ شارحًا معنىٰ الإحسان[١]: «قوله تعالىٰ: ﴿لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا في عبادة الله تعالىٰ، وأحسنوا إلىٰ عباد الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، والإحسان ضدُّ الإساءة، والإساءة إما أن تكون بترْك الواجِب أو بفِعْل المُحرَّم.

فمن ترك ما أوجب الله تعالىٰ عليه لنفسه من الصلاة وغيرها؛ فليس بمُحسن، ومن فعل ما حرَّم الله تعالىٰ عليه؛ فليس بمُحسن، ومن ترك ما يجب للناس من صِلة الرَّحِم وبِرِّ الوالدين والإحسان إليهم؛ فليس بمُحسِن، ومن اعتدىٰ عليهم فليس بمُحسِن».

ووصف الله القرآن بحبله، فقال سبحانه: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«إنَّ الله يرضىٰ لكم ثلاثًا، ويسخط لكم ثلاثًا: يرضىٰ لكم: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا، وأن تناصحوا من ولَّاه الله أمركم، ويسخط لكم: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال»**، رواه مسلم.

والقرآن هو ميثاق الله إلىٰ خلقه، قال تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧﴾ [المائدة: ٧].

والقرآن يفسِّر بعضه بعضًا؛ فالقرآن حبل الله بمعنىٰ العروة الوثقىٰ، فهو

---

(١) تفسير سورة لقمان (ص١٦).

محكم في نفسه، والأخذ به سبب دخول الجنة، وهو الإيمان والإسلام.

قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٦٥].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «قوله: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٦]؛ أي: فقد استمسك من الدين بأقوىٰ سبب، وشبه ذلك بالعروة القوية التي لا تنفصم؛ فهي في نفسها محكمة مبرمة قويَّة، وربطها قوي شديد، ولهذا قال: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ﴾ الآية.

قال مجاهد: العروة الوثقىٰ: يعني: الإيمان، وقال السدي: هو الإسلام، وقال سعيد بن جبير والضحاك: يعني: لا إله إلا الله.

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: العروة الوثقىٰ القرآن.

وعن سالم بن أبي الجعد قال: هو الحب في الله، والبغض في الله.

وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا تنافي بينها».

وإذا كان الإحسان هو الاهتداء بالقرآن؛ فإن غفلة المسلم عن الإحسان يرجع إلىٰ جهله بمعاني القرآن، أو إعراضه عن فهمه والاهتداء به، أو غفلته عن معانيه، أو سوء فهمه له.

قال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (ص٢٠٢).

قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، قال خالد بن معدان رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ما من الناس إلا من له أربع أعين؛ عينان في وجهه لدنياه ومعيشته، وعينان في قلبه لدينه، وما وعد الله من الغيب، وما من أحد إلا ومعه شيطان مستبطن فقار ظهره عاطف عنقه على عاتقه، فاغر فاه إلىٰ ثمرة قلبه؛ فإذا أراد الله بعبد خيرًا بصرت عيناه التي في قلبه، وما وعد الله تعالىٰ من الغيب، وإذا أراد الله بعبد شرًّا طمس عليها؛ فذلك قوله: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]».

وعندما خرج أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **إلىٰ قتال الخوارج، قال:** قال النبيُّ ﷺ فيهم: «**يقرءون القرآن يحسبون أنَّه لهم، وهو عليهم**»[٢].

وإحسان العمل أصله وأساسه صلاح السريرة، والناس مجزيون يوم القيامة بسرائرهم وظواهرهم، قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: ««السرائر»: جمع سريرة، وهي سرائر الله التي بينه وبين عبده في ظاهره وباطنه.

فالإيمان من السرائر، وشرائعه من السرائر؛ فتُختَبر ذلك اليوم حتىٰ يظهر خيرها من شرِّها، ومُؤَدِّيها من مضيِّعِها، وما كان لله ممَّا لم يكن له.

---

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٧/ ٢٧١).

(٢) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب التحريض علىٰ قتال الخوارج (ص٤٣٣ – رقم ٢٤٦٧).

(٣) التبيان في أيمان القرآن (ص١٦٧، ١٦٨).

قال عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «يُبْدِي الله يوم القيامة كلَّ سِرٍّ، فيكون زينًا في الوجوه، وشَينًا فيها»، والمعنى: تختبر السرائر بإظهارها، وإظهار مقتضياتها من الثواب والعقاب، والحَمْدِ والذَّمِّ.

وفي التعبير عن الأعمال بـ«السِّرِّ» لطيفة، وهي أنَّ الأعمال نتائج السرائر الباطنة؛ فمن كانت سريرته صالحةً كان عمله صالحًا، فتبدو سريرته على وجهه نورًا وإشراقًا وحُسْنًا، ومن كانت سريرته فاسدة كان عمله تابعًا لسريرته - لا اعتبار بصورته -، فتبدو سريرته على وجهه سوادًا وظلمة وشينًا. وإن كان الذي يبدو عليه في الدنيا إنما هو عمله لا سريرته، فيوم القيامة تبدو عليه سريرته، ويكون الحكم والظهور لها».

والإيمان والإحسان متلازمان، فالإيمان بالله يستلزم التألُّه له وعبوديته، وذلك هو إحسان العمل، وهو حقيقة توحيد الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]. وبمجموع هذين الوصفين علَّق السعادة، فقال: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١٢]. كما علَّقه بالإيمان باليوم الآخر والعمل الصالح في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ

(١) تفسير شيخ الإسلام (١/ ٣٤٧).

وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المائدة: ٦٩]. وهذا يدل على أن الإسلام الذي هو إخلاص الدين لله مع الإحسان وهو العمل الصالح الذي أمر الله به؛ هو والإيمان المقرون بالعمل الصالح متلازمان».

ولا يكون الشخص مؤمنًا حتى يأتي بأركان الإيمان وفرائضه وواجباته، وذلك بيِّن على أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل، فالجوارح تبع للقلب، فإن اتباع الجوارح العمل بشعب الإيمان دليل على وجود الإيمان في القلب.

قال العلَّامة أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أما الإيمان بما فرضه الله عَزَّوَجَلَّ من العمل بالجوارح تصديقًا لما أيقن به القلب، ونطق به اللسان؛ فذلك في كتاب الله تعالى يكثر على الإحصاء، وأظهر من أن يخفى؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج: ٧٧]، وقال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، في مواضع كثيرة من القرآن أمر الله فيها بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وصيام شهر رمضان، والجهاد في سبيله، وإنفاق الأموال وبذل الأنفس في ذلك، والحج بحركة الأبدان ونفقة الأموال؛ فهذا كلُّه من الإيمان، والعمل به فرض، لا يكون المؤمن إلا بتأديته».

وقال أبو عبد الله ابن بطة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «من قال: الإيمان قول بلا عمل؛

---

(١) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٧٦٣).

(٢) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢/ ٧٧٥).

فليس هو من أهل دين الحق، ولا مؤمن، ولا مهتد».

فالإيمان هو علم القلب واعتقاده وعمله، وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشرِّه.

والإسلام هو حقيقة الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، وصوم رمضان، وحجُّ البيت من استطاع إليه سبيلًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «متى حصل له هذا الإيمان؛ وجب ضرورة أن يحصل له الإسلام، الذي هو الشهادتان والصلاة والزكاة والصيام والحج؛ لأن إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله يقتضي الاستسلام لله والانقياد له، وإلا فمن الممتنع أن يكون قد حصل له الإقرار والحب والانقياد باطنًا ولا يحصل ذلك في الظاهر مع القدرة عليه».

وقال شيخ الإسلام[2]: «العمل الظَّاهر لازم للعمل الباطن، لا ينفكُّ عنه، وانتفاء الظَّاهر دليل انتفاء الباطن».

والإحسان هو كمال الإخلاص لله بالفعل الحسن الموافق للسنَّة، قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٢] [3].

(١) شرح حديث جبريل (ص٤٤٤).

(٢) شرح حديث جبريل (ص٤٤٦).

(٣) شرح حديث جبريل (ص٥٧٨).

وقول النَّبي ﷺ في حديث جبريل: «**الإيمان: أن تؤمن بالله**»؛ هو بيان للأصل والأساس لحقيقة الدِّين، فإنَّ معنى الإسلام الذي شرحه النَّبي ﷺ في الحديث نفسه من إقامة أركان الإسلام هو معنى الإيمان بالله، وهو التألُّه لله وعبوديَّته وحده لا شريك له.

فحقيقة الإيمان بالله هو تحقيق التَّوحيد، قال العلَّامة أبو عبد الله ابن بطَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الإيمان إقرار لله بالرُّبوبيَّة، وخضوع له في العبوديَّة، وتصديق له في كلِّ ما قال وأمَرَ ونهى».

والإيمان اشتقاقه من الأمن الذي هو القرار والطمأنينة، وذلك إنَّما يحصل إذا استقرَّ في القلب التَّصديق والانقياد[2].

وطمأنينة القلب بتوحيد الله هي حقيقة الإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥]، وهذه الطمأنينة تألُّه لله وحده المنافي للاستكبار، فمن تولَّى عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، هذا كافر؛ لأنَّه لم يأتِ بحقيقة الإيمان، قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣٢]. فعلم القلب - وهو اعتقاده وتصديقه - يستلزم عمل القلب والجوارح بالانقياد لله.

فالإيمان بالله هو أساس الإسلام، قال النَّبي ﷺ: «**الإيمان بضع وستُّون شعبةً، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله**» متَّفق عليه.

---

(١) الإبانة عن شريعة الفرقة النَّاجية (٢/ ٨٦٤).

(٢) الصَّارم المسلول (ص٥١٩).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «أوَّل الدِّين وآخره، وظاهره وباطنه هو التَّوحيد، وإخلاص الدِّين كلِّه لله هو تحقيق قول: «لا إله إلا الله»».

وتبيين النَّبي ﷺ حقيقة الإيمان بالله بذِكْر معنى الإسلام؛ هو لدفع توهُّم اعتقاد أنَّ الإيمان بالله مجرَّد قولٍ لا أساس له في اعتقاد الباطن وعمل الجوارح الظَّاهر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «القول المجرَّد عن اعتقاد الإيمان ليس إيمانًا باتِّفاق المسلمين».

فالإسلام هو إحسان العمل لله بتوحيده وعبادته وحده لا شريك له، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «إنَّ الإسلام الذي هو إخلاصُ الدِّين لله مع الإحسان، وهو العملُ الصَّالح الذي أمَرَ الله به، هو والإيمان المقرون بالعمل الصَّالح متلازمان».

قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ [البينة: ٥].

فعبادة الله هي توحيده بإقامة الوجه والقلب إليه، وعبادته بإقامة الصلاة وأداء الزَّكاة، وسائر ما أمر الله به من عبادته وطاعته، وذلك الدِّين القيِّم.

وفي الصَّحيحين أنَّ النَّبي ﷺ قال لوفد عبد القيس: «**آمرُكُم بالإيمان**

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٢٦٤).

(٢) شرح حديث جبريل (ص٤٤١).

(٣) الإيمان الكبير (ص٥١٢).

بالله، أتدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، وصوم رمضان، وأن تؤدوا خمس المغنم».

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فسَّر الإيمان هنا بما فسَّر به الإسلام؛ لأنَّه أراد بالشَّهادتين هنا أن يشهد بهما باطنًا وظاهرًا».

فدلَّ حديث وفد عبد القيس على أنَّ مسمَّى الإيمان إذا أُطلق دخل فيه الإسلام، وهكذا الإسلام إذا أُطلق دخل فيه الإيمان، ودلَّ حديث جبريل على أنَّه إذا اقترن اسم الإيمان بالإسلام؛ كان الإيمان اعتقاد القلب وعلمه وعمله، وكان الإسلام هو الأعمال الظَّاهرة؛ فمسمَّى الإيمان والإسلام بينهما عموم وخصوص.

والإيمان دعائمه أركان الإسلام، عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، وحجّ البيت، وصوم رمضان**»، رواه البخاريُّ ومسلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت، وتؤمن بالقَدَر خيره وشرِّه، ومتى حصل له هذا الإيمان وجب ضرورة أن يحصل له الإسلامُ الذي هو الشَّهادتان والصَّلاة والزَّكاة والصِّيام والحجُّ؛ لأنَّ إيمانه بالله وملائكته ورسله يقتضي

(١) شرح حديث جبريل (ص٤٤٤).

الاستسلام لله والانقياد له».

وإذا عرفنا أركان الإيمان والإسلام، لابُدَّ من معرفة ذروة سنامه؛ فإنَّ النَّبي ﷺ شرح ذلك لأصحابه، وهو تبيين للأمَّة كلِّها؛ قال النبيُّ ﷺ لمعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟ رأس الأمر الإسلام، وعموده الصَّلاة، وذروة سنامه الجهاد**»(١).

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «أخبر النبيُّ ﷺ عن ثلاثة أشياء: رأس الأمر، وعموده، وذروة سنامه.

فأمَّا رأس الأمر: ويعني بالأمر: الدِّين الذي بُعث به وهو الإسلام، وقد جاء تفسيره في الرِّواية الأخرىٰ بالشَّهادتين، فمن لم يقرَّ بهما ظاهرًا وباطنًا؛ فليس من الإسلام في شيء.

وأمَّا قوام الدِّين الذي يقوم به الدِّين كما يقوم الفسطاط علىٰ عموده؛ فهو الصَّلاة، وفي الرِّواية الأخرىٰ: «**وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة**»، وقد سبق القول في أركان الإسلام وارتباط بعضها ببعض.

وأمَّا ذروة سنامه - وهو أعلىٰ ما فيه وأرفعه - فهو الجهاد، وهذا يدلُّ علىٰ أنَّه أفضل الأعمال بعد الفرائض».

والجهاد بالسَّيف في أصل حكمه هو فرض كفاية، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٣١)، والتِّرمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصَّلاة (ص٥٩٤ - رقم ٢٦١٦)، وقال التِّرمذي: حسن صحيح.

(٢) جامع العلوم والحكم (ص٣٢٧، ٣٢٨).

كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وهذا ما ذكره الحافظ ابن رجب نفسه(١).

والجهاد في مفهومه العام هو بذل الجهد في تحقيق أمر الله، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «الجهاد حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحبُّه الله من الإيمان والعمل الصَّالح، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان».

فالجهاد بمفهومه العام هو إقامة شعب الإيمان، ومن جملتها الجهاد بالسَّيف والمال واللسان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «الجهاد تحقيق كون المؤمن مؤمنًا».

وقد ورد عن النَّبي ﷺ تسمية جملة من أعمال البِرِّ والإسلام والإيمان جهادًا، قال ﷺ: «**أفضل الجهاد حجٌّ مبرور**»، رواه البخاريُّ من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

وعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبي ﷺ قال: «**من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتىٰ يرجع**»(٤).

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ١٥٢).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ١٩١).

(٣) جامع المسائل، المجموعة الخامسة (ص٣٦٠).

(٤) رواه التِّرمذي، كتاب العلم، باب فضل طلب العلم (ص٦٠١ – رقم ٢٦٤٧)، وقال: هذا حديث حسن غريب، ورواه بعضهم فلم يرفعه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّما جعل طلب العلم في سبيل الله؛ لأنَّ به قوام الإسلام، كما أنَّ قوامه بالجهاد؛ فقوام الدِّين بالعلم والجهاد».

وقال العلَّامة المجدِّد عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «أليس التعلُّم والتَّعليم والصَّبر على ذلك من أكبر الجهاد؟

أليس الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والنَّصيحة للخلق، من الجهاد؟ أليس تنفيذ الحقِّ ونصره، وردُّ الباطل وقمعه من الجهاد؟

أليس تعليم الجاهلين، وتنبيه الغافلين، وإيقاظ المعرضين، وموعظة المعارضين ومجادلتهم، من الجهاد؟

هل تتمُّ الأمور بدون الجهاد؟! وهل يستقيم الهدى والاهتداء، ويحصل الصُّعود والارتقاء إلَّا بالجهاد؟!

طوبى لأهل العلم، والدِّين، والجهاد».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «إنه – جبريل – سأله عن الإسلام والإيمان، ففي إحسان هذا الإسلام والدين الذي يكون صاحبه محسنًا وتابعًا لما فيه رضوان الله في الأقوال والأفعال، هو المقام الذي أشار إليه النبيُّ ﷺ حين قال: «**الإحسان أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك**»، ومراقبة الله هي السرُّ المطلوب في جميع الأحوال».

---

(١) مفتاح دار السَّعادة (١/ ٧٠).

(٢) الرِّياض النَّاضرة والحدائق النيِّرة الزَّاهرة (ص١٨٢، ١٨٣).

(٣) شرح حديث جبريل (ص٥٧٩-٥٨١).

والسُّنَّة يُفسِّر بعضها بعضًا، وقد جاء في أحاديث كثيرة عن النَّبي ﷺ تفسير الإسلام، ففي الصحيح عن عمر رضي الله تعالىٰ عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا**». وفيه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**».

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده؛ أنه سأل رسول الله ﷺ عن الإسلام فقال: «**أن تُسلم قلبك لله، وأن تولي وجهك إلىٰ الله، وأن تصلي الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة**» رواه أحمد.

وعن أبي قلابة عن رجل من أهل الشام عن أبيه؛ أنه سأل رسول الله ﷺ: ما الإسلام؟ قال: «**أن تسلم قلبك لله، ويسلم المسلمون من لسانك ويدك**». قال: أي الإسلام أفضل؟ قال: «**الإيمان**». قال: وما الإيمان؟ قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت**».

والنبيُّ ﷺ في بعثه معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ اليمن أجمل له معاني الإسلام التي بعثه بها إلىٰ كفَّار اليمن ليدعوهم إليها، وفي حديث جبريل أجمل النبيُّ ﷺ في أجوبته معاني الدِّين كله لجميع الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وللأُمَّة كلِّها.

والإسلام هو سبب الخير كلِّه، الدِّينيِّ والدُّنيويِّ، وهو ينبوع الاعتقادات الصَّحيحة والأعمال الصَّالحة، وهو الدِّين كلُّه.

قال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ [آل عمران: ٢٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الإسلام والإيمان أصل كل خير وجِماعه».

وهذا ممَّا كان يدعو به سيِّد الحنفاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ النَّاس ليسلموا، فيُبيِّن لهم من ثمرات وخيرات الإسلام والإيمان ما يكون سببًا في حثِّهم على الإسلام.

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [العنكبوت: ١٦]، وأعظم الخير عبوديَّة الله وتوحيده الموجب لنصره ورزقه وولايته وكفايته ودخول الجنَّة، ولذلك قال الخليل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

قال العلَّامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الإيمان خير للمؤمنين في أبدانهم وقلوبهم وأرواحهم ودنياهم وأخراهم، وذلك لما يترتَّب عليه من المصالح والفوائد، فكل ثواب عاجل وآجل فمن ثمرات الإيمان، فالنصر والهدىٰ والعلم والعمل الصالح والسرور والأفراح، والجنة وما اشتملت عليه من النعيم؛ كل ذلك مسبب عن الإيمان».

فالمؤمنون هم الرَّابحون الفائزون في الدُّنيا والآخرة، والكافرون هم

(١) الاستقامة (ص ٣٢٨).

(٢) تيسير الكريم الرَّحمن (ص ٢١٥).

الخاسرون دنيا وآخرة، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١-٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢].

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «من حقَّق الإيمان بالله والكُفْر بالباطل؛ فهو الرَّابح».

وذكر فضل الإسلام وتفسيره المقصود منه أن يقيم المسلمون أركانه ومبانيه؛ لأنَّ هذا هو الأساس الذي جمع الخير كلّه، وهو الذي به تُقبل الأعمال، وتكون من الباقيات الصَّالحات التي تُدخل الجنَّة.

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «المراد بالإسلام هنا الاستسلام ظاهرًا وباطنًا، ولهذا فسَّرَهُ العلماء بأنَّه الاستِسْلام لله ظاهرًا وباطنًا، الاستسلام ظاهرًا: أن يقوم الإنسان بالأعمال الظاهرة كالصَّلاة والزَّكاة والصِّيام والحجِّ، والاستسلام باطنًا هو: إخلاص النِّيَّةِ لله عَزَّوَجَلَّ، قال الله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢]، إسلام الوجه لله أي: إسلام القصد، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ بالعمل الصَّالِح، أي: عمل الجوارح.

والإسلام عند ذكره وحده يشمل الإيمان، والإيمان إذا ذُكر وحده يشمل الإسلام، وإذا اجتمعا صار الإيمان للباطن والإسلام للظاهر، قال عَزَّوَجَلَّ:

---

(١) تفسير سورة العنكبوت (ص٣٠٧).

(٢) تفسير سورة العنكبوت (ص٢٥٥).

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]».

وقال العلامة المجدِّد عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

«المقصود من الشهادتين ما دلتا عليه من البراءة من كل معبود سوى الله، وأنَّه هو المعبود وحده لا شريك له، والإيمان بالرسل، والتزام متابعتهم، هذا هو مدلول الشهادتين».

فالشهادتان «أشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله» متلازمتان، فتحقيق التوحيد «لا إله إلا الله» هو الدين والإسلام كله، وهو الصراط المستقيم الذي أمرنا الله بسلوكه، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وصراط الله المستقيم الدليل في الهداية إليه وتبيينه رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

ومن كفر بمحمد ﷺ فهو كافر بالله الذي اصطفاه وبعثه بشريعة الإسلام، ومن تعبد بغير ما بَعث الله به نبيه محمدًا ﷺ من شرع مبدَّل محرَّف منسوخ أو من ضلالات مخترعة وبدع مضلة بغير هدًى من الله؛ فهذا كافر بنعمة الله على خلقه التي هي أعظم النعم مطلقًا، قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا:

---

(١) مصباح الظَّلام (ص٥٤٢).

نعمة الله: محمد ﷺ.

فنعمة الإسلام هي أعظم النعم على الإطلاق؛ فهي الموجبة لدخول الجنة والنجاة من النار، بها يقيم المسلمون حق الله الخالص في توحيده وعبوديته، وبها عرَّف الله عباده الطريق الموصل إليه، وبنعمة الاتِّباع لرسول الله ﷺ هدى الله عباده لسلوك الصِّراط الموصِّل إلى الله الموجب لرضاه الذي يكون به الفوز بالجنة والنجاة من النار.

والشهادتان متلازمتان «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمدًا رسول الله»، فتوحيد الله وعبوديته لا يتم إلا بما شرع، وما شرع هو ما بُعث النبيُّ ﷺ ببيانه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أصل الدين ألا يُعبد إلَّا الله، وألا يُعبد إلا بما شرع».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنَّ التوحيد والإيمان بالرسل متلازمان، وكل أمَّة لا تصدِّق الرسل فلا تكون إلا مشركة، وكل مشرك فإنَّه مكذِّب للرسل، فمن دخل في نوع من الشرك الذي نهت عنه الرسل فإنَّه مناقض لهم مخالف لموجب رسالتهم».

قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنعام: ١٠٦]، فتوحيد الله هو خلوص العبوديَّة له وحده لا شريك له، باتِّباع النَّبي ﷺ والإعراض عن المشركين.

---

(١) الرد على البكري (ص٢٨١).

(٢) الرد على البكري (ص ٢٦٨، ٢٦٩).

والإعراض عن المشركين هو من توحيد الله واتِّباع النَّبي ﷺ؛ فإنَّ التَّوحيد هو الكُفْر بما يُعبَد من دون الله والإيمانُ بالله وحده، والاتِّباع للنَّبي ﷺ توحيد؛ لأنَّه بُعث بالهداية إلىٰ توحيد الله عَزَّوَجَلَّ.

الدين كله حقيقته ومعناه في الشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمدًا رسول الله؛ فهو تجريد التأله والعبودية لله وحده، وتجريد الاتباع لرسول الله ﷺ.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «انظر في القرآن كُفْر من جعلوا شركاء في الرسالة، وكفر من جعلوا شُركاء في العبادة؛ لأنَّ كلًّا منهم لم يُحَقِّق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؛ فالذين اتَّخذوا شُركاء في العبادة قال الله عنهم: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦]، والذين اتَّخذوا شُركاء في الرسالة قال الله تعالىٰ عنهم: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ [البقرة: ١٦٦]؛ لأنَّ المتابعة لغير الرُّسُل والمعارضة لأقوال الرُّسُل شِرْك مع الرُّسُل في الرسالة؛ لأن الذي يجب اتباعه من البشر هم الرُّسُل، فإذا جعل هذا الرجل متبوعه بمنزلة الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فيأخذ بقوله فِعْلًا وتَرْكًا وتصديقًا؛ فقد جعله رسولًا».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «كان أئمة السلف رحمهم الله

---

(١) تفسير سورة الزُّمر (ص٣١٣).

(٢) الاستقامة (ص٥١١، ٥١٢).

يجمعون هذين الأصلين؛ كقول الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. قال: أخلصه وأصوبه. فقيل له: يا أبا علي! ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل، وإذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، حتىٰ يكون خالصًا صوابًا، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون علىٰ السنة.

وقد روىٰ ابن شاهين واللالكائيُّ عن سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: «لا يقبل قول إلَّا بعمل، ولا يقبل قول وعمل إلا بنيَّة، ولا يقبل قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة»، ورويا عن الحسن البصري مثله، ولفظ ما روي عن الحسن: «لا يصلح»، مكان: «لا يقبل»».

والأخذ بشرائع الإسلام والقيام بشعب الإيمان هو حقيقة العبوديَّة والتألُّه لله، وهو الإسلام الذي يدين به المسلمون لله، فإنَّ حقيقته الاستسلام لله ظاهرًا وباطنًا.

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة: ٢٠٨].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يقول الله تعالىٰ آمرًا عباده المؤمنين به المصدقين برسوله ﷺ أن يأخذوا بجميع عرىٰ الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره، ما استطاعوا من ذلك».

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٤٧).

ولزوم الشَّرع كله هو مقتضىٰ شهادة أنَّ محمَّدًا رسول الله ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ﴾ [الحشر: ٧]، وهو حقيقة الاتِّباع له عليه أتمُّ الصلاة والسَّلام.

قال العلَّامة أبو القاسم الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الاتِّباع عند العلماء هو الأخذ بسنن رسول الله ﷺ فيها».

وقول النَّبي ﷺ: «**هذا جبريل أتاكم يُعلِّمكم دينكم**»، فيه بيان أنَّ حقيقة الدِّين الخضوع لله بالاعتقاد الصحيح، والعمل الصَّالح.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «فالدين كله داخل في العبادة، وقد ثبت في «الصحيح» أن جبريل لما جاء إلىٰ النبي ﷺ في صورة أعرابي وسأله عن الإسلام، قال: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحجَّ البيت إن استطعت إليه سبيلًا**» قال: فما الإيمان؟ قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، وتؤمن بالقدر خيره وشره**». قال: فما الإحسان؟ قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»، ثم قال في آخر الحديث: «**هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم**»، فجعل هذا كلَّه من الدين. والدين يتضمن معنىٰ الخضوع والذل؛ يقال: دِنْتُهُ، فدان. أي: أذللته فذل. ويقال: يَدين اللهَ، ويدين لله: أي يعبد الله، ويطيعه ويخضع له،

---

(١) الحجَّة في بيان المحجَّة (٢/ ٢٣٣).

(٢) العبودية (ص ٤٧، ٤٨).

فدين الله: عبادته وطاعته والخضوع له».

وقال سماحة الإمام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «معلوم بالأدلة الشرعية من الكتاب والسُّنَّة أن الأعمال والأقوال إنما تصح وتُقْبَل إذا صدرت عن عقيدة صحيحة، فإن كانت العقيدة غير صحيحة بطل ما يتفرَّع عنها من أعمال وأقوال، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة، وقد دلَّ كتاب الله المبين، وسُنَّة رسوله الأمين عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم، علىٰ أن العقيدة الصحيحة تتلخص في: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره. فهذه الأمور الستة هي أصول العقيدة الصحيحة التي نزل بها كتاب الله العزيز، وبعث الله بها رسوله محمدًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ويتفرع عن هذه الأصول كل ما يجب الإيمان به من أمور الغيب، وجميع ما أخبر الله به ورسوله ﷺ. وأدلة هذه الأصول السِّتَّة في الكتاب والسنة كثيرة جدًّا، فمن ذلك قول الله سبحانه: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقوله سبحانه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ

---

(١) حراسة التوحيد (ص ٥ – ٧).

﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥] الآية، وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]، وقوله سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحج: ٧٠].

أما الأحاديث الصحيحة الدالَّة علىٰ هذه الأصول فكثيرة جدًّا، منها الحديث الصحيح المشهور الذي رواه مسلم في صحيحه من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنهُ أن جبريل عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ سأل النبي ﷺ عن الإيمان، فقال له: «**الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**» الحديث، وأخرجه الشيخان مع اختلاف يسير من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، وهذه الأصول الستة يتفرع عنها جميع ما يجب علىٰ المسلم اعتقاده في حق الله سبحانه، وفي أمر المعاد، وغير ذلك من أمور الغيب».

وذكر النّبي ﷺ أركان الإسلام الخمسة في حديث جبريل عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ لأنها أظهر شعائر الإسلام، وسائر الطاعات من ثمراتها.

قال ابن الصلاح رَحِمَهُٱللَّهُ **في حديث جبريل**[1]: «هذا بيان لأصل

(١) الإيمان الكبير (ص ٦٥٩، ٦٦٠).

الإيمان، وهو التصديق الباطن، وبيان لأصل الإسلام، وهو الاستسلام والانقياد الظاهر، وحُكم الإسلام في الظاهر يثبت بالشهادتين، وإنما أضاف إليهما الأربع لكونها أظهر شعائر الإسلام ومعظمها، وبقيامه بها يتم استسلامه، وتركه لها يُشعر بحلِّ قيد انقياده أو انحلاله، ثم إن اسمَ الإيمان يتناول ما فُسِّر به الإسلام في هذا الحديث، وسائر الطاعات لكونها ثمرات التصديق الباطن الذي هو أصل الإيمان، ومقوِّمات ومُتمِّمات وحافظات له؛ ولهذا فسَّر النبي ﷺ الإيمان في حديث وفد عبد القيس بالشهادتين، والصلاة والزكاة والصوم، وإعطاء الخمس من المغنم».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلقًا على كلام ابن الصلاح[١]: «هذا الذي ذكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه من الموافقة لما قد بيّن من أقوال الأئمة، وما دل عليه الكتاب والسنة».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلقًا[٢]: «ذكر الخمس أنها هي الإسلام؛ لأنها هي العبادات المحضة التي تجب لله تعالى على كل عبد مطيق لها، وما سواها إما واجب على الكفاية لمصلحة إذا حصلت سقط الوجوب، وإما من حقوق الناس بعضهم على بعض، وإن كان فيها قربة ونحو ذلك، كما قال: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**»، و«**أفضل الإسلام أن تُطعم**

(١) الإيمان الكبير (ص ٦٦١).

(٢) الإيمان الكبير (ص ٦٦٢).

الطعام وتقريء السلام علىٰ من عرفت ومن لم تعرف»، ونحو ذلك، فهذه الخمس هي الأركان والمباني كما في الإيمان».

وقال شيخ الإسلام الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في بيان حقيقة الإسلام**: «هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشِّرك»[(١)]، وهذه العبارة جامعة لحقيقة الدين كله، فإنه إقامة الوجه لله، وإسلام الوجه إليه، فتخضع ناصية العبد إلىٰ باريها ومولاها بالسمع والطاعة والانقياد له، وتحقيق العبودية خالصة لوجهه الكريم، وقد دل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النساء: ١٢٥].

وضد الانقياد التولي، فمن تولىٰ عن طاعة الله مطلقًا، ولم يأتِ بالعمل؛ فهذا كافر، قال تعالىٰ: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [الليل: ١٥، ١٦]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «أي كذب بالخبر، وتولىٰ عن طاعة الأمر، وإنما علىٰ الخلق أن يصدقوا الرسل فيما أخبروا ويطيعوهم فيما أمروا.

وكذلك قال في فرعون: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾، وقال عن جنس الكافر: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [القيامة: ٣١-٣٢] فالتكذيب للخبر، والتولي عن الأمر، وإنما الإيمان تصديق الرسل فيما أخبروا، وطاعتهم

---

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ١٥).

(٢) الإيمان الكبير (ص ٢٣٣).

فيما أمروا، ومنه قوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦﴾ [المزمل: ١٥، ١٦]».

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٨]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فعُلم أن «التولِّي»، ليس هو التكذيب، بل هو التولي عن الطاعة، فإن الناس عليهم أن يُصدقوا الرسول ﷺ فيما أخبر، ويطيعوه فيما أمر. وضد التصديق التكذيب، وضد الطاعة التولي، فلهذا قال: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٣٢﴾. وقد قال تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النور: ٤٧] فنفىٰ الإيمان عمن تولىٰ عن العمل، وإن كان قد أتىٰ بالقول، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ﴾ [النور: ٦٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنفال: ٢]، ففي القرآن والسنة من نفي الإيمان عمَّن لم يأتِ بالعمل مواضع كثيرة، كما نفىٰ فيها الإيمان عن المنافق».

وتعليم الرَّسولين - عليهما الصَّلاة والسَّلام - للصَّحابة حقيقة الدِّين ومعاني الإسلام؛ فيه بيانُ حاجة الأمَّة وضرورتها إلىٰ العلم النَّافع الموجب والمستلزم للعمل الصَّالح، وهذا فيه بيان أنَّ طلب علم الإسلام والإيمان والإحسان فرضُ عين علىٰ الجميع، فمن يرغب عنه كيف يقيم إسلامه

---

(١) الإيمان الكبير (ص ٣٤٨).

ويحقِّق إيمانه ويعبد ربَّه؟!

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «العلم هادٍ والحال الصحيح مهتدٍ به، وهو تركة الأنبياء وتراثهم، وأهله عصبتهم ووراثهم، وهو حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور، ورياض العقول، ولذة الأرواح، وأنس المستوحشين، ودليل المتحيرين، وهو الميزان الذي به تُوزن الأقوال والأعمال والأحوال.

وهو الحاكم المفرِّق بين الشك واليقين، والغي والرشاد، والهدىٰ والضلال. به يُعرف الله ويُعبد، ويُذكر ويُوحَّد، ويُحمد ويُمجَّد، وبه اهتدىٰ إليه السالكون، ومن طريقه وصل إليه الواصلون، ومن بابه دخل عليه القاصدون.

به تُعرف الشرائع والأحكام، ويتميز الحلال من الحرام، وبه تُوصل الأرحام، وبه تُعرف مراضي الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يُوصل إليه من قريب.

وهو إمام، والعمل مأموم، وهو قائد، والعمل تابع، وهو الصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والأنيس في الوحشة، والكاشف عن الشبهة، والغني الذي لا فقر علىٰ من ظفر بكنزه، والكَنف الذي لا ضيعة علىٰ من آوىٰ إلىٰ حرزه. مذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه قربة، وبذله صدقة، ومدارسته تُعدل بالصيام والقيام، والحاجة إليه أعظم منها إلىٰ الشراب والطعام.

قال الإمام أحمد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: الناس إلىٰ العلم أحوج منهم إلىٰ الطعام والشراب؛ لأن الرجل يحتاج إلىٰ الطعام والشراب في اليوم مرة أو مرتين،

---

(١) مدارج السالكين (ص ٦٢٥).

وحاجته إلىٰ العلم بعدد أنفاسه.

وروِّينا عن الشافعي - رضي الله تعالىٰ عنه - أنه قال: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

ونص علىٰ ذلك أبو حنيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وقال ابن وهب رَحِمَهُٱللَّهُ: كنت بين يدَيْ مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فوضعت ألواحي وقمت أصلي، فقال: ما الذي قمت إليه[1] بأفضل مما قمت عنه. ذكره ابن عبد البر وغيره.

واستشهد الله عَزَّوَجَلَّ بأهل العلم علىٰ أجلِّ مشهود به وهو «التوحيد»، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وفي ضمن ذلك تعديلهم؛ فإنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يستشهد بمجروح.

ومن هاهنا - والله أعلم يؤخذ الحديث المعروف: «**يحمل هذا العلم من كُلِّ خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وتأويل المبطلين**».

وهو حجة الله في أرضه، ونوره بين عباده، وقائدهم ودليلهم إلىٰ جنته، ومدنيهم من كرامته».

وتحدَّث السَّلف بعبارات جامعة عن حقيقة الإيمان،

قال سهل بن عبد الله التستري رَحِمَهُٱللَّهُ[2]: «الإيمان قول وعمل ونية وسنة».

---

(١) من النافلة.

(٢) الإيمان الكبير (ص٣٨٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ **معلقًا**[1]: «لأن الإيمان إذا كان قولًا بلا عمل؛ فهو كفر، وإذا كان قولًا وعملًا بلا نية؛ فهو نفاق، وإذا كان قولًا وعملًا ونية بلا سنة؛ فهو بدعة».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «الإيمان ليس مجرد التصديق، بل لا بد من أعمال قلبية تستلزم أعمالًا ظاهرة - كما تقدم -، فحب الله ورسوله ﷺ من الإيمان، وحب ما أمر الله به، وبغض ما نهى عنه؛ هذا من أخص الأمور بالإيمان، ولهذا ذكر النبي ﷺ في عدة أحاديث أن: «**من سرّته حسنته، وساءته سيئته؛ فهو مؤمن**»، فهذا يحب الحسنة ويفرح بها، ويبغض السيئة ويسوءه فعلها، وإن فعلها بشهوة غالبة، وهذا الحب والبغض من خصائص الإيمان».

وقال الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ[3]: «لا يستقيم الإيمان إلا بالقول، ولا يستقيم الإيمان والقول إلا بالعمل، ولا يستقيم الإيمان والقول والعمل إلا بنية موافِقة للسنة. وكان من مضى من سلفنا لا يفرقون بين الإيمان والعمل؛ العمل من الإيمان، والإيمان من العمل، وإنما الإيمان اسم يجمع كما يجمع هذه الأديان اسمها، ويصدقه العمل.

فمن آمن بلسانه، وعرف بقلبه، وصدَّق بعمله، فتلك العروة الوثقى

---

(١) الإيمان الكبير (ص٣٨٢).

(٢) الإيمان الكبير (ص٥٧٤، ٥٧٥).

(٣) الإيمان الكبير (ص٥٥٧، ٥٥٨).

التي لا انفصام لها. ومن قال بلسانه، ولم يعرف بقلبه، ولم يصدّق بعمله كان في الآخرة من الخاسرين».

وقال الشالنجي: سألت أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الإيمان والإسلام، فقال: الإيمان قول وعمل، والإسلام: إقرار. قال: وبه قال أبو خيثمة(١).

والتابعون الذين أخذوا العلم والدين عن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ فسروا الإسلام بالإقرار، والإيمان بالعمل، قال الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «كنّا نقول: الإسلام بالإقرار، والإيمان بالعمل، والإيمان: قول وعمل قرينان، لا ينفع أحدهما إلا بالآخر».

وهذه العقيدة عليها إجماع الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأهل السنة الذين لزموا عقيدتهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «ولهذا كان القول: إن الإيمان قول وعمل عند أهل السنة من شعائر السُّنَّة، وحكى غير واحد الإجماع على ذلك، وقد ذكرنا عن الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما ذكره من الإجماع على ذلك قوله في «الأم»: [وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناهم يقولون: إن الإيمان قول وعمل ونية، لا يجزئ واحد من الثلاثة إلا بالآخر]».

وأما ما يُنقل عن الزهري وأحمد أن الإسلام الكلمة فهذا أرادا به كلمة

---

(١) الإيمان الكبير (ص٥٠٢، ٥٠٣).

(٢) الإيمان الكبير (ص٥٥٧).

(٣) الإيمان الكبير (ص٥٧٧).

التوحيد بحقوقها، لم يرد أحد من السلف الكلمة مجردة عن حقيقتها وحقوقها، فإن المنافقين يقولون هذه الكلمة ولا يؤدون حقوقها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وأما ما ذكره أحمد في الإسلام فاتَّبع فيه الزهري حيث قال: «فكانوا يرون الإسلام الكلمة، والإيمان العمل»، في حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهذا على وجهين، **فإنه قد يُراد به الكلمة بتوابعها من الأعمال الظاهرة، وهذا هو الإسلام** الذي بيَّنه النبي ﷺ حيث قال: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله الا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت**»، وقد يُراد به الكلمة فقط من غير فعل الواجبات الظاهرة، وليس هذا هو الذي جعله النبي ﷺ الإسلام».

فحيث لا يوجد العمل لا يوجد الإيمان، وحيث يوجد الإيمان يوجد العمل، قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ** ﴾ [الإسراء: ١٩]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «فألزم الاسم العمل، والعمل الاسم».

وقال شيخ الإسلام أيضًا[٣]: «إن قالوا: إنه لا يضره ترك العمل، فهذا كفر صريح».

(١) الإيمان الكبير (ص٥٠٩).

(٢) الإيمان الكبير (ص٣٩٥).

(٣) الإيمان الكبير (ص٣٩٥).

وقال في شأن هؤلاء[1]: «الغالية الذين يقولون: لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد. لكن ما علمت مُعَيَّنًا أحكي عنه هذا القول، وإنما الناس يحكونه في الكتب ولا يعيّنون قائله، وقد يكون **قول من لا خلاق له،** فإن كثيرًا من الفساق والمنافقين يقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب، أو مع التوحيد».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إن أصل الإيمان هو ما في القلب، والأعمال الظاهرة لازمة، لذلك لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح، بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذي في القلب، فصار الإيمان متناولًا للملزوم واللازم، وإن كان أصله ما في القلب، وحيث عُطفت عليه الأعمال، فإنه أُريد أنه لا يُكتفى بإيمان القلب بل لا بد معه من الأعمال الصالحة».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا القواعد الأربع التي تُبنى عليها العبودية[3]: «التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه، من قول اللسان والقلب، وعمل القلب والجوارح.

فالعبودية: اسم جامع لهذه المراتب الأربع، فأصحاب ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ حقًّا هم أصحابها.

فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه، وعن أسمائه

(١) الإيمان الكبير (ص٣٩٦).

(٢) الإيمان الكبير (ص٤١٦، ٤١٧).

(٣) مدارج السالكين (ص٦٨).

وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه؛ على لسان رسوله ﷺ.

وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعوة إليه، والذبُّ عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره، وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه، والالتجاء إليه، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه، وعلى أقداره، والرضا به وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضها أفرض من أعمال الجوارح ومستحبُّها أحب إلى الله من مُستحبها، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك.

فـ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ التزام لأحكام هذه الأربعة، وإقرار بها، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ طلب للإعانة عليها والتوفيق لها و﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ **متضمن للتعريف بالأمرين على التفصيل**، وإلهام القيام بهما، وسلوك طريق السالكين إلى الله بهما».

وقول النبي ﷺ لجبريل عليه السلام: «**الإيمان أن تؤمن بالله**»، والإسلام: «**أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمدًا رسول الله**» هو تبيين لحقيقة الشهادتين، وهو الدين كله، وهو التألُّه لله، وهو عبادة الله وحده بما شرع، فلا يمكن توحيد الله إلا باتباع رسوله محمد ﷺ الذي بيّن للأمة كيفية عبودية الله.

وكلمة التوحيد «لا إله إلا الله» لها ركنان: النفي والإثبات، فالنفي في «لا إله»، والإثبات في «إلا الله»؛ فتنفي الألوهية الباطلة لكل ما يُعبد من دون الله، وتُثبت الألوهية الحقة لله تعالىٰ، لأن مجرد الإثبات لا يمنع المشاركة، ومجرد النفي عدم محض، والعدم المحض لا كمال فيه، فإذا كان النفي والإثبات؛ تحقّق التوحيد، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، وقال: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

أما عن إعراب كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» فـ: لا: «نافية للجنس» تعمل عمل «إنّ» تنصب المبتدأ وترفع الخبر. إله: اسم «لا» منصوب بالفتحة، وخبرها محذوف تقديره «حق»، ولا يصح تقديره بـ «موجود»؛ فالآلهة الباطلة التي تُعبد من دون الله موجودة، والله هو الذي يستحق العبادة دون سواه، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

قال العلامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «و«إلا» أداة استثناء، وما بعدها هو المستثنىٰ، وهو مرفوع، والعامل فيه هو العامل في الخبر؛ لأنه بدل منه عند البصريين، وعند الكوفيين: هو عطف نسق؛ قال ثعلب: كيف يكون بدلًا، وهو موجب، ومتبوعه منفي؟ يريد أن التابع

(١) الدرر السنية (٢/ ٣٣٠).

والمتبوع لا بدّ أن يتوافقا نفيًا وإثباتًا، وأجيب عنه بأنه بدل منه في عمل العامل، وتخالفهما في النفي والإيجاب لا يمنع البدلية، وأجاب خالد الأزهري: بأن محل اشتراط ذلك، في غير بدل البعض».

وقال العلامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كثر الغلط في المتأخرين من هذه الأمة، في معنى هذه الكلمة، وسببه تقليد المتكلمين الخائضين؛ فظن بعضهم أن معنى: «لا إله إلا الله»، إثبات وجود الله تعالى؛ ولهذا قدروا الخبر المحذوف في: لا إله إلا الله، وقالوا: لا إله موجود إلا الله؛ ووجوده تعالى قد أقر به المشركون، الجاحدون لمعنى هذه الكلمة، وطائفة ظنوا أن معناها: قدرته على الاختراع. وهذا معلوم بالفطرة، وما يُشاهد من عظيم مخلوقات الله تعالى، كخلق السموات والأرض، وما فيهما من عجائب المخلوقات، وبه استدل الكليم موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على فرعون، لما قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٦]، وفي سورة بني إسرائيل: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]؛ ففرعون يعرف الله، ولكن جحده مكابرةً وعنادًا.

وأما غير فرعون من أعداء الرسل؛ من قومهم ومشركي العرب

---

(١) الدرر السنية (٢/ ٢٣٣، ٢٣٤).

ونحوهم، فأقروا بوجود الله تعالىٰ وربوبيته، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، فلم يدخلهم ذلك في الإسلام لما جحدوا ما دلّت عليه: لا إله إلا الله، من إخلاص العبادة بجميع أفرادها لله وحده».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إذا قال قائل: قد علمنا في القواعد النحوية: أن «لا» النافية للجنس لا تعمل إلا في النكرات، فهل لفظ «إله» نكرة أم معرفة؟ قلنا: هو نكرة؛ أما لفظ الجلالة «الله»؛ فهو أعرف المعارف، فهل عملت فيه «لا»؟

بعضهم يقول: عملت فيه. ويجعل «الله» خبر «لا»، يسهل عملها في المعرفة هنا للفصل بينها وبين الخبر بـ«إلا»، وهذا الفصل يمنع التركيب.

وبعضهم يقول: إن الخبر محذوف، و«الله» بدل منه، وذلك لأن التام المنفي يجوز فيه البدل، والنصب على الاستثناء، فيجوز: «لا إله إلا اللهَ»، ويجوز «لا إله إلا اللهُ»، فـ«الله» هنا بدل، وهو الأرجح، والخبر محذوف تقديره: «حق»، وأما من قدَّره: لا إله موجود. فهذا خطأ وليس بصحيح؛ لأنه يُكذبه الواقع، إلا من يقول بوحدة الوجود، وأن الكون كله شيء واحد فهؤلاء يقدرون: موجود، يقول: لا إله موجود إلا الله، فالواجب أن يكون

(١) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام (١١/ ٤٩، ٥٠).

تقدير المحذوف «حق»، أي لا إله حق إلا الله.

وفي الحديث الصحيح: «من مات وهو يدعو لله ندًّا، دخل النار».

وتقدم قول قوم هود: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٠]؛ دليل على أنهم أقروا بوجوده، وربوبيته، وأنهم يعبدونه، لكنهم أبوا أن يجردوا العبادة لله وحده، دون آلهتهم التي كانوا يعبدونها معه».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قوله «لا إله» أي: لا مألوه، وليس بمعنى لا آله، والمألوه: هو المعبود محبةً وتعظيمًا، تحبه وتعظِّمه لما تعلم من صفاته العظيمة وأفعاله الجليلة.

وقوله: «إلا الله» أي: لا مألوه إلا الله. ولهذا حكي عن قريش قولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

أما قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود: ١٠١]، فهذا التألُّه باطل؛ لأنه بغير حق، فهو منفي شرعًا، وإذا انتفى شرعًا؛ فهو كالمنتفي وقوعًا؛ فلا قرار له، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

وبهذا يحصل الجمع بين قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ﴾ [هود: ١٠١]، وقوله تعالى عن قريش: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥]، وبين قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٦٢]؛ فهذه الآلهة مجرَّد أسماء

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد (ص٤٣).

لا معاني لها ولا حقيقة؛ إذ هي باطلة شرعًا، لا تستحق أن تُسمَّىٰ آلهة؛ لأنها لا تنفع ولا تضر، ولا تخلق ولا ترزق؛ كما قال تعالىٰ: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف: ٤٠]».

وأما شروط كلمة التوحيد فقد قال الإمام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «شروط لا إله إلا الله، فهي: العلم المنافي للجهل، واليقين المنافي للشك، والإخلاص المنافي للشرك، والصدق المنافي للكذب، والمحبة المنافية للبغض، والانقياد المنافي للترك، والقبول المنافي للرد، والكفر بما يُعبد من دون الله.

وقد جُمعت في البيتين الآتيين:

علم يقين وإخلاص وصدقك مع ... محبـة وانقيـاد والقبـول لهـا

وزيـد ثامنهـا الكفـران منـك بمـا ... سوىٰ الإله من الأشياء قـد أُلهـا».

وقال العلامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شروط لا إله إلا الله[٢]: «الانقياد المنافي للاستكبار[٣]، لأن من الناس من يقولها وهو يعرف معناها، لكنه لا ينقاد للإتيان بحقوقها ولوازمها من الولاء والبراء والعمل بشرائع الإسلام، ولا يلائمه إلا ما وافق هواه أو تحصيل دنياه، وهذه حال كثير

---

(١) مجموع الفتاوىٰ البازية (٣/ ٢٨٨).

(٢) الدرر السنية (٢/ ٣٥٩، ٣٦٠).

(٣) في النسخة المطبوعة «للشرك»، ولعل الصواب ما أثبتّه.

من الناس».

فالدِّين كلُّه في تحقيق الشَّهادتين: «أشهد أن لا إله إلَّا الله، وأشهد أنَّ محمدًا رسول الله»، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وجِماع الدين أصلان: أن لا نعبد إلا الله، وأن لا نعبد إلا بما شرع؛ لا يعبد بالبدع، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، **وذلك تحقيق الشهادتين**: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمدً رسول الله.

ففي الأولىٰ: أن لا نعبد إلا إيَّاه.

وفي الثانية: أن محمدًا ﷺ هو رسوله المُبلِّغُ عنه، فعلينا أن نُصدق خبره، ونطيع أمْرَه.

وقد بيَّن لنا ما نعبدُ اللهَ به، ونهانا عن محدثات الأمور، وأخبر أنها ضلالة، قال تعالىٰ: ﴿ **بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [البقرة: ١١٢].

كما أنا مأمورون أن لا نخاف إلَّا الله، ولا نتوكل إلا علىٰ الله، ولا نرغبَ إلا إلىٰ الله، ولا نستعين إلا بالله، وأن لا تكون عبادتنا إلَّا لله، فكذلك نحن مأمورون أن نتبع الرسول ونطيعه».

وقال الحافظ ابن عبد الهادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «وهو ﷺ الذي جعل الرب طاعته طاعةً له في مثل قوله: ﴿**مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ**﴾ [النساء: ٨٠]،

---

(١) العبودية (ص ١٤٥، ١٤٦).

(٢) الصارم المنكي في الرد علىٰ السبكي (ص ٤٤٥ - ٤٤٧).

وقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ٦٤]، وهو الذي لا سبيل لأحد إلىٰ النجاة إلا بطاعته، ولا يُسأل الناس يوم القيامة إلا عن الإيمان به واتباعه وطاعته، وبه يُمتحنون في القبور، قال تعالىٰ: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، وهو الذي أخذ الله له الميثاق على النبيين، وأمرهم أن يأخذوا علىٰ أممهم الميثاق؛ أنه إذا جاءهم أن يؤمنوا به، ويُصدقوه، وهو الذي فرّق الله به بين أهل الجنة وأهل النار، فمن آمن به وأطاعه كان من أهل الجنة، ومن كذّبه وعصاه كان من أهل النار، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: ١٣، ١٤].

والوعد بسعادة الدنيا والآخرة والوعيد بشقاوة الدنيا والآخرة متعلّق بطاعته؛ فطاعته هي الصراط المستقيم، وهي حبل الله المتين، وهي العروة الوثقىٰ، وأصحابها هم أولياء الله المتقون، وحزبه المفلحون، وجنده الغالبون، والمخالفون لهم هم أعداء الله، وحزب إبليس اللعين، قال تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

وقال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا

ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

وجميع الرسل - عليهم الصلاة والسلام - أخبروا أن الله أمر بطاعتهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ٦٤]، يأمرون بعبادة الله وحده، وتقواه وحده، وخشيته وحده ويأمرون بطاعتهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]، وقال نوح: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٣]، وقال في الشعراء: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: ٥٠]، وكذلك قال هود، وصالح، ولوط، وشعيب.

والناس محتاجون إلىٰ الإيمان بالرسول ﷺ وطاعته في كل زمان ومكان، ليلًا ونهارًا، سفرًا وحضرًا، سرًّا وعلانية، جماعة وفرادىٰ، وهم أحوج إلىٰ ذلك من الطعام والشراب، بل من النفس؛ فإنهم متىٰ فقدوا ذلك

فالنار جزاء من كذب بالرسول ﷺ وتولى عن طاعته، وكما قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [الليل: ١٤-١٦] أي كذّب الرسول ﷺ بما أخبر به، وتولى عن طاعته، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [المزمل: ١٥، ١٦]، وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء: ٤١، ٤٢]».

والإيمان بالله يستلزم طاعة رسوله واتّباعه ﷺ، وطاعة الرَّسول ﷺ من طاعة الله عز وجل؛ لأنَّه الذي أرسله بالهدى ليدلَّ إلى صراط الله المستقيم، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «فمن كان مُحبًّا لله لزم أن يتَّبع الرسول ﷺ، فيُصدِّقه فيما أخبر، ويُطيعه فيما أمر، ويتأسَّى به فيما فعل، ومن فعل هذا فقد فعل ما يُحبُّه الله؛ فيُحبُّه الله».

ومحبة الرسول ﷺ لأن الله اصطفاه وكمّله، وأنزل إليه وحيه وشرعه، وجعله داعيًا إليه، يهدي إلى الصراط المستقيم، الذي يكون سببًا في دخول الجنة لمن اتّبعه.

---

(١) العبودية (ص ٨٣، ٨٤).

أما محبة الله فهي تختلف عن محبة المخلوق الذي أوجده الله من العدم، وجعل فيه أسباب المحبة لأجله، أما محبة الله فهي تأله له؛ لكماله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «محبَّة الرّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تختصُّ عن محبة غيره في قدرها وصفتها، وإفراده سبحانه بها؛ فإنَّ الواجب له من ذلك كُلِّه أن يكون أحبَّ إلىٰ العبد من ولده ووالده، بل من سمعه وبصره ونفسه التي هي بين جنبيه؛ فيكون إلهه الحقُّ ومعبوده أحبَّ إليه من ذلك كلِّه، والشيء قد يُحبُّ من وجه دون وجه، وقد يُحبُّ بغيره، وليس شيء يُحبُّ لذاته من كل وجه إلَّا الله وحده، ولا تصلح الألوهية إلَّا له، و﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، والتألُّهُ هو المحبة والطاعة والخضوع».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «فالرسل أُمروا بعبادته وحده، والرَّغبة إليه، والتوكل عليه، والطاعة له، فأضلَّ الشيطان النصارىٰ وأشباههم، فأشركوا بالله، وعصوا الرسول، فاتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، والمسيح ابن مريم، فجعلوا يرغبون إليهم، ويتوكَّلُون عليهم، ويسألونهم، مع معصيتهم لأمرهم، ومخالفاتهم لسُنتَّهم، وهدىٰ الله المؤمنين المخلصين لله أهل الصراط المستقيم، الذين عَرَفوا الحقَّ واتَّبعوه، فلم يكونوا من المغضوب عليهم، ولا من الضالِّين، فأخلصوا دينهم

(١) الجواب الكافي (ص ٢٤٠).

(٢) العبودية (ص ١٤٧، ١٤٨).

لله، وأسلموا وجوههم لله، وأنابوا إلىٰ ربِّهم، وأحبوه، ورجوه، وخافوه، وسألوه، ورغبوا إليه، وفوَّضوا أُمورَهم إليه، وتوكَّلُوا عليه، وأطاعوا رسله، وعزَّروهم، ووقَّرُوهم، وأحبُّوهم، ووالوهم، واتَّبعوهم، واقتفوا آثارهم، واهتدوا بمنارهم.

وذلك هو دين الإسلام، الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل، وهو الدِّين الذي لا يقبل الله من أحد دينًا إلَّا إياه، وهو حقيقة العبادة لربِّ العالمين».

ومن مقتضيات شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ: أن تعلم أن كل خير أدركته الأمة فبسببه، قال تعالىٰ: ﴿**لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾**﴾ [آل عمران: ١٦٤]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «فهدىٰ الله الناس ببركة نبوة محمد ﷺ، وبما جاء به من البينات والهدىٰ، هداية جلّت عن وصف الواصفين، وفاقت معرفة العارفين، حتىٰ حصل لأمته المؤمنين به عمومًا ولأولي العلم منهم خصوصًا من العلم النافع، والعمل الصالح، والأخلاق العظيمة، والسنن المستقيمة، ما لو جُمعت حكمة سائر الأمم علمًا وعملًا، الخالصة من كل شوب، إلىٰ الحكمة التي بُعث بها؛ لتفاوتا تفاوتًا يمنع معرفة قدر النسبة بينهما، فلله الحمد كما يحب ربنا ويرضىٰ».

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٥٣، ٥٤).

ومن حب النبي ﷺ حُبّ أصحابه - رضوان الله عليهم -، ومعرفة أقدارهم، وموالاتهم، ونصرتهم، والذبّ عنهم، والترضي عليهم، والإقرار بمنّتهم في وصول الدين إلينا من طريقهم ودعوتهم وجهادهم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العلم، والعدل، والجهاد: وبها سبق الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وأدركوا من قبلهم، وفاتوا من بعدهم، واستولوا على الأمد البعيد، وحازوا قصبات العلى، وكانوا السبب في وصول الإسلام إلينا، وفي كل خير وهدًى وسبب تُنال به السعادة والنجاة، وهم أعدل الأمة فيما ولوه، وأعظمها جهادًا في سبيل الله، **والأمة في آثار علمهم وعدلهم وجهادهم إلى يوم القيامة، فلا ينال أحد منهم مسألة علم نافع إلّا على أيديهم ومن طريقهم ينالها، ولا تسكن بقعة من الأرض آمنًا إلّا بسبب جهادهم وفتوحهم**، ولا يحكم إمام ولا حاكم بعدل وهدًى إلّا كانوا هم السبب في وصوله إليه؛ فهم الذين فتحوا البلاد بالسيف، والقلوب بالإيمان، وعمروا البلاد بالعدل، والقلوب بالعلم والهدى، فلهم من الأجر بقدر أجور الأمة إلى يوم القيامة مضافًا إلى أجر أعمالهم التي اختصوا بها».

والطعن في الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ طعن في القرآن الذي أثنى عليهم بأخبار لا يدخلها النسخ، حيث أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أنهم يوافونه بموجبات الرضا يوم القيامة، وهو طعن في النبي ﷺ؛ فإنهم أصحابه، قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إياك أن تتكلم في أحد من أصحاب رسول الله ﷺ؛ فإن خصمك غدًا رسول الله ﷺ».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن القدح في خير القرون الذين صحبوا الرسول ﷺ قدح في الرسول ﷺ، كما قال مالك وغيره من أئمة العلم: هؤلاء طعنوا في أصحاب رسول الله ﷺ، إنما طعنوا في أصحابه ليقول القائل: رجل سوء كان له أصحاب سوء، ولو كان رجلًا صالحًا لكان أصحابه صالحين».

والطعن في الصحابة شأن الرافضة وبعض المتعالمين من الإخوان المسلمين، فطعونهم في عثمان بن عفان ومعاوية وعمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ زيغ وضلالة وكفر ونفاق وغرور.

قال الطحاوي في عقيدة المسلمين في الصحابة[٢]: «حبهم إيمان، وبغضهم كفر ونفاق».

والنبي ﷺ قال في أصحابه: «**لا يُحبّهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق**». رواه مسلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «فهؤلاء الذين نقلوا القرآن والإسلام وشرائع النبي ﷺ، فالقدح فيهم يوجب ألا يُوثق بما نقلوه من الدين».

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ متممًا[٤]: «والقرآن قد أثنى على الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في

---

(١) الفتاوى الكبرى (٤/ ٤٤٦).

(٢) العقيدة الطحاوية بشرح ابن أبي العز الحنفي (٢/ ٦٨٩).

(٣) الفتاوى العراقية (١/ ١٣٨).

(٤) الفتاوى العراقية (١/ ١٣٨، ١٣٩).

غير موضع، كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الحديد: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿۞لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾ [الفتح: ١٨]، وقد ثبت في «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة**». وفي الصحيحين عن أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أن النبي ﷺ قال: «**لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهبًا ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه**». وقد ثبت عنه في «الصحيح» من غير وجه أنه قال: «**خير القرون القرن الذي بُعثت فيهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**».

وهذا الأحاديث مستفيضة - بل متواترة - في فضائل الصحابة، والثناء عليهم، وتفضيل قرنهم على من بعدهم من القرون؛ **فالقدح فيهم قدح في القرآن والسنة**، ولهذا تكلم الناس في تكفير الرافضة بما قد بسطناه في غير هذا الموضع».

ونحن إذ نتحدث عن حب النبي ﷺ وأسباب زيادته، فإننا نحذِّر من الغلو فيه، الذي حذّر منه النبي ﷺ، حيث قال: «**لا تطروني كما أطرت النصارىٰ المسيح ابن مريم، إنما أنا عبد الله ورسوله، فقولوا: عبد الله**».

وأعظم الغلو في النبي ﷺ أن يُصرف له شيء من حق الله، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «والله سبحانه له حقوق لا يشركه فيها غيره، وللرسل حقوق لا يشركهم فيها غيرهم، وللمؤمنين بعضهم علىٰ بعض حقوق مشتركة.

ففي الصحيحين عن معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** «كنت ردف النبي ﷺ فقال لي: **يا معاذ، أتدري ما حق الله علىٰ عباده؟** قلت: الله ورسوله أعلم. قال: **حقه عليهم: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، يا معاذ، أتدري ما حق العباد علىٰ الله إذا فعلوا ذلك؟** قلت: الله ورسوله أعلم. قال: **حقهم عليه أن لا يُعذِّب من لا يُشرك به شيئًا**».

فالله تعالىٰ مستحق أن نعبده لا نشرك به شيئًا، وهذا أصل التوحيد الذي بُعثت به الرسل، وأُنزلت به الكتب، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٥٥٣، ٥٥٤).

﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ويدخل في ذلك: أن لا نخاف إلا إياه، ولا نتقي إلا إياه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾ [النور: ٥٢]، فجعل الطاعة لله والرسول ﷺ، وجعل الخشية والتقوىٰ لله وحده.

وكذلك قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]، فجعل الإيتاء لله والرسول، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]، فالحلال ما حلّله الرسول ﷺ، والحرام: ما حرّمه الرسول ﷺ، والدين ما شرعه الرسول ﷺ.

وجعل التحسب بالله وحده، فقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، ولم يقل: ورسوله كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]، أي: حسبك وحسب من اتبعك: الله؛ فهو وحده كافيكم، ومن ظن أن معناها: حسبك الله والمؤمنون، فقد غلط غلطًا عظيمًا».

والأنبياء - عليهم السلام - وسادات آل البيت لا يرضون بالغلو فيهم ومجاوزة الحد في حبّهم، ويتبرأون من ذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦].

وكان النبي ﷺ يزجر أمته عن الغلو فيه غلو النصارى في ابن مريم؛ ففي الصحيحين عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**».

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن أناسًا قالوا: يا رسول الله! يا خيرنا وابن خيرنا، وسيِّدنا وابن سيِّدنا. فقال: «**يا أيها الناس! قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، ما أحبُّ أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله** عَزَّ وَجَلَّ». رواه النسائي، وجوّد إسناده الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ[1].

ولما ظهرت الغالية التي ادّعت الألوهية في علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حرّقهم عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالنار، فقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لا يُحرّق بالنار إلا رب النار. رواه البخاري.

واستذكار فضائل النبي ﷺ خصوصًا ما يتعلق بنفع المسلمين ودفع الأذى عنهم؛ فإنه من أسباب زيادة حبه وتوقيره الذي هو من مقتضيات شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ؛ فالنبي ﷺ ادّخر شفاعته لأصحاب الكبائر من أمته، والخلق جميعًا في الآخرة وأهوال المحشر كلهم يقول: نفسي نفسي، والنبي ﷺ يقول: «**أمتي، أمتي**».

والنبي ﷺ يقوم ذاك المقام العظيم في الدار الآخرة، عندما يصيب

(١) كتاب التوحيد، باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد، وسده كل طرق الشرك (ص ٢٢٨)، مجموعة التوحيد.

الناس الكرب؛ لدنو الشمس منهم مقدار ميل، فيشفع إلىٰ ربه أن يُقضىٰ بينهم، بعد أن يعتذر النبيون جميعًا - عليهم الصلاة والسلام -.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ويحصل له المقام المحمود الذي يحمده فيه الأولون والآخرون، وأهل السموات والأرض، وتنال أمَّته من هذه الشفاعة الحظَّ الأوفر، والنصيب الأكمل».

وشهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ إنما أمر الله بها لإقامة شهادة أن لا إله إلا الله، فهو صلوات الله وسلامه عليه بما أوحي إليه من القرآن دلّ أمته علىٰ شريعة الله وشعب الإيمان، وكيفية إقامة الوجه لله وحده لا شريك له، فقال في الصلاة «**صلوا كما رأيتموني أصلي**». رواه البخاري من حديث مالك بن الحويرث رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقال في الحج: «**لتأخذوا عني مناسككم**». رواه مسلم من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وفي حديث عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قال النبي ﷺ: «**من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلّىٰ ركعتين لا يُحدِّث فيهما نفسه، غُفر له ما تقدم من ذنبه**»، متفق عليه.

والنبي ﷺ كان في كل وقت يقرّر لقومه والبشرية كافة، أن رسالته هي دعوة للتوحيد لا لعبوديته ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣]، ﴿**قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ**﴾ [الجن: ٢١-٢٣].

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص ١٥٩).

والنبي ﷺ بيّن لأمته أن شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ إنما هي لإقامة شهادة أن لا إله إلا الله؛ فلذلك لما سأله أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: من قال: **لا إله إلا الله. خالصًا من قلبه**»، متفق عليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «يقولون: من كان أكثر صلاةً على النبي ﷺ كان أحق بالشفاعة من غيره، وكذلك من كان أحسن ظنًّا بشخص، وأكثر تعظيمًا له، كان أحق بشفاعته. **وهذا غلط، بل هو قول المشركين** الذين قالوا: نتولّى الملائكة ليشفعوا لنا. يظنون أن من أحب أحدًا - من الملائكة والأنبياء والصالحين وتولَّاه - كان ذلك سببًا لشفاعته له، وليس الأمر كذلك، بل **الشفاعة سببها توحيد الله وإخلاص الدين والعبادة بجميع أنواعها** له؛ فكل من كان أعظم إخلاصًا كان أحق بالشفاعة، كما أنه أحق بسائر أنواع الرحمة؛ فإن الشفاعة من الله مبدؤها، وعلى الله تمامها، فلا يشفع أحد إلا بإذنه، وهو الذي يأذن للشافع، وهو الذي يقبل شفاعته».

فالنبي محمد ﷺ لكثرة خصال الخير فيه، وعظيم نفعه للخلق، محمود عند الله وملائكته ورسله، وعند كل عاقل منصف من أهل الأرض، وهو أحمد - أي: أفضل وأكمل - الحامدين.

وروى الشيخان من حديث جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال**: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي**

---

(١) الفتاوى العراقية (٢/ ١٠٨٥).

يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس علىٰ قدمي، وأنا العاقب».

قال العلامة عبد الرحمن بن محمد العليمي المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

«[محمد] معناه: المستغرق لجميع المحامد، وهو الذي كثر حمد الحامدين له مرة بعد أخرىٰ، ويُقال: حُمد، فهو محمَّدٌ؛ فتسميته ﷺ بهذا الاسم لما اشتمل عليه من مُسَمَّاه، وهو الحمد، فإنه ﷺ محمود عند الله، وعند ملائكته، وعند إخوانه من المرسلين، وعند أهل الأرض كلِّهم، وإن كفر به بعضهم، فإنَّ ما فيه من صفات الكمال محمود عند كل عاقل، ومحمد هو المحمود حمدًا متكررًا كما تقدَّم، و(أحمد) هو الذي حمده لربه أفضل من حمد الحامدين غيره، وهو الذي يحمده أهل الدنيا وأهل الآخرة، وأهل السماء والأرض، فلكثرة خصائله المحمودة التي تفوت عدَّد العادِّين سُمِّي باسمين من أسماء الحمد يقتضيان التفضيل والزيادة في القدر والصفة، فدل أحد الاسمين - وهو محمد - علىٰ كونه محمودًا، ودلَّ الاسم الثاني - وهو أحمد - علىٰ كونه أحمد الحامدين لربِّه، وأن الحمد الذي يستحقه أفضل مما يستحقه غيره، وقد أكرمه الله سبحانه بهذين الاسمين المشتقين من اسمه جَلَّ وَعَلَا، وفيه يقول حسان بن ثابت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

ألم تر أن الله أرسل عبده ... ببرهانه والله أعلىٰ وأمجد

وشق له من اسمه ليُجلَّه ... فذو العرش محمود وهذا محمَّدُ»

---

(١) فتح الرحمن في تفسير القرآن (٢/ ٣٥، ٣٦).

والآية الجامعة في بيان حقوق الرسول ﷺ هي قوله تعالىٰ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لا يسمونه إذا خاطبوه باسمه كما يسمي بعضهم بعضًا، بل يدعونه برسول الله ونبي الله، وهذا من تمام تعزيره وتوقيره وتعظيمه، فهكذا ينبغي أن يُخصَّ باقتران اسمه بالصَّلاة عليه؛ ليكون ذلك فرقًا بينه وبين ذكر غيره، كما كان الأمر بدعائه بالرسول والنبي فرقًا بينه وبين خطاب غيره؛ فلو كان عند ذكره لا تجب الصلاة عليه، كان ذكره كذكر غيره في ذلك، هذا على أحد التفسيرين في الآية، وأما على التفسير الآخر، وهو أن المعنىٰ: لا تجعلوا دعاءه إياكم كدعاء بعضكم بعضًا، فتؤخروا الإجابة بالاعتذار والعلل التي يؤخِّر بها بعضكم إجابة بعض، ولكن بادروا إليه إذا دعاكم بسرعة الإجابة ومعالجة الطاعة».

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، وقال سبحانه ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «وإنما حقوق الأنبياء - عليهم السلام - في تعزيرهم، وتوقيرهم، ومحبتهم محبة مقدّمة على النفس

(١) جلاء الأفهام (ص ٣٤٥).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٤٤٨).

والأهل والمال، وإيثار طاعتهم ومتابعة سنتهم».

والنبي ﷺ كان حريصًا على المؤمنين رحيمًا بهم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وحريص على الكافرين؛ حريص على هدايتهم ودعوتهم إلى أسباب إنقاذهم من النار التي يتقحمون فيها بكفرهم؛ ففي الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال رسول الله ﷺ: «**مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارًا، فجعل الجنادب والفَرَاش يقعن فيها، وهو يذبُّهن عنها، وأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تفلتون من يدِي**»، فما كفر من كفر وخالف من عصى الرسول ﷺ إلا لضعف عقله، قال الحافظ النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «مقصود الحديث أنه ﷺ شبّه تساقط الجاهلين والمخالفين بمعاصيهم وشهواتهم في نار الآخرة وحرصهم على الوقوع في ذلك، مع منعه إياهم وقبضه على مواضع المنع منهم، بتساقط الفراش في نار الدنيا؛ لهواه وضعف تمييزه، وكلاهما حريص على هلاك نفسه، ساعٍ في ذلك؛ لجهله».

فرعاية حق النبي ﷺ الحريص على إنقاذ البشرية كلها من النار ومن أسباب عطبها، الناصح لهم الدال على كل خير ومصلحة لهم؛ هو واجب عظيم يليق بمن كان هذا حاله مع البشرية كلها.

---

(١) المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج (ص ١٤١٨).

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «ومن الظلم العظيم: أن يُخلَّ العبد بشيء من حقوق النبي ﷺ، الذي هو أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم، وأرحم وأرأف بهم من كلِّ أحد من الخلق، وهو الذي لم يصل إلىٰ أحدٍ خيرٌ إلا علىٰ يديه».

ومن حقوق الله ورسوله ﷺ: رد الطاعنين علىٰ الرسول ﷺ، وهذا من مقتضيات الإيمان بالله ورسوله ﷺ، فهو مُبلِّغ عن الله، ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ**﴾ [النجم: ٣]؛ مُبلِّغ عن الله الذي أرسله، قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [التوبة: ٣٣]، فالطعن في الرسول ﷺ طعن في الله الذي أرسله.

ونصرة النبي ﷺ وردُّ الطاعنين فيه وفي الشريعة التي أُرسل بها هو من النصيحة لله ورسوله؛ فقد روىٰ مسلم في صحيحه من حديث تميم الداري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**الدين النصيحة**، قلنا: لمن يا رسول الله؟! قال: «**لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «ومن بعض حقوق الله علىٰ عبده: رد الطاعنين علىٰ كتابه ورسوله ودينه، ومجاهدتهم بالحجة والبيان، والسيف والسنان، والقلب والجنان، وليس وراء ذلك حبة خردل من الإيمان».

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص ١١١).

(٢) هداية الحيارىٰ في أجوبة اليهود والنصارىٰ (ص ١٢).

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «والنصيحة لرسوله ﷺ قريب من ذلك: الإيمان به، وبما جاء به، وتوقيره، وتبجيله، والتمسك بطاعته، وإحياء سنته، واستثارة علومها، ونشرها، ومعاداة من عاداه وعاداها، وموالاة من والاه ووالاها، والتخلق بأخلاقه، والتأدب بآدابه، ومحبة آله وصحابته، ونحو ذلك».

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «ومحبة الرسول ﷺ على درجتين: إحداهما فرض: وهي المحبة التي تقتضي قبولَ ما جاء به الرسول ﷺ من عند الله، وتلقِّيه بالمحبة والرِّضَا والتعظيم والتسليم وعدم طلب الهدىٰ من غير طريقه بالكليّة، ثم حسنُ الاتباع له فيما بلَّغه عن ربِّه من تصديقه في كل ما أخبر به، وطاعته فيما أمر به من الواجبات، والانتهاء عمَّا نهىٰ عنه من المحرَّمات، ونصرة دينه، والجهاد لمن خالفه بحسب القدرة؛ فهذا القدر لا بدَّ منه، ولا يتمُّ الإيمانُ بدونه.

والدرجة الثانية: فضل: وهي المحبة التي تقتضي حسن التأسي به وتحقيق الاقتداء بسنته في أخلاقه وآدابه ونوافله وتطوعاته وأكله وشربه ولباسه وحسن معاشرته لأزواجه وغير ذلك من آدابه الكاملة وأخلاقه الطاهرة، والاعتناء بمعرفة سيرته وأيامه، واهتزاز القلب عند ذكره، وكثرة الصلاة عليه؛ لما سكن في القلب من محبَّته وتعظيمه وتوقيره، ومحبةِ

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص ١٥٤).

(٢) تفسير ابن رجب الحنبلي (١/ ٤٣٨).

استماع كلامه، وإيثاره على كلام غيره من المخلوقين.

ومن أعظم ذلك الاقتداء به في زهده في الدُّنيا، والاجتزاء باليسير منها، ورغبته في الآخرة».

وشهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ تقتضي تطبيق شرعه الذي بُعث به ﷺ، فإن تعطيلها تضييع لحقيقة الرسالة، التي من أجلها بُعِثَ إلى الناس كافة إلى يوم القيامة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الشهادة بأن محمدًا رسول الله ﷺ تتضمن: تصديقه في كل ما أخبر، وطاعته في كل ما أمر؛ فما أثبته وجب إثباته، وما نفاه وجب نفيه، كما يجب على الخلق أن يثبتوا لله ما أثبته من الأسماء والصفات، وينفوا عنه ما نفاه عنه من مماثلة المخلوقات، فيخلصوا من التعطيل والتمثيل، ويكونوا في إثبات بلا تشبيه، وتنزيه بلا تعطيل. وعليهم أن يفعلوا ما أمر به، وأن ينتهوا عما نهى عنه، ويحللوا ما حلله، ويُحرموا ما حرّمه؛ فلا حرام إلا ما حرمه الله ورسوله، ولا دين إلا ما شرعه الله ورسوله ﷺ، ولهذا ذمّ الله المشركين في سورة الأنعام والأعراف وغيرهما، لكونهم حرّموا ما لم يحرمه الله، ولكونهم شرعوا دينًا لم يأذن به الله، كما في قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا**﴾ [الأنعام: ١٣٦] إلى آخر السورة. وما ذكره في صدر

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٥٥٩، ٥٦٠).

سورة الأعراف، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورىٰ: ٢١]. وقد قال تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]؛ فأخبره أنه أرسله داعيًا إليه بإذنه، فمن دعا إلىٰ غير الله فقد أشرك، ومن دعا إليه بغير إذنه فقد ابتدع، والشرك بدعة، والمبتدع يؤول إلىٰ الشرك، ولم يوجد مبتدع إلا وفيه نوع من الشرك، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]. وكان من إشراكهم بهم أنهم أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم، وحرّموا عليهم الحلال فأطاعوهم.

وقد قال تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]؛ فقرن بعدم إيمانهم بالله واليوم الآخر، أنهم لا يُحرِّمون ما حرَّم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق».

وتدبَّر قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، يشحذ علىٰ مبادلة النبي ﷺ الحب والموالاة والنصرة له وللشرعة التي بُعث بها - صلوات الله وسلامه عليه -، فتدبّر الآية: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا

عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، لا إله إلا الله! ما أعظم ما في هذه الآية من بيان شمائل نبي الرحمة، مما يوجب الإيمان به وبرسالته التي بُعث بها، وتحقيق شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ، ومبادلته الحب الذي يستحقه لما اصطفاه الله عَزَّوَجَلَّ ووهبه، وهي:

١- عزيز عليه ما يوجب العنت لنا.

٢- حريص على المؤمنين.

٣- رؤوف رحيم بالمؤمنين.

عزيز عليه ما يُوجب العنت لنا؛ لذلك بُعث بالحنيفية السمحة، وما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، ورفع الله بالشرع الذي أنزله عليه الأغلال والآصار التي كانت في شريعة من قبلنا، فمن قبلنا أيمانهم لا كفارة لها، وتوبة من عبد العجل من بني إسرائيل أن يقتله من لم يعبده من قومه، والتوبة في شريعتنا بالعزم على ترك المعصية والندم والاستغفار، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠].

ورُفع عن أمته الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه، قال الحافظ ابن رحب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الناسي والمخطئ إنما عُفي عنهما بمعنى رفع الإثم عنهما، لأن الإثم مرتَّبٌ على المقاصد والنيات، والناسي

(١) جامع العلوم والحكم (ص ٤٤٦).

والمخطئ لا قصد لهما؛ فلا إثم عليهما».

وانظر إلىٰ تخفيف الله عنا الإكراه، بينما كان عزيمةً علىٰ من قبلنا، ففي الصحيحين من حديث خبَّاب بن الأرتّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال رسول الله ﷺ «**إنه كان من قبلكم يؤتىٰ الرجل فيُنشر بالمنشار فما يصده عن دينه**».

وجُعلت لنا الأرض مسجدًا وطهورًا؛ ففي الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال النبي ﷺ: «**أُعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ حيث أدركته، وأُحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وبُعثت إلىٰ الناس عامة**». متفق عليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «تلك الأحاديث إنما قصد بها بيان اختصاص نبينا ﷺ وأمته بالتوسعة عليهم في مواضع الصلاة دون من قبلنا من الأنبياء وأممهم، حيث حظرت عليهم الصلاة إلا في المساجد المبنية للصلاة».

وفي إباحة الغنائم لأمتنا دون سائر الأمم دليل علىٰ أن الشريعة التي بُعث بها رسول الله ﷺ وخاتم النبيين، أتم الشرائع في مراعاة حظوظ المكلف المباحة، فكانت الغنائم محرمةً علىٰ من قبلنا، يُرسل الله عليها النار فتأكلها، وأباحها الله لنا؛ رحمةً منه وفضلًا، ولتكون من أسباب قوة الأمة في الإعداد للجهاد في سبيل الله.

---

(١) شرح العمدة كتاب الصلاة (ص ٤٤٠).

وضوعف لأمَّة محمد ﷺ حسناتها دون سائر الأمم؛ فالنصارىٰ عملوا من طلوع الشمس إلىٰ زوالها بقيراط قيراط، واليهود من زوال الشمس إلىٰ العصر بقيراط قيراط، وأمة محمد ﷺ عملوا من العصر إلىٰ غروب الشمس بقيراطين، فقال اليهود والنصارىٰ: ما بالنا أكثرنا عملًا وأقلنا أجرًا؟ فقال الله: ذلك فضلي أوتيه من أشاء. رواه البخاري.

قال تعالىٰ: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩].

والنبي ﷺ بعثته ودعوته رحمة، هدىٰ الله بدعوته وبنور الوحي الذي أُنزل إليه الناس من الضلال إلىٰ الهدىٰ، ومن الظلمات إلىٰ النور، ومن الشرك إلىٰ التوحيد.

وما من خير إلا ودلّ النبي ﷺ البشرية عليه، وما من شر إلا وحذر الأمّة منه، وكان حريصًا علىٰ هداية الخلق جميعًا إلىٰ الإسلام؛ لتعتق رقابهم من النار، ويحققوا مقصود خلق الله لهم، وهو عبوديته ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومن مظاهر رحمة النبي ﷺ حرصه علىٰ المؤمنين، ورغبته في دخولهم الجنة، وحذره علىٰ عصاتهم من عذاب النار؛ لذلك ادّخر شفاعته لأهل الكبائر من أمته.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «شفاعة النبي ﷺ تُنال

---

(١) الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة (ص ١٨٨).

بكمال الإخلاص لله، وبكثرة الصلاة والسلام عليه، وبحسب اتباعه في أقواله وهديه، وبمحبته وتوقيره ﷺ، وتقديم طاعته على طاعة كل أحد من الخلق».

وأحق الناس بشفاعة النبي ﷺ أنصاره والقائمون بالذب عن سنته، وإحياء ما اندرس منها، وتعليمها الناس؛ فورثة الأنبياء أقرب الناس من النبي ﷺ يوم القيامة منزلًا، وأبعدهم من شفاعته من غيّر وحرّف وبدّل سنته ﷺ، فهؤلاء يُذادون عن الحوض أحوج ما يكونون إليه بعد أن يُبعثوا من قبورهم يوم القيامة.

وحرصه ﷺ غير خاص بالمؤمنين، بل هو عام لكل البشرية، وحرصه على المؤمنين له خصوصية اقتضته عقيدة الموالاة والمحبة للمؤمنين.

فالحاصل: أن تحقيق شهادة أن محمدًا رسول الله، هو أساس الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ وتوحيده؛ لأن الرسول ﷺ بُعث بالتوحيد، ولذلك كان الكفار يسألون الناس عن محتوى بعثة النبي ﷺ؛ ليستدلوا بذلك على صحة نبوته؛ قال هرقل لأبي سفيان في سؤاله عن نبينا محمد ﷺ: «ماذا يأمركم؟»، قال أبو سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يقول: اعبدوا الله وحده ولا تُشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم. ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصِّلة»[1].

وبنحو استدلال هرقل والنصارى على صحة نبوة رسول الله ﷺ استدل اليهود كذلك، فكان محتوى دعوة رسول الله ﷺ أعظم برهان على أنه

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي (ص ٣ - رقم٧).

رسول الله حقًّا وصدقًا، قال عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وكان من أحبار اليهود -: «لَمَّا قدم النبي ﷺ المدينة انجفل النَّاس عليه، فكنت فيمن انْجَفل، فلما تبيَّنت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذَّاب، فكان أول شيء سمعته يقول: **أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وصَلُّوا والناس نيام؛ تدخلوا الجنَّة بسلام**»[١].

قال ابن شيخ الحزاميين رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «إنما ينشأ الإيمان من معرفة الرسول ﷺ بمعرفة سيرته وسنته وغزواته ومعجزاته وآياته وكراماته؛ فبذلك يُعلم شأن النبوة، وتلوح أدلتها وبراهينها في القلوب.

ومتىٰ عُلم شأن النبوة ورسخت معالمها ودلائلها في القلوب؛ كانت كرسيًّا لعلم التوحيد، وطريقًا إلىٰ معرفة الرب العظيم المُرسِل الباعث؛ لأن النبوة آيات الله عَزَّوَجَلَّ وبيِّناته ودلالاته، لمن اتَّسع فهمه وصفا من الكدر، وطلب استخراج ذلك منه».

وقال تعالىٰ في صفة نبينا محمد ﷺ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [الأحزاب: ٦]؛ فهو أولىٰ بهم من أنفسهم، ليس فقط في الدنيا حال حياته حين كان يقضي ديونهم، ويقول: «**من ترك دينًا أو ضياعًا فليأتني؛ فأنا أولىٰ به**»،

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٤٥١)، والترمذي كتاب صفة القيامة، بابٌ حديث: أفشوا السلام (ص٥٦٦ رقم ٢٤٨٥)، وقال: حديث صحيح.

(٢) مدخل أهل الفقه واللسان إلىٰ ميدان المحبّة والعرفان (ص ٤٩، ٥٠).

رواه البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، بل هو أولىٰ بهم من أنفسهم في الآخرة أيضًا، وهذا مقام أهواله عظيمة، وهو القرار الأخير الأبدي السرمدي، إما جنة وإما نار؛ فإنه - صلوات الله وسلامه عليه - ادّخر شفاعته لأهل الكبائر من أمته.

ومن معاني قوله تعالىٰ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أن حكمه فيهم يجب أن يكون مقدمًا علىٰ اختيارهم لأنفسهم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وفي الصحيح: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين**»، وفي الصحيح أيضًا أن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: يا رسول الله! والله لأنت أحبّ إلي من كل شيء إلا من نفسي. فقال ﷺ: «**لا يا عمر! حتىٰ أكون أحب إليك من نفسك**».

فرعاية حقوق النبي ﷺ وطاعته ونصرته، والانتصار له وللدين الذي بُعث به؛ دليل وفور الإيمان والتحقق به، قال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [التوبة: ١٢٠]، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُٱللَّهُ[١]: «أي: ما ينبغي لهم ذلك، ولا يليق بأحوالهم. ﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ﴾ في بقائها وراحتها،

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص ٣٣٢).

وسكونه ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ الكريمة الزكية، بل النبي ﷺ أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم، فعلىٰ كل مسلم أن يفدي النبي ﷺ بنفسه، ويقدّمه عليها. فعلامة تعظيم الرسول ﷺ ومحبته والإيمان التام به؛ أن لا يتخلفوا عنه».

ومعرفة أحوال النبي ﷺ وسيرته ضرورة للتأسي به، ولأخذ صفة أدائه لفرائض الله وعباداته، ولتلقي أحكام الشريعة عنه، وهو من أسباب زيادة الإيمان، والتخلق بمكارم الأخلاق، والسير علىٰ سنته بدون ابتداع، وبدون إفراط ولا تفريط.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «ومن طرق موجبات الإيمان وأسبابه: معرفة النبي ﷺ، ومعرفة ما هو عليه من الأخلاق العالية والأوصاف الكاملة. فإن من عرفه حقَّ المعرفة لم يرتبْ في صدقه، وصدَّق ما جاء به من الكتاب والسُّنَّة، والدِّين الحق، كما قال تعالىٰ: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩].

أي: فمعرفته ﷺ تُوجب للعبد المبادرة إلىٰ الإيمان ممن لم يؤمن، وزيادة الإيمان ممن آمن به.

وقال تعالىٰ حاثًّا لهم علىٰ تدبُّر أحوال الرسول ﷺ؛ الدَّاعية للإيمان: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

---

(١) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص ٧٣ – ٧٥).

وأقسم تعالىٰ بكمال هذا الرسول ﷺ، وعظمة أخلاقه، وأنه أكمل مخلوق بقوله: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ٤﴾ [القلم: ١-٤].

فهو ﷺ أكبر داعٍ للإيمان في أوصافه الحميدة، وشمائله الجميلة، وأقواله الصَّادقة النافعة، وأفعاله الرَّشيدة؛ فهو الإمام الأعظم، والقدوة الأكمل ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وقد ذكر الله عن أولي الألباب، الذين هم خواص الخلق؛ أنهم قالوا: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾، وهو هذا الرسول الكريم.

﴿يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ﴾ بقوله وخُلُقِه، وعمله، ودينه، وجميع أحواله ﴿فَـَٔامَنَّا﴾، أي: إيمانًا لا يدخله ريب.

ولمَّا كان هذا الإيمان من أعظم ما يُقرِّب العبد إلىٰ الله، ومن أعظم الوسائل التي يحبها الله؛ تَوَسَّلُوا بإيمانهم أن يُكَفِّر عنهم السيئات ويُنيلهم المطالب العاليات، فقالوا: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]».

ومن أعظم ما يكون من الإيمان بمحمد ﷺ رسولًا ونبيًّا؛ حبه وتوقيره ونصرته والذب عنه، وهداية الخلق إلىٰ الإسلام الذي بُعث به، فيكون العلماء ورثة الأنبياء، ويبلغون رسالة الله طاعة لله ورحمة للخلق.

قال الحافظ أبو بكر الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «النصح له يقتضي نصحين؛ نُصحًا في حياته، ونُصحًا بعد مماته؛ ففي حياته نُصح أصحابه له بالنصر والمُحاماة عنه، ومعاداة من عاداه، والسَّمْع والطاعة له، وبذل النفوس والأموال دونه، كما قال الله تعالىٰ: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ۝٢٣﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وقال: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨﴾ [الحشر: ٨].

وأما نصيحة المسلمين له بعد وفاته: فالتزام التوقير والإجلال، وشدة المحبة له، والمثابرة علىٰ تعلم سُنَّته، والتفقه في شريعته، ومحبة آل بيته وأصحابه، ومجانبة من رغب عن سُنَّته وانحرف عنها وبغضه والتحذير منه، والشفقة علىٰ أُمته، والبحث عن تعرُّف أخلاقه وسيره وآدابه، والصّبرُ علىٰ ذلك».

وقال القاضي عياض اليحصبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «قال سهل - التستري - في قوله تعالىٰ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧]: قال: بمتابعة السنة. فأمرهم تعالىٰ بذلك، ووعدهم الاهتداء باتِّباعه؛ لأن الله تعالىٰ أرسله بالهدىٰ ودين الحق ليُزكِّيهم ويُعلِّمهم الكتاب والحكمة، ويهديهم إلىٰ صراط مستقيم، ووعدهم محبَّته تعالىٰ في الآية الأخرىٰ ومغفرته إذا اتَّبعوه، وآثروه علىٰ أهوائهم وما تجنح إليه نفوسهم، وأن صحة إيمانهم بانقيادهم له، ورضاهم بحُكمه، وترك الاعتراض عليه.

---

(١) بواسطة الشفا (٢/ ٥٨٤، ٥٨٥).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ ﷺ (٢/ ٥٤٧ - ٥٤٩).

وروىٰ عن الحسن أن أقوامًا قالوا: يا رسول الله! إنا نُحب الله فأنزل الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

وروي أن الآية نزلت في كعب بن الأشرف وغيره، وأنهم قالوا: نحن أبناء الله وأحبَّاؤُه، ونحن أشد حبًّا لله. فأنزل الله الآية.

وقال الزجاج: معناه: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ أن تقصدوا طاعته، فافعلوا ما أمركم به؛ إذ محبَّةُ العبد لله والرسول طاعته لهما، ورضاه بما أمرا، ومحبَّةُ الله لهم: عفوه عنهم، وإنعامه عليهم برحمته(١).

ويقال: الحب من الله عصمة وتوفيق، ومن العباد طاعة. كما قال القائل:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه ... هذا لعمري في القياس بديع».

ومن حب النبي ﷺ حُب قرابته المؤمنين، وأصحابه أجمعين، قال

---

(١) **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «محبة الرب لأوليائه وأنبيائه ورسله صفة زائدة علىٰ رحمته وإحسانه وعطائه، فإن ذلك أثر المحبة وموجبها». [مدارج السالكين (٣/ ١٧)]. **وقال**: «الجهمية المعطلة أوَّلوا نصوص محبته لهم بإحسانه إليهم وإعطائهم الثواب». [باختصار، مدارج السالكين (٣/ ١٨)].

وقال العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «محبة تليق بجلال الله وعظمته من غير تمثيل، لا يعلم كنهها ولا كيفيتها إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنه أعلم بنفسه، وقد أعلَّمَنَا أنه يُحِب ويُحَب، فنحن نؤمن بالله وبما جاء عن الله علىٰ مراد الله». [شرح العقيدة الواسطية (ص٥١)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تُحد المحبّة بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء، فحدها وجودها، ولا تُوصف المحبة بوصف أظهر من المحبة». [مدارج السالكين (٣/ ١٠)].

القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ومنها محبّته لمن أحبَّ النبي ﷺ، ومن هو بسببه من آل بيته وصحابته من المهاجرين والأنصار، وعداوة من عاداهم، وبُغض من أبغضهم وسبَّهم، فمن أحبَّ شيئًا أحبّ من يحبه.

وقد قال النبي ﷺ في الحسن والحسين: «**اللهم إني أُحبّهما فأحبّهما**». وفي رواية في الحسن: «**اللهم إني أُحبُّه فأحبَّ من يُحبّه**». وقال: «**من أحبّهما فقد أحبّني، ومن أحبّني فقد أحبّ الله، ومن أبغضهما فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله**». وقال: «**الله الله في أصحابي؛ لا تتخذوهم غرضًا بعدي؛ فمن أحبَّهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذىٰ الله، ومن آذىٰ الله يوشك أن يأخذه**». وقال في فاطمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «**إنها بضعة مني؛ يغضبني ما أغضبها**». وقال لعائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا في أسامة بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**أحبيه؛ فإني أحبه**». وقال ﷺ: «**آية الإيمان حبُّ الأنصار، وآية النفاق بغضهم**».

وفي حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**من أحبَّ العرب فبحبِّي أحبَّهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم**». فبالحقيقة من أحبّ شيئًا أحب كل شيءٍ يحبُّه. وهذه سيرة السَّلف، حتىٰ في المباحات وشهوات النفس، وقد قال أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حين رأىٰ النبي ﷺ يتتبَّع الدُّبّاء من حوالي القصعة: فما زلت أحبُّ الدُّباء من يومئذ».

---

(١) الشفا (٢/ ٥٧٣ - ٥٧٥).

وحيث لا يوجد الحب والتوقير للنبي ﷺ فإنه دال على كفر صاحبه؛ لأن المنصف فضلًا عن المؤمن بالله ورسوله ﷺ يجد في قلبه ضرورة في حبه ﷺ؛ لما في دعوته من توحيد الله، والهداية إلى كل خير، والتحذير من كل شر، والرحمة للخلق، والسعي في عتق رقابهم من النار، فالنبي ﷺ أحبه الحجر والشجر، فقال ﷺ «**أحد جبل يحبنا ونحبه**». واليهود أبغضوه وسبوه؛ فغضب الله عليهم، وأبغضهم الحجر والشجر.

وكان اليهود - عليهم لعائن الله - يخاطبون النبي ﷺ بالألفاظ المحتملة الحق والباطل، يقصدون بها المعاني السيئة، فأخبره الله بشأنهم، وحذّر المؤمنين من مخاطبته بنحو خطاب اليهود، وإن لم يقصدوا به إلا المعاني الصحيحة؛ قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ۗ﴾ [البقرة: ١٠٤].

قال القاضي عياض اليحصبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «ومن توقيره وبرّه ﷺ توقير أصحابه وبرُّهم، ومعرفة حقِّهم، والاقتداء بهم، وحسنُ الثناء عليهم، والاستغفار لهم، والإمساك عما شجر بينهم، ومعاداة من عاداهم، والإضراب عن أخبار المؤرخين وجهلة الرُّواة وضُلَّال الشِّيعة والمبتدعين القادحة في أحد منهم، وأن يُلتمس لهم فيما نُقل عنهم من مثل ذلك فيما كان بينهم من الفتن أحسن التأويلات، ويُخرَّج لهم أصوب المخارج؛ إذ

---

(١) الشفا (٢/ ٦١١ - ٦١٣).

هم أهلُ ذلك، ولا يُذكر أحدٌ منهم بسوء، ولا يُغمص عليه أمر، بل تُذكر حسناتهم وفضائلهم وحميد سيرتهم، ويُسكت عما وراء ذلك، كما قال ﷺ: «**إذا ذُكر أصحابي فأمسكوا**». قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، وقال ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]».

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من تمام الإيمان برسول الله ﷺ ومحبته، محبة أصحابه بحسب مراتبهم من الفضل والسَّبْقِ، والاعترافُ بفضائلهم التي فاقوا فيها جميع الأمّةِ، وأن تدين الله بحبهم ونشر فضائلهم، وتُمْسك عما شجر بينهم، ونعتقد أنهم أولى الأمَّةِ بكل خصلة حميدة، وأسبقهم إلى كل خير، وأبعدهم من كل شر، وأنهم

(١) سؤال وجواب في أهم المهمات (ص ١٨)، ط: دار العاصمة.

جميعهم عدول مرضيون».

ولما ضعف إيماننا، وقصر عن درجة الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ ما بلغنا مُدّهم ولا نصيفهم في حب النبي ﷺ وتوقيره؛ وهذا بيان لبعض سيرة الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ في حب النبي ﷺ وتوقيره، فكانوا يجلسون إليه كأن على رءوسهم الطير؛ لسكونهم وخشوعهم وتوقيرهم وإصغائهم له.

وأعداؤه شهدوا ولاحظوا عظيم الحب والتوقير المتناهي من الصحابة للنبي ﷺ الذي لا يدانيه أحد لأي مخلوق؛ قال عروة بن مسعود حين أرسلته قريش في الحديبية ليفاوض النبي ﷺ في الصلح: «إذا أمرهم - الصحابة - بأمر ابتدروا أمره، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدُّون إليه النظر؛ تعظيمًا له.

فلما رجع إلى قريش قال: يا معشر قريش! إني جئت كسرى في مُلكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني - والله - ما رأيت مَلِكًا في قوم قط مثل محمد ﷺ في أصحابه»[1].

ومن حب النبي ﷺ توقيره في الخطاب؛ فيُذكر بأكمل نعوته، وهو النبوة والرسالة؛ لا يُذكر كما يُذكر سائر الناس؛ قال تعالى: ﴿**لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ**﴾ [النور: ٦٣].

ومن حب النبي ﷺ عدم التقدم بين يديه، قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ**

---

(١) رواه البخاري، كتاب الشُّروط، باب الشُّروط في الجهاد (ص٤٤٧ – رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢).

﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحجرات: ١] قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحجرات: ٢-٣].

فإذا كان رفع الصوت بالكلام الذي يتخاطب به الناس في حديثهم مع رسول الله ﷺ، مُحبطٌ للأعمال، فكيف برفع الصوت على النبي ﷺ بالمقالات والاعتقادات والأحكام المضادة لشرع الله، الذي أوحي إليه صلوات الله وسلامه عليه؟!!

والناس يتفاضلون في تحقيق شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ تفاضلًا عظيمًا، فمنهم العلماء بسنته والشريعة التي بُعث بها، قائمون بها، محيون لما اندرس منها، عالمون بشمائله وأخلاقه، وما تعبدنا الله به من سنته، ومنهم دون ذلك؛ عندهم جهل ببعض سنته وخصائصه - صلوات الله وسلامه عليه -، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «من كان بأسماء النبي ﷺ وصفاته أعلم، كان بالنبي ﷺ أعلم؛ فليس من علم أنه نبي كمن علم أنه رسول، ولا من علم أنه رسول كمن يعلم أنه خاتم الرسل، ولا من علم أنه خاتم الرسل كمن علم أنه سيد ولد آدم، ولا من علم ذلك كمن

(١) شرح حديث جبريل (ص ٤٨١).

علم ما خصّه الله به من الشفاعة والحوض والمقام المحمود والملة وغير ذلك من فضائله ﷺ، وليس كل من جهل شيئًا من خصائصه يكون كافرًا، بل كثير من المؤمنين لم يسمع بكثير من فضائله وخصائصه».

ومن أعظم ما يكون من موالاة النبي ﷺ لزوم الشرع الذي أوحي إليه، والتأسي به في أقواله وأفعاله، والرغبة عن سنته - والعياذ بالله - كما تكون في التفريط فإنها تكون بالإفراط أيضًا، فإن النبي ﷺ قال: «**من رغب عن سنتي؛ فليس منّي**». متفق عليه.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «صدق النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ فإن هذا هو مقتضى الفطرة، **الذي يرغب عن سنتك لا شك أنه مفارق لك، وأنه لا صلة بينك وبينه، والذي يرغب في سنتك هذا هو الموالي لك.**

ولهذا فإن من أعظم الولاء أن يكون الإنسان موافقًا لمن تولاه في أفعاله وأقواله، وهو شيء مشاهد، حتى إن الإنسان إذا أحب شخصًا صار يقتدي به، وينظر ماذا يفعل، فيفعل مثله، فكذلك الولاية؛ **من أراد أن يكون من أولياء الله ورسوله، فليسلك ما شرعه الله على لسان رسوله** ﷺ.

فقوله ﷺ: «**ليس مني**»؛ **أي: ليس ممن ينتسب إليَّ، لأن الذي ينتسب إليه حقًّا** هو الذي يأخذ بشريعته - صلوات الله وسلامه عليه -».

---

(١) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام (١١/ ٢٠).

فشهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ تقتضي نصرته، وهذا من حقائق الإيمان بأن الله أرسله، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من كان مؤمنًا بالله ورسوله ﷺ بقلبه، هل يتصور إذا رأىٰ الرسول ﷺ وأعداؤه يقاتلونه، وهو قادر علىٰ أن ينظر إليهم، ويحض علىٰ نصر الرسول ﷺ بما لا يضره، هل يُمكن مثل هذا في العادة أن لا يكون منه حركة ما إلىٰ نصر الرسول ﷺ فمن المعلوم أن هذا ممتنع! فلهذا كان الجهاد المتعين بحسب الإمكان من الإيمان، وكان عدمه دليلًا علىٰ انتفاء حقيقة الإيمان، بل قد ثبت في الصحيح عنه ﷺ: «**من مات ولم يغز، ولم يُحدّث نفسه بالغزو، مات علىٰ شعبة من نفاق**»، وفي الحديث دلالة علىٰ أنه يكون فيه بعض شعب النفاق مع ما معه من الإيمان، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وأيضًا فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**» وفي رواية: «**وليس وراء ذلك من الإيمان مثقال حبة خردل**»، فهذا يُبيّن أن القلب إذا لم يكن فيه بغض ما يكرهه الله من المنكرات كان عادمًا للإيمان، والبغض والحب من أعمال القلوب. ومن

---

(١) شرح حديث جبريل (ص ٤٤٨، ٤٤٩).

المعلوم أن إبليس ونحوه يعلمون أن الله عَزَّوَجَلَّ حرّم هذه الأمور، ولا يبغضونها، بل يدعون إلىٰ ما حرم الله ورسوله ﷺ».

فالأمة الإسلامية كلها تعرف للنبي ﷺ فضله ومنّته عليها، وكيف صار لهذه الأمة شأن في سيادة الأمم وهدايتها إلىٰ معرفة الحق والعمل به، وتحقيق التوحيد الخالص لله، الذي به العصمة من الخلود في النار، وكان موجبًا لدخول الجنة، وذلك هو الفوز العظيم، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

كان العرب في جاهلية وشرك، وكان الفرس أغلظ شركًا مجوسًا عُبّاد النار، وكان النصارىٰ في شرك التثليث، واليهود في الشرك والسب لله فهدىٰ الله البشرية إلىٰ توحيد الله بدعوة رسول الله ﷺ ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وسار الصحابة إلىٰ أقطار الدنيا بميراث النبوة؛ ليعتقوا رقاب البشرية من النار، وليخرجوهم من عبادة العباد إلىٰ عبادة رب العباد، وكثر الخير في الأرض، وظهرت الرحمة بالنور الإلهي الذي أوحاه الله إلىٰ رسوله ﷺ، بعد أن كانوا في مقت الله وسخطه، فقبل بعثة نبينا محمد ﷺ مقت الله أهل الأرض كلهم، إلا من كان متمسكًا بالشرائع غير المحرّفة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلىٰ الخيرات بنبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه؛ فإنه أشرف خلق الله

---

(١) تفسير القرآن العظيم (ص ٢٥٣).

وأكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يعطه نبيًّا قبله ولا رسولًا من الرسل؛ فالعمل على منهاجه وسبيله، يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه».

فمن لا يعرف من النعم إلا الأكل والشرب والنوم فهو مغبون، فأعظم النعم وأكملها وأسبغها وأولاها شكرًا، نعمة الوحي الذي أنزله الله على رسوله ﷺ، فرحم الله الخلق بإرسال محمد ﷺ بعد أن مقت الله الخلق لكفرهم وشركهم وتغييرهم لشرائع الله.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

قال الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «في هذه الآية الشريفة معانٍ عظيمة وحِكمٌ لطيفة، منها: أن الله تعالى ذكَّر عباده نِعَمه وإحسانه، وعرَّفهم - ببعض الآيةِ - امتنانه، كما ذكر ذلك في آيات كثيرة من القرآن، ليشكُروه على ما أنعم، وليعبدوه كما أمر وعلَّم، وليبعثهم ذِكْرُ نِعَمه على محبته - والله أعلم -؛ لأن القلوب جُبلت على حب من أحسن إليها.

---

(١) مجالس تفسير قوله تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤]، (ص ١٨٨، ١٨٩).

ومن الآيات المشار إليها قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ الآية [غافر: ٦٤].

ومنها: هذه الآية الشريفة: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وهذه النعمة التي امتنَّ الله بها على المؤمنين، وأحسن إليهم أجمعين، أعظم نعمةٍ أنعم بها عليهم؛ لأن نعم الله الظاهرة دائرة بين أمرين:

أحدهما: يتعلَّق بأمور الدنيا.

والثاني: بأمور الدين.

ويرجعان إلى المبدأ والمعاد، ولم يحصل العلمُ بذلك، وكيفية العمل بما شُرع أمرًا ونهيًا وغير ذلك، إلا من جهة نبينا محمد - عليه أفضل الصلاة والسلام -؛ فلولاه ما عُرف الهدى من الضلال، ولا الحرام من الحلال، ولا قواعد العقائد أصلًا وفرعًا، ولا شعائر الشرائع نقلًا وشرعًا، ولا أمرُ المعاد وما فيه من الأخطار: كالحشر والنشر، والجزاء والقصاص، والجنة والنار، وكيف طريق السلامة في الدنيا، والنجاة يوم القيامة، مما بيَّنه النبي ﷺ لهذه الأمة، فأيُّ نعمة أعظم من بعثة هذا النبي، نبيِّ الرحمة، الذي عُرف كل ذلك من قِبَلِه واعتُمد عليه[1]، وحصلت سلامة المؤمنين ونجاتهم

---

(١) الاعتماد على الله، والرسول ﷺ مُبلِّغ عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

على يديه؟!

ولعظم هذه النعمة التي هي أجلُّ الإنعام، أخبر الله تعالى عنها مؤكَّدة باللام، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، ولم يذكر سبحانه اسمًا من أسمائه الحسنى في هذه الآية سوى هذا الاسم الشريف وهو [الله]، إشارةً - والله أعلم - إلى أنه لما كان قدْر هذا الرسول عظيمًا ذكر مرسلُه سبحانه اسمَه الأعظمَ الدالَّ على العظمة، حين ذكر مَنَّهُ ببعثته في المؤمنين رسوله محمدًا ﷺ».

والقرآن إنما جاء لتقرير التوحيد وبيان صحة الرسالة، لأن الناس إذا تقرر عندهم التوحيد واضحًا جليًّا، احتاجوا إلى أداء حق الله الخالص في عبادته، ومعرفة هذا بالتفصيل إنما يكون بمعرفة الرسالة التي بعث الله بها نبيه ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان: ٣-٦].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أي: من أعجب العجائب

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص ٥٤٩).

وأدل الدليل على سفههم ونقص عقولهم، بل أدل على ظلمهم وجراءتهم على ربهم، أن اتخذوا آلهة بهذه الصفة، في كمال العجز؛ أنها لا تقدر على خلق شيء، بل هم مخلوقون، بل بعضهم مما عملته أيديهم، ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [الفرقان: ٣]؛ أي: لا قليلًا ولا كثيرًا؛ لأنه نكرة في سياق النفي.

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣]؛ **أي**: بعثًا بعد الموت. فأعظم أحكام العقل بطلان إلهيتها وفسادها وفساد عقل من اتخذها آلهة وشركاء للخالق لسائر المخلوقات - من غير مشاركة له في ذلك -، الذي بيديه النفع والضر، والعطاء والمنع، الذي يحيي ويميت، ويبعث من في القبور، ويجمعهم ليوم النشور، وقد جعل لهم دارين، دار الشقاء والخزي والنكال لمن اتخذ معه آلهة أخرى، ودار الفوز والسعادة والنعيم المقيم لمن اتخذه وحده معبودًا.

ولما **قرّر بالدليل القاطع الواضح صحة التوحيد وبطلان ضده، قرر صحة الرسالة**، وبطلان قول من عارضها واعترضها، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان: ٤-٦].

أي: وقال الكافرون بالله الذي أوجب لهم كفرهم؛ أن قالوا في القرآن والرسول: إن هذا القرآن كذب كذبه محمد، وإفك افتراه على الله، وأعانه على ذلك قوم آخرون.

فرد الله عليهم ذلك بأن هذا مكابرة منهم، وإقدام على الظلم والزور، الذي لا يمكن أن يدخل عقل أحد، وهم أشد الناس معرفة بحالة الرسول ﷺ وكمال صدقه وأمانته وبره التام، وأنه لا يمكنه لا هو ولا سائر الخلق أن يأتوا بهذا القرآن، الذي هو أجل الكلام وأعلاه، وأنه لم يجتمع بأحد يعينه على ذلك؛ فقد جاءوا بهذا القول ظلمًا وزورًا».

وكان القرآن ينزل بذكر قبائح اعتقادات اليهود والنصارى وأعمالهم، ولا ينكرون منه حرفًا، وشهد علماؤهم بصحة رسالة النبي محمد ﷺ؛ قال ورقة بن نوفل: «هذا الناموس الذي كان ينزل على موسى». رواه البخاري، وقال هرقل بعد سماع أجوبة أبي سفيان لأسئلته: «ما كنت أظن أنه يخرج فيكم، لئن كان ما تقول حقًّا، فسيملك ما تحت قدمي هاتين»، رواه البخاري.

وعبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أحبار اليهود، عرف دلائل نبوة خاتم الرسل ﷺ أول ما رآه عند قدومه المدينة مهاجرًا من مكة، قال عبد الله ابن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]: «لما قدم النبي ﷺ انجفل النّاس عنه، فكنت فيمن انجفل، فلمّا تبيّنت وجهه عرفت أنّ وجهه ليس بوجه كذّاب، فكان أول شيء سمعته

(١) رواه أحمد (٥/ ٤٥١)، والترمذي (رقم ٢٤٨٥)، وقال: حديث صحيح.

يقول: «**أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وصلّوا والناس نيام، تدخلوا الجنّة بسلام**».

واليهود أنفسهم كانوا يعرفون أن الوحي الذي أُنزل علىٰ رسول الله ﷺ هو من علوم النبوة، لا من كلام السحرة ولا الكهان؛ ففي «صحيح مسلم» من حديث ثوبان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن يهوديًّا أتىٰ النبي ﷺ وقال له: أسألك عن ثلاث لا يعرفهن إلا نبي! فقال له النبي ﷺ: «**أوينفعك إن أخبرتك؟!**» قال اليهودي: أسمع. ثم قال اليهودي للنبي ﷺ: ما هو الطعام الذي حرّمه إسرائيل علىٰ نفسه؟ وما هو أول طعام الجنة؟ وبم يكون شبه الولد؟

فقال النبي ﷺ: «**الطعام الذي حرّمه إسرائيل علىٰ نفسه لحوم الإبل، وأول طعام أهل الجنة زيادة كبد الحوت، وإذا علا ماء الرجل ماء المرأة جاء المولود ذكرًا، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل جاء المولود أنثىٰ، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة جاء المولود شبهًا لأبيه، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل جاء المولود شبهًا لأمه**».

فدلائل نبوة نبينا محمد ﷺ عرفها المنصفون سواء من أسلم منهم أو من كفر لحظ دنيوي كالرئاسة كما حصل من هرقل وسادات قريش كأبي لهب وأبي جهل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «النبوة الحق: هي إنباء الله

(١) النبوات (٢/ ٧٠٣).

لعبده، ونبي الله: من كان الله هو الذي ينبئه، ووحيه من الله».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فالنبي هو الذي ينبئه الله، وهو ينبيء بما أنبأ الله به، فإن أُرسل مع ذلك إلىٰ من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ولم يُرسل هو إلىٰ أحد يُبلّغه عن الله رسالة فهو نبي، وليس برسول، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]، وقوله: ﴿مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ فذكر إرسالًا يعم النوعين، وقد خص أحدهما بأنه رسول؛ فإن هذا هو الرسول المطلق الذي أمره بتبليغ رسالته إلىٰ من خالف الله كنوح».

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «وانظر إلىٰ الأصل الثاني وهو إثبات الرسالة، وأن الله قد أقام علىٰ صدق رسله من الآيات ما علىٰ مثله يؤمن البشر، وخصوصًا محمدًا ﷺ؛ فإن آيات نبوته وأدلة رسالته وصدقه متنوعة: سيرته وأخلاقه وما جاء به من الدين القويم، وحثّه علىٰ كل خلق كريم وعمل صالح ونفع وإحسان وعدل، ونهيه عن ضد ذلك، وما جاء به من الوحي: الكتاب والسُّنَّة، كله جملة وتفصيلًا براهين علىٰ نبوته وصدقه، مع ما أكرمه الله به من النصر العظيم وإظهار دينه علىٰ الأديان كلها، ومن إجابة الدعوات وحلول أنواع البركات التي لا تُعدُّ

(١) النبوات (٢/ ٧١٤).

(٢) تيسير اللطيف المنّان (ص ٣٣٠).

أنواعها فضلا عن أفرادها، وهذا بقطع النظر عن شهادة الكتب السابقة، وعن عجز المعارضين له في مقامات التحدي كلها، وعجزهم عن نصر باطلهم».

ومن أسلم من أهل الكتاب وكذلك من له معرفة بكتبهم، أخبر بصفة النبي ﷺ المذكورة في كتبهم، قال عطاء بن يسار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لقيت عبد الله ابن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وحرزًا للأمِّيِّين، أنت عبدي ورسولي، سَمَّيْتك المتوكِّل، ليس بفظٍّ ولا غليظ، ولا سخَّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر. ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملَّة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله. ويُفْتَحُ بها أعين عُمْيٌ، وآذان صُمٌّ، وقلوب غلف[(١)].

وعلوم الأنبياء ودعوتهم واحدة،

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إن النبي ﷺ هو وسائر النبيين لا يُخبرون إلا بحق، ولا يأمرون إلا بعدل؛ فيأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويأمرون بمصالح العباد في المعاش والمعاد، لا يأمرون بالفواحش، ولا الظلم، ولا الشرك، ولا القول بغير علم؛ فهم بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها، لا بتبديلها وتغييرها؛ فلا يأمرون إلا بما يوافق المعروف

---

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب كراهية السخب في السُّوق (ص ٣٤١ - رقم ٢١٢٥).

(٢) النبوات (٢/ ١٠٩٠، ١٠٩١).

في العقول، الذي تتلقاه القلوب السليمة بالقبول.

فكما أنهم هم لا يختلفون فلا يُناقض بعضهم بعضًا، بل دينهم وملتهم واحدة، وإن تنوعت الشرائع؛ فهم أيضًا موافقون لموجب الفطرة التي فطر الله عليها عباده، موافقون للأدلة العقلية، لا يناقضونها قط، بل الأدلة العقلية الصحيحة كلها توافق الأنبياء لا تخالفهم».

فنحن نؤمن بالنبيين عليهم السلام جميعًا كما أمرنا الله ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أوجب الله الإيمان بما أوتيه النبيون – عليهم الصلاة والسلام – فقال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة: ١٣٦] وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]».

أما غلو النصارى في عيسى ابن مريم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فإنهم ادّعوه إلهًا، وقالوا: إنه ثالث ثلاثة. تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

وسبب شرك النصارى راجع لتحريف كلام الله عن موضعه أو جهلهم بمعناه؛ كتوهمهم أنه حلّ في عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ جزء من الذات الإلهية، وأنه

---

(١) النبوات (٢/ ٦٩٠).

كلمة الله وروح منه.

قال أمير المؤمنين في الحديث البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وأما تحريفهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ فلو كان كما قالوا، لكان ينبغي أن يكون بين الدَّفَّتين: [وكلمته **ألقاه** إلىٰ مريم]؛ لأن عيسىٰ مُذَكَّر، والكلمة مؤنثة، لا اختلاف بين العرب في ذلك، وإنما خلق الله عيسىٰ بالكلمة، لا أنه الكلمة، ألا تسمع إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]؛ يعني جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كما قال في آية أخرىٰ: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]، وقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]؛ فخلق عيسىٰ وآدم بقوله: ﴿كُن﴾ وليس بين هاتين الآيتين خلاف».

فالإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ لقوة علمه وحسن قصده وسلوكه المنهج القرآني في الردّ علىٰ النصارىٰ، بيَّن أن خلق عيسىٰ ليس بأعجب من خلق آدم، فلماذا خصوا عيسىٰ بالألوهية دون آدم؟!! إنه الغلو في عيسىٰ والجهل والقول علىٰ الله بغير علم والتناقض؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

والذي يزيد الأمر وضوحًا أن ﴿رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧] هو جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه تمثَّل لمريم بشرًا، فخافته، فأخبرها أنه مرسل من الله، قال تعالىٰ: ﴿فَأَرْسَلْنَآ

(١) خلق أفعال العباد (٢/ ٦٢).

إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم: ١٧ - ١٩].

فإضافة جبريل إلىٰ الله في قوله تعالىٰ: ﴿رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧] إضافة تشريف، واصطفاء؛ لأن جبريل ملك مخلوق لله؛ فهو عين قائمة بنفسها أضيفت إلىٰ الله تشريفًا كـ ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وكذلك (بيت الله)، وليست الإضافة هنا إضافة صفة من صفات الله إليه، تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «وأمَّا قول الله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، يقول: من أمره كان الرُّوح فيه، كقوله ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، يقول: من أمره.

وتفسير «روح الله» إنما معناها: أنها روح بكلمة الله، خلقها الله، كما يُقال: عبد الله، وسماء الله، وأرض الله».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «قوله تعالىٰ: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧]، فإنه وصف هذا الروح بأنه تمثل لها بشرًا سويًّا، وأنها استعاذت بالله منه إن كان تقيًّا، وأنه قال: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: ١٩] وهذا كله يدل علىٰ أنها عين قائمة بنفسها».

---

(١) الرد علىٰ الزنادقة والجهمية (ص٢٥١، ٢٥٢).

(٢، ٢) الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح (١/ ٢٤٢).

وقال متممًا[1]: «وإن كان الله قد بيّن أن المضاف هنا ليس من الصفات القائمة بغيرها، بل من الأعيان القائمة بنفسها، عُلم أن المضاف مملوك لله مخلوق له، لكن إضافته إلى الله تدل على تخصيص الله له من الاصطفاء والإكرام بما أوجب التخصيص بالإضافة».

والغلو في الأنبياء - عليهم السلام - واقع في هذه الأمة من أهل القبلة، يستغيثون برسول الله ﷺ وهو بشر ميّت، يسألونه ما لا يقدر عليه إلا الله من كشف الشدائد والكربات، وسؤال الذرية والمال، والشفاء من الأسقام التي أقر النبيون - عليهم السلام - أنفسهم أنه لا يقدر على ذلك إلا الله.

قال سيد الحنفاء خليل الله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٧٧-٨٢].

ومن الإيمان برسالة محمد ﷺ اعتقاد أن رسالته عامة للخلق جميعًا، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وأهل الكتاب أنفسهم يعرفون أن رسول الله ﷺ مبعوث إليهم؛ فنعته لم يذكر عبثًا في كتبهم وإنما ذُكر للإيمان به ونصرته واتّباعه ولزوم الشرع

(١) الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح (١/ ٢٤٢).

الذي بُعث به، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ولذلك كانوا يستفتحون به علىٰ مشركي العرب، قال تعالىٰ: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]، وحقيقته دعوته، ومحتواها دال علىٰ صحة رسالته؛ صدق في الأخبار وعدل في الأحكام، قال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فمن قال بعد هذا من أهل الكتاب - اليهود والنصارىٰ - أنه لم يُبعث إلينا. بمعنىٰ أنه لم يقل: إنه مبعوث إلينا. كان مكابرًا جاحدًا للضرورة، مفتريًا علىٰ الرسول ﷺ فريةً ظاهرة، تعرفها الخاصة والعامة.

وكان جحده لها كما لو جحد أنه جاء بالقرآن، أو شرع الصلوات الخمس، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام. وجحد محمد ﷺ وما تواتر عنه، أعظم من جحد أتباع الحواريين للمسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وإرساله لهم إلىٰ الأمم ومجيئه بالإنجيل وجحد مجيء موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالتوراة، وجحد أنه كان يسبت؛ فإن النقل عن محمد ﷺ مدته قريبة، والناقلون عنه أضعاف أضعاف من نقل دين المسيح عنه، وأضعاف أضعاف أضعاف من اتصل به

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح (١/ ١٢٧).

نقل دين موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ».

والنصارىٰ كانوا يعرفون أن الوحي الذي أنزله الله علىٰ رسوله محمد ﷺ من علوم النبوة ومشكاتها، فقد قال النجاشي لجعفر بن أبي طالب ومن معه من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ما دينكم؟ قالوا: ديننا الإسلام. قال النجاشي: وما الإسلام؟ قالوا: نعبد الله ولا نشرك به شيئًا. قال: وما جاءكم بهذا؟ قالوا: جاءنا به رجل من أنفسنا قد عرفنا وجهه ونسبه، أنزل الله عليه كتابه، فعرَّفنا كلام الله وصدَّقناه.

قال لهم النجاشي: فبم يأمركم؟ قالوا: يأمرنا أن نعبد الله ولا نُشرك به شيئًا، ويأمرنا أن نترك ما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة، والوفاء، وبأداء الأمانة، وبالعفاف.

قال النجاشي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فوالله إن خرج هذا إلا من المشكاة التي خرج منها أمر موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ»(١).

وسأل النجاشي جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن معه من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عن عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقالوا: هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم، وروح منه، وابن العذراء البتول. فخفض النجاشي يده إلىٰ الأرض، وأخذ عودًا فقال: والله ما زاد ابن مريم علىٰ هذا وزن هذا العود(٢).

---

(١) الدرر في اختصار المغازي والسّير، لابن عبد البر (ص ١٣٢، ١٣٣).

(٢) السيرة النبوية، للحافظ الذهبي (ص ١٨٩)، ط: دار الكتاب العربي.

فصحة دلائل نبوة خاتم النبيين والمرسلين لا يخطئها منصف؛ قال تعالىٰ في شأن من آمن برسالة محمد ﷺ من أهل الكتاب: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٨٢ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ۝٨٣﴾ [المائدة: ٨٢-٨٣].

ودلائل نبوة نبينا محمد ﷺ ما زالت باقية أهمها القرآن، وبقاءه سببه وحكمته ظاهرة؛ لأنه الشرع الذي تعبّد الله به الخلائق إلىٰ يوم القيامة.

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «**ما من الأنبياء من نبيٍّ إلا وقد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**».

فهذا القرآن الناس يشاهدون في لفظه ومعانيه براهين التنزيل الإلهي له، وأنه ليس في استطاعة أحد من البشر أن يأتي بمثله، ويلاحظون في ألفاظه من القوة والفخامة وجزالة المعنىٰ ما يبرهن علىٰ أنه كلام رب العالمين، ويقرءون آياته فيقطعون بأنه وحي من الله؛ صدق في الأخبار، وعدل في الأحكام، وما أخبر فيه عن المغيبات كله حق وصدق، وتفاصيل ما أخبر به من صفة الجنة والنار وأهوال يوم القيامة لا يكون إلا ممن أوحاه الله إليه.

وما في هذا القرآن من العدل والخير في أوامره ونواهيه، ومن محتوىٰ الدعوة إلىٰ توحيد الله وطاعته من أعظم البراهين علىٰ أنه تنزيل من رب العالمين.

قال الحافظ البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «جعل الله القرآن دلالة على نبوته، أعجز الخلق عن الإتيان بمثله، أو مثل سورة من مثله، وأبقاه في أمته إلى قيام الساعة؛ ليكون حُجة على من جاء بعده ممن لم يره إلى يوم القيامة».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «القرآن آيته باقية على طول الزمان من حين جاء به الرسول، تتلى آيات التحدِّي به، ويُتلى قوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤]، ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [هود: ١٣]، و﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٣٨] ويُتلى قوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]؛ فنفس إخبار الرسول ﷺ بهذا في أول الأمر، وقطعه بذلك، مع علمه بكثرة الخلق، دليلٌ على أنَّه كان خارقًا يعجز الثقلين عن معارضته، وهذا لا يكون لغير الأنبياء.

ثم مع طول الزمان قد سمعه الموافق والمخالف، والعرب والعجم، وليس في الأمم من أظهر كتابًا يقرؤه الناس وقال: إنه مثله. وهذا يعرفه كل أحد.

وما من كلام تكلم به الناس، وإن كان في أعلى طبقات الكلام لفظًا ومعنًى، إلا وقد قال الناس نظيره وما يشبهه ويقاربه، سواء كان شعرًا أو خطابةً أو كلامًا في العلوم والحِكَمِ والاستدلال والوعظ والرسائل وغير

---

(١) شرح السنة (١٣/ ٣٥٥).

(٢) النبوات (١/ ٥١٥ - ٥١٧).

ذلك، وما وُجد من ذلك شيء إلَّا ووُجد ما يشبهه ويقاربه.

والقرآن ممَّا يعلم الناس - عربهم وعجمهم - أنَّه لم يوجد له نظير، مع حرص العرب وغير العرب على معارضته؛ فلفظه آية، ونظمه آية، وإخباره بالغيوب آية، وأمره ونهيه آية، ووعده ووعيده آية، وجلالته وعظمته وسلطانه على القلوب آية، وإذا ترجم بغير العربي كانت معانيه آية، كل ذلك لا يوجد له نظير في العالم».

فالقرآن لفظه ومعناه دال بلا ريب على أنه كتاب الله تنزيل من رب العالمين، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «القرآن هو أعظم الكتب السماوية، وقد تضمن من العلوم والحكم والمواعظ والقصص والترغيب والترهيب، وذكر أخبار من سبق، وأخبار ما يأتي، من البعث والنشور والجنة والنار؛ ما لم يشتمل عليه كتاب غيره، حتى قال بعض العلماء: لو أن هذا الكتاب وجد مكتوبًا في مصحف في فلاة من الأرض، ولم يُعلم من وضعه هناك، لشهدت العقول السليمة أنه منزّل من عند الله، وأن البشر لا قدرة لهم على تأليف ذلك، فكيف إذا جاء على يدي أصدق الخلق وأبرهم وأتقاهم، وقال: إنه كلام الله. وتحدى الخلق كلهم أن يأتوا بسورة من مثله، فعجزوا فيه، فكيف يبقى مع هذا شك فيه؟ ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ

---

(١) لطائف المعارف (ص ١٢٤).

أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٥١]؛ فلو لم يكن لمحمد ﷺ من المعجزات الدالة على صدقه غير هذا الكتاب لكفاه، فكيف وله من المعجزات الأرضية والسماوية ما لا يحصى؟».

والمقصود من ذكر فضائل القرآن وإعجازه هو التديّن به والتعبُّد لله بلزومه، وإقامة أحكامه، ولزوم أمره ونهيه، وتلاوته، والإيمان به، واتخاذه معيارًا في التمييز بين الحق والباطل؛ فهو فرقان، والاستضاءة بنوره يكون في كل شيء؛ في الاعتقاد، والاقتصاد، والأخلاق، والمعاملات، وهكذا في سائر الأمور، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أي: أعدل وأعلى؛ من العقائد، والأعمال، والأخلاق، فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن، كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أموره».

وما ضعف المسلمون إلا بضعف أخذهم بكتاب الله، فنبذوه وراء ظهورهم إلا من شاء الله، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «ترك الإيمان به وتصديقه من هجرانه، وترك تدبّره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به، وامتثال أوامره، واجتناب زواجره، من هجرانه، والعدولُ عنه إلى

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص ٤٢٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٨٤).

غيره - من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره - من هجرانه، فنسأل الله الكريمَ المنانَ القادرَ علىٰ ما يشاء، أن يخلّصنا مما يُسْخطه، ويستعملنا فيما يرضيه، من حفظ كتابه وفهمه، والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطرافَ النهار، علىٰ الوجه الذي يحبه ويرضاه، إنه كريم وهاب».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «والمسلمون الذين جاءهم كتاب الله القرآن، عدل كثير منهم ممن أضله الشيطان من المنتسبين إلىٰ الإسلام، إلىٰ أن نبذ كتاب الله وراء ظهره، واتّبع ما تتلوه الشياطين، فلا يُعظّم أمر القرآن ولا نهيه، ولا يوالي من أمر القرآن بموالاته، ولا يعادي من أمر القرآن بمعاداته».

ومن أسلم من أهل الكتاب أخبر بصفة النبي ﷺ المذكورة في كتبهم، قيل لعبد الله بن سلام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ - وهو من أحبار اليهود الذين أسلموا -: أخبرنا ببعض صفة رسول الله ﷺ في التوراة. فقال: إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وحرزًا للأمِّيِّين، أنت عبدي ورسولي، سَمَّيْتك المتوكِّل، لست بفظٍّ ولا غليظ، ولا سخَّاب بالأسواق، ولا تجزي بالسيئة السيئة، ولكن تجزي بالسيئة الحسنة، وتعفو وتغفر، ولن أقبضه حتىٰ أقيم به الملَّة العوجاء، فأفتح به أعينًا عُمْيًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غلفًا؛ بأن يقولوا:

---

(١) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ١٠٥٣).

لا إله إلا الله[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «فالأنبياء يُصدِّقُ متأخِّرُهم مُتقدمهم، ويُبشِّر متقدمهم بمتأخرهم؛ كما بَشَّرَ المسيح ومن قبله بمحمد، وكما صدَّق محمد ﷺ جميع النبيين قبله، ولهذا يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾ [النساء: ٤٧]، وقال: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، والأنبياء وأتباعهم كلهم مؤمنون، مسلمون يعبدون الله وحده بما أمر، ويُصدقون بجميع ما جاءت به الأنبياء.

ومن خالفهم لا يكون إلا مشركًا ومكذبًا ببعض ما أنزل الله».

ودعوة النبيين واحدة، لأن الذي اصطفاهم لتبليغ رسالات الله هو الله عَزَّوَجَلَّ، والله أرسل رسله بتوحيده وعبادته وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٤، ٢٥].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) النبوات (٢/ ١٠٨٨ - ١٠٩٠).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يقول تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْۖ﴾، أي: دليلكم على ما تقولون ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾ يعني: القرآن، ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِيۗ﴾؛ يعني: الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولون وتزعمون؛ فكل كتاب أُنزل على كل نبي أُرسل، ناطق بأنه لا إله إلا الله، ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق، فأنتم معرضون عنه؛ ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾، كما قال: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦]، فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفطرة شاهدة بذلك أيضًا، والمشركون لا برهان لهم، وحجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد».

والمنصفون من أهل الكتاب لما سمعوا دعوة النبي ﷺ أقروا بأن هذا دين الله حقًّا وآمنوا به، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣]، وغير المنصفين من أهل الكتاب كفروا عنادًا وكبرًا، مع

---

(١) تفسير القرآن العظيم (ص ٨٨٧).

علمهم بصدق نبوة نبينا محمد ﷺ؛ فإنه مذكور في كتبهم صفته ومحتوى دعوته، ودار هجرته، وصفة أصحابه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قال تعالى مخبرًا عن أهل الكتاب: إنهم يعرفون هذا الذي جئتهم به كما يعرفون أبناءهم، بما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدمين والأنبياء، فإن الرسل كلهم بَشَّروا بوجود محمد ﷺ ونعته، وصفته، وبلده، ومُهَاجَرِه، وصفة أمته».

وفي ذكر الله للنبيين - عليهم السلام - في القرآن، وذكر قصصهم، توكيد لصحة نبوة خاتمهم محمد ﷺ؛ قال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله من الشرع العظيم والأخبار الصادقة، ما أوحى إلى هؤلاء الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، وفي هذا عدة فوائد:

منها: أن محمدًا ﷺ ليس ببدع من الرسل، بل أرسل الله قبله من المرسلين العدد الكثير والجم الغفير؛ فاستغراب رسالته لا وجه له إلا الجهل والعناد.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (ص ٤٧٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص ٢١٣، ٢١٤).

ومنها: أنه أوحىٰ إليه كما أوحىٰ إليهم، من الأصول والعدل الذي اتفقوا عليه، وأن بعضهم يصدق بعضًا، ويوافق بعضهم بعضًا.

ومنها: أنه من جنس هؤلاء الرسل، فليعتبره المعتبر بإخوانه المرسلين، فدعوته دعوتهم، وأخلاقهم متفقة، ومصدرهم واحد، وغايتهم واحدة، فلم يقرنه بالمجهولين، ولا بالكذابين، ولا بالملوك الظالمين.

ومنها: أن في ذكر هؤلاء الرسل وتعدادهم من التنويه بهم، والثناء الصادق عليهم، وشرح أحوالهم، مما يزداد به المؤمن إيمانًا بهم، ومحبةً لهم، واقتداءً بهديهم، واستنانًا بسنتهم، ومعرفة بحقوقهم، ويكون ذلك مصداقًا لقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٠]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ١٣٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣١﴾ [الصافات: ١٣٠-١٣١]، فكل محسن له من الثناء الحسن بين الأنام بحسب إحسانه، والرسل - خصوصًا هؤلاء المسمين - في المرتبة العليا من الإحسان».

فالشهادتان: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ حقيقتهما أن لا يُعبد إلا الله وبإذن الله، كما شرع وأرسل به محمدًا رسول الله ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لا حرام إلا ما حرّمه الله ورسوله ﷺ، ولا دين إلا ما شرعه الله ورسوله ﷺ، ولهذا ذم الله المشركين

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٥٥٩، ٥٦٠).

في سورة الأنعام والأعراف وغيرهما؛ لكونهم حرّموا ما لم يحرمه الله، ولكونهم شرعوا دينًا لم يأذن به الله، كما في قوله تعالىٰ: ﴿**وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبًا**﴾ [الأنعام: ١٣٦]... إلىٰ آخر السورة، وما ذكره في صدر سورة الأعراف، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورىٰ: ١١]، وقد قال تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]؛ فأخبره أنه أرسله داعيًا إليه بإذنه؛ فمن دعا إلىٰ غير الله فقد أشرك، ومن دعا إليه بغير إذنه فقد ابتدع، **والشرك بدعة، والمبتدع يؤول إلىٰ الشرك، ولم يوجد مبتدع إلا وفيه نوع من الشرك**، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، وكان من إشراكهم بهم أنهم أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم، وحرّموا عليهم الحلال فأطاعوهم.

وقد قال تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]؛ فقرن بعدم إيمانهم بالله واليوم الآخر، أنهم لا يُحرمون ما حرَّم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق».

وطاعة الله والنبي ﷺ توجب محبة النبي ﷺ بوسطية، فلابد من الحذر من الغلو في النبي ﷺ وآل بيته من الاعتقادات الباطلة كغلو الرافضة في اعتقاد بعضهم الرجعة في علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال أبو محمد الحسن بن علي البربهاري رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «وبدعة ظهرت هي كفرٌ بالله العظيم، ومن قال بها فهو كافر بالله لا شك فيه؛ من يؤمن بالرجعة ويقول: علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيٌّ، وسيرجع قبل يوم القيامة. ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، وموسى بن جعفر، وتكلموا في الإمامة، وأنهم يعلمون الغيب؛ فاحذرهم؛ فإنهم كفارٌ بالله العظيم، ومن قال بهذا القول».

وسادات آل البيت المتقدمون كانوا ينكرون اعتقاد الرجعة في علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال عمرو بن الأصَم: قلت للحسن بن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إن هذه الشيعة يزعمون أن عليًّا مبعوث قبل يوم القيامة. فقال: كذبوا والله! ما هؤلاء بالشِّيعةِ، لو علمنا أنه مبعوثٌ ما زوَّجْنا نساءه، ولا قسمنا ماله[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «إنه عند قتل النبي وموته، تحصل فتنة عظيمة للناس؛ المؤمنين به والكافرين به، وتحصل ردة ونفاق - لضعف قلوب أتباعه - بموته، ولما يلقيه الشيطان في قلوب الكافرين: إن

(١) شرح السنة (ص ١٢٣ - رقم ١٦٢).

(٢) البداية والنهاية (١١/ ١٣٠).

(٣) الفتاوى العراقية (٢/ ١٠٦٢).

هذا قد انقضى أمره، وما بقي يقوم دينه، وإنه لو كان نبيًّا لما قُتل وغُلب. ونحو ذلك.

فأخبر الله تعالى أنه كم من نبي قُتل؛ فإن بني إسرائيل قتلوا كثيرًا من الأنبياء، والنبي ﴿مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ أتباع له، وقد يكون قتله في غير حرب ولا قتال؛ بل يُقتل وقد اتبعه ﴿رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ فما وهن المؤمنون ﴿لِمَآ أَصَابَهُمْ﴾ بقتله، ﴿وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ولكن استغفروا لذنوبهم التي بها تحصل المصائب؛ فما أصابهم من سيئة فمن أنفسهم، وسألوا الله أن يغفر لهم، وأن يُثبّت أقدامهم، فيثبتهم على الإيمان والجهاد، ولا ينكلوا عن الجهاد».

والناس في حب الأنبياء - عليهم السلام - والأولياء والصالحين ثلاثة أصناف: صنف غلوا في حبهم وأنزلوهم فوق منزلتهم؛ كغلو النصارى في عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حيث جعلوه إلهًا، وقالوا: إنه ثالث ثلاثة. وكالرافضة الذين غلوا في علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقالوا: إنه إله ويحيي ويميت. وصنف غلوا فيهم بغضًا؛ كاليهود الذين قتلوا رسل الله، وصنف وسط؛ أحبوهم من غير جفاء ولا غلو.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «والناس في معاملة الصالحين ثلاثة أقسام: أهل الجفاء الذين يهضمونه حقوقهم ولا يقومون

---

(١) القول السديد (ص ٦٨، ٦٩).

بحقهم من الحب والموالاة لهم والتوقير والتبجيل، وأهل الغلو الذين يرفعونهم فوق منزلتهم التي أنزلهم الله بها، وأهل الحق الذين يحبونهم ويوالونهم ويقومون بحقوقهم الحقيقية ولكنهم يبرؤون من الغلو فيهم وادِّعاء عصمتهم، والصالحون أيضًا يتبرءون من أن يدعوا لأنفسهم حقًّا من حقوق ربهم الخاصة، كما قال الله عن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ **قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ** ﴾ [المائدة: ١١٦].

واعلم أن الحقوق ثلاثة:

حقٌّ خالص لله لا يشاركه فيه مشارك، وهو التأله له، وعبادته وحده لا شريك له، والرغبة والإنابة إليه؛ حبًّا وخوفًا ورجاءً.

وحق خالص للرسل عليهم السلام: وهو توقيرهم وتبجيلهم والقيام بحقوقهم الخاصة.

وحق مشترك: وهو الإيمان بالله ورسله، وطاعة الله ورسله، ومحبة الله، ومحبة رسله عليهم السلام: ولكن هذه لله أصلًا، وللرسل تبعًا لحقِّ الله؛ فأهل الحق يعرفون الفرقان بين هذه الحقوق الثلاثة، فيقومون بعبودية الله، وإخلاص الدِّين له، ويقومون بحقِّ رسله وأوليائه، على اختلاف منازلهم ومراتبهم».

ولمّا كان في طبيعة بعض النفوس الغلو في الأنبياء - **عليهم السلام** -، وبذلك ضلّ النصارى، فإن الله قد هيّأ نفوس الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لوفاة نبينا ﷺ قبل قبضه بسنواتٍ طويلة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّ وقعة أحدٍ كانت مُقدِّمةً وإرهاصًا بين يدي موت رسول الله ﷺ فثبَّتهم ووبَّخهم على انقلابهم على أعقابهم؛ أن مات رسول الله ﷺ أو قُتل، بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيده ويموتوا عليه أو يُقتلوا؛ فإنهم إنما يعبدون رب محمد ﷺ، وهو حيٌّ لا يموت؛ فلو مات محمد أو قُتل لا ينبغي لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه وما جاء به؛ فكلُّ نفس ذائقة الموت، وما بُعث محمد ﷺ ليُخلَّد؛ لا هو ولا هم، بل ليموتوا على الإسلام والتوحيد؛ فإنَّ الموت لا بُدَّ منه، سواء مات رسول الله ﷺ أو بقي».

وعند الحديث عن وفاة الرسول ﷺ لا بد من التنبيه إلى ما وعظ به أحب الناس إليه أبو بكر الصدّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في وفاته، حيث قال: «من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حيٌّ لا يموت».

وهذا ما نبّه عليه الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذلك؛ فإنه قبل الحديث عن وفاة النبي ﷺ في سياق حديثه عن سيرة النبي ﷺ ودعوته، قال[٢]: «**تُوفِّي - صلاة الله وسلامه عليه -، ودينه باقٍ**».

قال تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٤].

(١) زاد المعاد (ص ٤٠٣).

(٢) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ٢٨).

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «يقول تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ﴾؛ أي: ليس ببدع من الرسل، بل هو من جنس الرسل الذين من قبله، وظيفتهم تبليغ رسالات ربهم، وتنفيذ أوامره، ليسوا بمخلدين، وليس بقاؤهم شرطًا في امتثال أوامر الله، بل الواجب على الأمم عبادة ربهم في كل وقت وبكل حال، ولهذا قال: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ﴾؛ بترك ما جاءكم من إيمان أو جهاد، أو غير ذلك.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ﴾ [آل عمران: ١٤٤] إنما يضر نفسه، وإلا فالله تعالى غني عنه، وسيقيم دينه، ويعز عباده المؤمنين، فلما وبّخ تعالى من انقلب على عقبيه، مدح من ثبت مع رسوله ﷺ، وامتثل أمر ربه، فقال: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، والشكر لا يكون إلا بالقيام بعبودية الله تعالى في كل حال.

وفي هذه الآية الكريمة إرشاد من الله تعالى لعباده، أن يكونوا بحالة لا يزعزعهم عن إيمانهم، أو عن بعض لوازمه، فقدُ رئيس، ولو عظم، وما ذاك إلا بالاستعداد في كل أمر من أمور الدين، بعدة أناس من أهل الكفاءة فيه، إذا فقد أحدهم قام به غيره، وأن يكون عموم المؤمنين قصدهم إقامة دين الله، والجهاد عنه، بحسب الإمكان، لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس[(٢)]،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص ١٣٣، ١٣٤).

(٢) بل لهم قصد في بقاء الرئيس الأقوم بشريعة الله، يحبون بقاءه؛ لما يُجري الله على يديه بسبب قيامه بالشريعة؛ من حفظ الدين، والقيام بمصالح الدنيا، على النحو الذي يحقق المقصود من =

فبهذه الحال يستتب لهم أمرهم، وتستقيم أمورهم.

وفي هذه الآية أيضًا أعظم دليل على فضيلة الصدّيق الأكبر أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله ﷺ؛ لأنهم هم سادات الشاكرين».

والمسلمون يعتقدون وفاة نبي الله محمد ﷺ، كلهم مجمعون على ذلك، وهكذا سائر النبيين - عليهم السلام - كلهم توفاهم الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]؛ يُستثنى من ذلك المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فإنه حيٌّ بروحه وجسده رفعه الله إليه وينزل إلى الأرض في آخر الزمان.

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملًا، بل أرسل إلينا رسولًا ﷺ، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار».

وقول الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن أطاعه دخل الجنة»، هذه بشارة بالجنة يوم الثواب في الدار الآخرة، وأهلها يجدون حقيقتها في الدنيا، فيأوون إليها كل يوم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في الدنيا جنَّة من لم يدخلها لن

=

الخلق والاستخلاف في الأرض.

(١) الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ٤، ٥).

يدخل جنة الآخرة».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «حياة الروح بحياة هذه الكلمة – لا إله إلا الله – فيها، كما أن حياة البدن بوجود الرُّوح فيه، وكما أنَّ من مات على هذه الكلمة؛ فهو في الجنة يتقلَّب فيها؛ **فمن عاش على تحقيقها والقيام بها؛ فروحه تتقلَّبُ في جنة المأوى، وعيشه أطيبُ عيشٍ**؛ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

فالجنة مأواه يوم اللقاء، وجنّة المعرفة والمحبة والأنس بالله، والشوق إلى لقائه، والفرح به، والرضا به عنه، مأوى روحه في هذه الدار، فمن كانت هذه الجنة مأواه هاهنا؛ كانت جنةُ الخلد مأواه يوم المعاد، ومن حُرم هذه الجنة؛ فهو لتلك الجنَّة أشدُّ حرمانًا.

والأبرار في النعيم وإن اشتدّ بهم العيش، وضاقت عليهم الدنيا، والفُجَّار في جحيم، وإن اتسعت عليهم الدنيا، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧]، وطيب الحياة جنَّة الدنيا، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فأي نعيم أطيب من شرح الصدر؟!

وأيُّ عذاب أمرُّ من ضيق الصدر؟!

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص ٢٣٦)، ط: دار السلام.

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٤]؛ فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشًا، وأنعمهم بالًا، وأشرحهم صدرًا، وأسرهم قلبًا، وهذه جنَّةٌ عاجلةٌ قبل الجنة الآجلة».

فالحاصل أن الدين كله في تحقيق الشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ، وهما الموجبتان لدخول الجنة، والنجاة من النار، وسعادة الدنيا والآخرة.

قال أبو حمزة البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «من علم الطريق إلىٰ الله سهل عليه سلوكه، ولا دليل علىٰ الطريق إلىٰ الله إلا متابعة الرسول ﷺ في أحواله وأقواله وأفعاله».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «طاعته ﷺ هي مناط السعادة والنجاة».



---

(١) الكلام علىٰ مسألة السماع (ص٢٧٨).

(٢) الرد علىٰ الأخنائي (ص١١٧).




البَابُ الثَّانِي

الإســـــلام






الإســـلام

وفي حديث جبريل شرَحَ النَّبيُّ ﷺ الإسلامَ بأنَّه الإيمان بالشَّهادتين: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمدًا رسول الله»، وتحقيقهما بإقامة أركان الإسلام، وهي: الصَّلاة، والزَّكاة، وصوم رمضان، والحجُّ.

شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله؛ هي الأساس الذي تقوم عليه الاعتقادات الصَّحيحة والأعمال الصَّالحة، فمن حقَّق الشَّهادتين كانت أعماله مقبولة، وأثمر توحيده وعلمه النَّافع كل عمل صالح، قال تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «هذا الأساس أمران: صحة المعرفة بالله وأمره وأسمائه وصفاته.

والثاني: تجريد الانقياد له - سبحانه - ولرسوله - ﷺ - دون ما سواه.

فهذا أوثق أساس أسَّس العبدُ عليه بنيانه، وبحسبه يعتلي البناء ما شاء».

أما من كان غير مخلص لله عَزَّوَجَلَّ في أعماله، ولا مُتَّبِع لرسول الله ﷺ

(١) الفوائد (ص٢٢٩).

في عباداته؛ فأساسه على غير رضوان الله، وعمله مردود.

قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝١٠٩﴾ [التوبة: ١٠٩]، وفي الصَّحيحين من حديث الفاروق عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله ﷺ: «**إنَّما الأعمال بالنيَّات، وإنَّما لكل امرئ ما نوىٰ**»، وفي الصَّحيحين من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، واللفظ لمسلم؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا؛ فهو ردٌّ**».

والشَّهادتان هما: توحيد الله باتِّباع رسوله محمد ﷺ، والشَّهادتان هما أوَّل ما يُخاطب به الخلق للدُّخول في الإسلام، وتحقيقهما هو حقيقة الدِّين كله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أوَّل الدِّين وآخره، وظاهره وباطنه؛ هو التَّوحيد، وإخلاص الدِّين كله هو تحقيق قول: لا إله إلا الله».

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنَّ أوَّل ما أوجبه الله على لسان رسوله ﷺ هو الإقرار بالشَّهادتين، كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن: «**إنَّك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أوَّل ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله**»، أخرجاه في الصحيحين».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٢٦٤).

(٢) الاستقامة (ص١٢١، ١٢٢).

وفي الصَّحيحين من حديث أبي هريرة وابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأنِّي رسول الله، فإذا فعلوا ذلك؛ عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم علىٰ الله**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «هذا مما اتَّفق عليه أئمَّة الدِّين، وعلماء المسلمين؛ فإنَّهم مجمعون علىٰ ما عُلم بالاضطرار من دين الرَّسول ﷺ؛ أنَّ كل كافر فإنَّه يُدعىٰ إلىٰ الشَّهادتين، سواء كان معطِّلًا أو مشركًا أو كتابيًّا، وبذلك يصير الكافر مسلمًا، ولا يصير مسلمًا بدون ذلك».

وشهادة أن لا إله إلا الله، ليست هي مجرد التكلُّم بها، ولا هي مجرد تصديق القلب بأن الله خالق السموات والأرض، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله ﷺ؛ بل هي معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علمًا، والتصديق به عقدًا، والإقرار به نُطقًا، والانقياد له محبَّةً وخضوعًا، والعمل به باطنًا وظاهرًا، وتنفيذه والدَّعوة إليه بحسب الإمكان.

قال تعالىٰ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «علىٰ العبد أن يعلم أنَّه لا إله إلا الله، فيحبه ويحمده لذاته وكماله، وأن يعلم أنَّه لا مُحسن علىٰ الحقيقة بأصناف النِّعم

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٧).

(٢) الفوائد (ص٢٦٦، ٢٦٧).

الظاهرة والباطنة إلا هو؛ فيحبه لإحسانه وإنعامه، ويحمده على ذلك؛ فيحبه من الوجهين جميعًا.

وكما أنَّه ليس كمثله شيء، فليس كمحبته محبة.

والمحبة مع الخضوع هي العبوديَّة التي خلق الخلق لأجلها، فإنَّها غاية الحب بغاية الذُّلِّ، ولا يصلح ذلك إلا له سبحانه، والإشراك به في هذا هو الشِّرك الذي لا يغفره الله، ولا يقبل لصاحبه عملًا».

وشهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله متلازمتان، وذلك أنَّ من شهد لله بالوحدانية لا يمكنه عبودية الله إلا باتِّباع رسوله محمد ﷺ الذي بيَّن صراط الله المستقيم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لم يتنازع المسلمون في أنَّ الرَّجل لو قال: أشهد أن لا إله إلا الله. ولم يقرَّ بأنَّ محمدًا رسول الله؛ أنَّه لم يكن مؤمنًا ولا مسلمًا، ولا يستحق إلا العذاب».

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الله قد جعل محبته موجبة لاتِّباع رسوله، فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، وهذا لأنَّ

---

(١) الاستقامة (ص٣٤٥).

(٢) تفسير ابن تيمية (٢/ ٦٠).

الرسول ﷺ هو الذي يدعو إلىٰ ما يحبه الله عَزَّوَجَلَّ، وليس شيء يحبه الله إلا والرسول يدعو إليه، وليس شيء يدعو إليه الرسول إلا والله يحبه، فصار محبوب الرب ومدعو الرسول متلازمين».

وضرورة كل مسلم إلىٰ اتِّباع صراط الله المستقيم معلومة، لذلك أمرنا الله أن ندعوه بالهداية إليه في كل صلاة وركعة ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «اقتضت الآية إثبات: الشَّرْع، والقدر، والمعاد، والنبوَّة؛ فإنَّ النِّعمة والغضب هو ثوابه وعقابه، فالمُنْعَم عليهم رسله وأتباعهم ليس إلا، وهداية أتباعهم إنَّما يكون علىٰ أيديهم، فاقتضت إثبات النبوَّة بأقرب طريق وأبينها وأدلِّها علىٰ عموم الحاجة وشدَّة الضَّرورة إليها، وأنَّه لا سبيل للعبد أن يكون من المُنْعَم عليهم إلا بهداية الله له، ولا تنال هذه الهداية إلا علىٰ أيدي الرُّسل، وأنَّ هذه الهداية لها ثمرة، وهي: النعمة التَّامَّة المطلقة في دار النَّعيم، ولخلافها ثمرة، وهي: الغضب المقتضي للشَّقاء الأبدي؛ فتأمَّل كيف اشتملت هذه الآية - مع وجازتها واختصارها - علىٰ أهمِّ مطالب الدِّين وأجلِّها، والله الهادي إلىٰ سواء السَّبيل».

شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله؛ هي إخلاص العبادة لله باتِّباع رسول الله، وذلك حقيقة الدين كله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٤٤٣).

قال العلامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «المتابعة لكتاب الله تعالىٰ وسنة رسوله ﷺ؛ هي حقيقة دين الإسلام الذي افترضه الله علىٰ الخاص والعام، وهو حقيقة الشهادتين الفارقتين بين المؤمنين والكفار، والسُّعداء أهل الجنة والأشقياء أهل النَّار؛ إذ معنىٰ الإله: هو المعبود المطاع».

وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٢٣].

قال العلامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «وبالجملة فلا يأله إلا الله، أي: لا يُعبد إلا هو، فمن قال هذه الكلمة عارفًا لمعناها، عاملًا بمقتضاها من نفي الشِّرك وإثبات الوحدانية لله مع الاعتقاد الجازم لما تضمَّنته من ذلك، والعمل به؛ فهذا هو المسلم حَقًّا».

وأشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ:

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «معنىٰ شهادة «أنَّ محمدًا رسول الله»، فهو الإقرار باللسان والإيمان بالقلب بأنَّ محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي رسول الله - عَزَّوَجَلَّ - إلىٰ جميع الخلق من الجن والإنس؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التَّوحيد (١/ ١١٨).

(٢) تيسير العزيز الحميد (١/ ٢١٥).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (١/ ٨١، ٨٢).

تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

ومقتضىٰ هذه الشهادة أن تصدق رسول الله ﷺ فيما أخبر، وأن تمتثل أمره فيما أمر، وأن تجتنب ما عنه نهىٰ وزجر، وأن لا تعبد الله إلا بما شرع، ومقتضىٰ هذه الشَّهادة أيضًا أن لا تعتقد أنَّ لرسول الله ﷺ حقًّا في الرُّبوبيَّة وتصريف الكون، أو حقًّا في العبادة، بل هو ﷺ عبد لا يُعبد، ورسول لا يكذب، ولا يملك لنفسه ولا لغيره شيئًا من النفع أو الضرِّ إلا ما شاء الله؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّى مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّۚ ﴾ [الأنعام: ٥٠]، فهو عبد مأمور يتبع ما أُمر به، وقال الله تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنِّى لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلۡ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الجن: ٢١، ٢٢]، وقال سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِى نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨]».

وحقيقة الدِّين كله في تحقيق الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله.

فتتغذَّىٰ قلوب الموحِّدين بالتألُّه لله عَزَّوَجَلَّ وحده، فتعبده باتباع رسوله محمد ﷺ الذي هدىٰ الله به الخلق إلىٰ الدلالة إلىٰ صراط الله المستقيم.

ومتىٰ هُدي الخلق إلىٰ العلم النافع والاعتقاد الصحيح، وعبدوا الله باتِّباع رسوله ﷺ؛ فقد استقاموا علىٰ شرع الله وأمره.

قال تعالى آمرًا نبيَّه محمدًا ﷺ أن يخاطب قومه قائلًا: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، وهو: ما كان موافقًا لشرع الله.

﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾، وهو الذي يُراد به وجه الله وحده لا شريك له.

وهذان ركنا العمل المُتقبَّل، لابُدَّ أن يكون خالصًا لله، صوابًا على شريعة رسول الله ﷺ».



(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ١٥٧).

وأركان الإسلام من الصلاة والزكاة والصوم والحج هي من حقوق كلمة التَّوحيد.

وفي اقتران الزكاة والصلاة مع التوحيد في نصوص القرآن، تنبيه إلىٰ حق الخالق بالتوحيد والانقياد بالطاعة، وأداء حق المخلوق في مصارف الزكاة، فإن الزكاة حق المال.

وفيه تنبيه إلىٰ قيام الأمة بالمال كقيامها بالتوحيد والصلاة، قال تعالىٰ: ﴿**وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا**﴾ [النساء: ٥]؛ فالأمة الضعيفة في دينها وعقيدتها واقتصادها يغزوها العدو ثقافيًّا وعقائديًّا واقتصاديًّا.

والأمة إذا كانت قويةً في عقيدتها؛ دفعت أفكار الملحدين وثقافات المضادين لعقيدة الإسلام، وكانت هي داعية للخلق، لا المغزوة ممن انحرف عن عقيدة المسلمين.

وإذا كانت الأمة قويةً في اقتصادها أقامت صناعاتها الحربية والمدنية، وشيّدت مؤسساتها التعليمية والصحية ومواصلاتها وإسكانها وزراعتها، ووفّرت الوظائف الكريمة لمواطنيها، وإذا كان اقتصادها ضعيفًا ضعفت عن بناء الدولة، وصارت في حاجة إلىٰ دول الكفر تُملي عليها شروطها في قروضها.

وبعض الشباب يُسيء فهم بعض النصوص، ويريد للأمة أن تكون فقيرة، كحديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**الدنيا ملعونة، معلون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، أو عالمًا أو مُتَعَلِّمًا**». رواه الترمذي وحسنه، والواجب علىٰ طالب العلم أن يضم النصوص بعضها إلىٰ بعض،

فالله عَزَّوَجَلَّ خلق الأرض وبارك فيها، قال تعالى: ﴿۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠﴾ [فصلت: ٩، ١٠].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أي جعلها مباركة، قابلة للخير، والبذر، والغراس، وقدّر فيها أقواتها، وهو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التي تُزرع وتُغرس».

وحديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال في معناه الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الدُّنيا وكُلُّ ما فيها ملعونة – أي: مُبعدة عن الله –؛ لأنها تُشغل عنه، إلا العلم النافع الدال على الله، وعلى معرفته، وطلب قُرْبه ورضاه، وذكر الله وما ورد مما يُقرِّب من الله، فهذا هو المقصودُ من الدُّنيا».

والمقصود: أن المسلم إذا أخذ المال من حله، وأنفقه في الوجوه المستحبة والمباحة، ولم يُشغله عن أداء واجبات ذكر الله والصلاة والعبادات، فهذا لا تُحرِّمه الشريعة.

قال الحافظ السخاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «فمن تكن الدُّنْيا في يديه، ويُؤَدِّ الحقوق منها، ويتطوَّع بالأمور المستحبة فيها، ولم تكن عائقةً له عن

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٠٧).

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ١٩٩).

(٣) السر المكتوم في الفرق بين الحالين المحمود والمذموم (ص ٨٨، ٨٩).

الوصول إلى الله تعالى، ولا لها في قلبه مزيَّةٌ، ولا يفخر بها - خصوصًا على من دونه - ولا يكن بما في يديه منها أوثق منه بما عند الله، بحيث يحبسها عمَّا شُرع له صرفها فيه؛ من التقتير على نفسه وعياله، وعدم إظهار نعمة الله عَزَّوَجَلَّ، ولا ينفقها في وجوه الباطل التي لم تُشرع، ولا يُبذِّر، يكن ذلك زيادةً له في الخير».

ومن أخص صفات الكفار والمشركين التي ذكرها الله عنهم الكفر ومنع الزكاة، قال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾ [فصلت: ٦، ٧]، وهذا تنبيه على صفات جامعة فيهم من الشرور، وهي: تضييع حق الله، وعدم أداء حق المخلوقين.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «دنّسوا أنفسهم، فلم يزكوها بتوحيد ربهم والإخلاص له، ولم يصلوا، ولا زّكوا، فلا إخلاص للخالق بالتوحيد والصلاة، ولا نفع للخلق بالزكاة وغيرها».

وتنصيص العلماء في متون العقيدة وتوكيدهم على شأن «الصلاة والزكاة»؛ لأن النصوص دلّت على ذلك، وللعناية بهما أكثر، مع رعاية سائر الأركان والفرائض، ولأن فيهما تنبيهًا لكل أنواع الحقوق؛ فالصلاة حق الله، والزكاة من حق الله الذي أمر به للمخلوقين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «بيَّن - أبو بكر الصدّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص ٧١١).

(٢) جواب الاعتراضات المصرية على الفتيا الحموية (ص ٧٧، ٧٨).

أن الحجة فيه[١] أيضًا بقوله: «**إلا بحقِّها**»؛ أي: لا تحلُّ دماؤهم وأموالهم إلا بحقّها؛ أي: لا تُباح لي بالباطل، بل بحقِّها، والزكاة هي من الحق الذي أوجبه الله عليهم، فأنا أقاتلهم على هذا الحق. ثم بيَّن بأنهم لو تركوا من الحق شيئًا قليلًا لقاتلهم عنه، فقال: والله لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ؛ لقاتلتهم على منعها.

وكلا الحديثين حقٌّ؛ فإن الكافر المحارب إذا نطق بالشهادتين حَرُمَ حينئذ قتاله، ثم بعد ذلك إن أقام الصلاة وآتى الزكاة وإلا قُوتل عليها، كما بيَّنه في الحديث الآخر.

ثم بعد ذلك إن تركوا شيئًا من حقّها، مثل أن يستحلُّوا الربا، أو يمتنعوا من تركه، أو نحو ذلك، كانوا قد حاربوا الله ورسوله، وقوتلوا أيضًا على ذلك.

وإنما هي مراتب؛ فالكلمتان رأس الإسلام من الكلام، والصلاة والزكاة هما رأس العمل؛ فتارةً يُذكر الأصل الذي هو الاعتقاد والكلام، وتارةً يُقرَن به الأصل الآخر من العمل والاقتصاد، ثم يُدرج سائر الدين الذي أمر الله تعالى بالقتال عليه؛ في قوله «**إلا بحقّها**»».

أمر الله عز وجل ورسوله ﷺ بهما جميعًا في نصوص كثيرة، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ

(١) القتال على منع الزكاة.

سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾، فقوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ هذا التوحيد، وقوله: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، هذا فيه ركنا الصلاة والزكاة، ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [التوبة: ٧١]، هذا دخل فيه كل أنواع الطاعات الظاهرة والباطنة، المفروضة والمستحبة.

وقال تعالىٰ في شأن النبيين جميعًا - عليهم السلام -، بعد أن ذكر قصة كل واحد منهم: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣] فقوله تعالىٰ: ﴿فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ هذا عامٌّ لكل خير، واجب ومستحبٍّ، وقوله: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾، هذا خاصٌّ بفريضتي الصَّلاة والزَّكاة؛ لأنَّهما أهمُّ وأوجب الخيرات في أداء حقِّ الله وحقِّ عباده، وقال تعالىٰ: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢].

فهذه صفة الراسخين في العلم: الإيمانُ بالله وبوحيه واتِّباعه، وإقامة الصَّلاة وأداء الزَّكاة، والإيمان باليوم الآخر، وهذا معناه كلّه مُضمّن في حديث جبريل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يقرن الله بين الصلاة والزكاة تارة وهي الإحسان إلىٰ الخلق، وبينها وبين الصبر تارة، ولا بد من الثلاثة:

---

(١) الفتاوىٰ العراقية (١/ ٢٨٣).

الصلاة والزكاة والصبر، لا تقوم مصلحة المؤمنين إلا بذلك، في صلاح نفوسهم وإصلاح غيرهم».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا السر في اقتران الأمر بالزكاة بالأمر بالصلاة[١]: «أمَّا الصَّلاة والزَّكاة فلهما شأن ليس لسائر الفرائض، ولهذا ذكر الله تعالىٰ في كتابه القتال عليهما؛ لأنَّهما عبادتان ظاهرتان؛ بخلاف الصَّوم؛ فإنَّه أمر باطن، وهو ممَّا ائتُمن النَّاس عليه؛ فهو من جنس الوضوء والاغتسال من الجنابة ونحو ذلك، ممَّا يؤتمن عليه العبد؛ فإنَّ الإنسان يمكنه ألَّا ينوي الصَّوم، وأن يأكل سرًّا، كما يمكنه أن يكتم حدثه وجنابته.

وأمَّا الصَّلاة والزَّكاة فأمر ظاهر، لا يمكن الإنسان بين المؤمنين أن يمتنع من ذلك، وهو ﷺ يذكر في الإسلام الأعمال الظَّاهرة الَّتي يقاتل عليها النَّاس، ويصيرون مسلمين بفعلها، فلهذا علَّق ذلك بالصَّلاة والزَّكاة دون الصِّيام، وإن كان الصَّوم واجبًا، كما في آيتي براءة؛ فإنَّ براءة نزلت بعد فرض الصِّيام باتِّفاق النَّاس.

وكذلك لمَّا بعث معاذ بن جبل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إلىٰ اليمن قال له: [**إنَّك تأتي قومًا أهل كتاب؛ فليكن أوَّل ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلَّا الله، وأنِّي رسول الله فإن هم أجابوك لذلك، فأعلمهم أنَّ الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم واللَّيلة، فإن هم أطاعوك بذلك، فأعلمهم أنَّ الله افترض**

(١) شرح حديث جبريل (ص ٥٤٩ - ٥٥١).

عليهم صدقةً تؤخذ من أغنيائهم، فتردُّ في فقرائهم، فإن هم أطاعوا بذلك لك فإيَّاك وكرائم أموالهم، واتَّق دعوة المظلوم؛ فإنَّه ليس بينها وبين الله حجاب]. أخرجاه في الصَّحيحين.

ومعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أرسله إلى اليمن في آخر الأمر بعد فرض الصِّيام، بل بعد فتح مكَّة، بل بعد تبوك، وبعد فرض الحجِّ والجزية؛ فإنَّ النَّبيَّ ﷺ مات ومعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ باليمن، وإنَّما قدم المدينة بعد موته، ولم يذكر في الحديث الصِّيام؛ لأنَّه تبع، وهو باطن، ولا ذكر الحجَّ؛ لأنَّ وجوبه خاصٌّ وليس بعامٍّ، وهو لا يجب في العمر إلَّا مرَّةً».

والصدقة المفروضة والنافلة قال فيها النبي ﷺ: «**الصدقة برهان**»، رواه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «وأمّا الصدقة فهي برهان، والبرهان هو: الشُّعاعُ الذي يلي وجهَ الشَّمس، ومنه حديثُ أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أنَّ روحَ المؤمن تخرُج مِنْ جسده لها برهان كبرهانِ الشَّمس**»، ومنه سُمِّيَت الحُجَّةُ القاطعةُ برهانًا؛ لوضوح دلالتها على ما دلَّت عليه، فكذلك الصدقة برهان على صحة الإيمان، وطيب النفس بها علامة على وجود حلاوة الإيمان وطعمه، كما في حديث عبد الله بن معاوية الغاضِري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبيِّ ﷺ: «**ثلاث من فعلهن فقد طَعِمَ طَعْمَ الإيمان: مَنْ عَبَدَ الله وحدَه، وأنَّه لا إله إلا**

(١) جامع العلوم والحكم (ص ٤١٢، ٤١٣).

الله، وأدَّىٰ زكاةَ ماله طيِّبَةً بها نفسُه، رافِدةً عليه في كُلِّ عامٍ». وذكر الحديثَ؛ خرَّجه أبو داود.

وقد ذكرنا قريبًا حديث أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فيمن أدىٰ زكاة ماله طيبةً بها نفسه، قال: وكان يقول: «**لا يفعلُ ذلك إلا مؤمن**».

وسبب هذا أنَّ المالَ تحبُّه النُّفوسُ، وتبخَلُ به، فإذا سمحت بإخراجه لله عَزَّوَجَلَّ دلَّ علىٰ صحَّة إيمانها بالله ووعده ووعيده، ولهذا منعت العربُ الزكاة بعدَ النَّبيِّ ﷺ، وقاتلهم الصدِّيقُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ علىٰ منعها، والصلاةُ أيضًا برهانٌ علىٰ صحة الإسلام».

والله عَزَّوَجَلَّ له خزائن السموات والأرض، استخلف عبيده في هذا المال، وجعله سببًا في قضاء حوائجهم والاستعانة به علىٰ طاعة الله، وسد خلة المحتاجين، وقضاء حوائج الفقراء والمساكين، ونصرة الدين؛ ببذله في سبيل الله؛ ببناء المساجد، وطباعة الكتب النافعة، والجهاد في سبيل الله، وغيرها.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُٱللَّهُ(١): «المال لمن استعان به علىٰ طاعة الله، وأنفقه في سبل الخيرات، والقربة إلىٰ الله تعالىٰ سبب مُوصل له إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ. وهي لمن أنفقه في معاصي الله واستعان به علىٰ نيل أغراضه المحرمة، أو اشتغل به عن طاعة الله، سبب قاطع له عن الله، كما قال أبو سليمان الداراني: الدنيا حجاب عن الله لأعدائه، ومطية موصلة إليه

(١) لطائف المعارف (ص ٣٣٦، ٣٣٧).

لأوليائه؛ فسبحان من جعل شيئًا واحدًا سببًا للاتصال به والانقطاع عنه.

وقد مدح الله في كتابه القسم الأول، وذم القسم الثاني، فقال في مدح الأولين: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠]، والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًّا.

وقال في ذم الآخرين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون: ٩، ١٠]. وقد قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ليس أحد لا يؤتي زكاة ماله، إلا سأل الرجعة عند الموت. ثم تلا هذه الآية.

وأخبر الله عن أهل النار الذين يؤتى أحدهم كتابه بشماله أنه يقول: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩]. والأحاديث في مدح من أنفق ماله في سبل الطاعات، وفي ذم من لم يؤدِّ حق الله منه كثيرة جدًّا، وقد قال النبي ﷺ: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**». وقال: «**الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة، إلا من قال بالمال هكذا وهكذا، عن يمينه، وعن شماله، ومن بين يديه، ومن خلفه، وقليل ما هم**». وقال ﷺ:

«إن هذا المال خضرة حلوة؛ فمن أخذه بحقه، ووضعه في حقه، فنعم المعونة هو، وإن أخذه بغير حقه، كان كالذي يأكل ولا يشبع».

فالمؤمن الذي يأخذ المال من حقه، ويضعه في حقه، فله أجر ذلك كله، وكلما أنفق منه يبتغي به وجه الله، فهو له صدقة يؤجر عليها، حتى ما يُطعم نفسه فهو له صدقة، وما يُطعم ولده فهو له صدقة، وما يطعم أهله فهو له صدقة، وما يطعم خادمه فهو له صدقة، وكان عامة أهل الأموال من أصحاب النبي ﷺ من هذا القسم.

قال أبو سليمان: كان عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا خازنين من خزان الله في أرضه، ينفقان في طاعته، وكانت معاملتهم الله بقلوبهما، ورأس المنفقين أموالهم في سبيل الله من هذه الأمة أبو بكر الصدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».

فالنفقة وإن كانت تسد حاجة أو تدفع ضرورة، فإنه ينبغي أن يلاحظ العبد أن عائدتها إليه؛ فهي تُزكيه من الشحِّ، وتنمي ماله، وتحفظه من الآفات، وتطهّره مما قد يكون أصابه من غبار الربا أو المكاسب المحرّمة، وأعظم من هذا كله أنها وقاية له من النار، وهذا المعنى نبّه عليه النبي ﷺ فقال: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**». رواه البخاري ومسلم من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال النبي ﷺ: «**يا معشر النساء تصدّقن وأكثرن الاستغفار؛ فإني رأيتكن أكثر أهل النار**». متفق عليه.

وهذا تجده صريحًا في قول النبي ﷺ: «**الصدقة تطفيء غضب الرب،**

كما تُطفيء الماء النار». رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح. وفي حديث حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**فتنة الرجل في أهله، وماله، وولده، وجاره، يُكفِّرها الصيام، والصلاة، والصدقة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر**». متفق عليه.

والصدقة تظل صاحبها في عرصات يوم القيامة عندما تقترب الشمس من الخلائق مقدار ميل، والصدقة تقي مصارع السوء فإنها من أعظم صنائع المعروف، والصدقة تزيد في العمر فإنها من أعظم أنواع البرّ، وأهم من هذا كله أن العبد يؤدي حق الله في المال، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

فالسعيد من قدّم لنفسه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وأن يجعل من ماله سببًا لتجارة الآخرة، وهي تجارة رابحة بكل حال؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

وفوق هذا كله معنًى أحرىٰ باستحضاره، وهو التعبد لله بالصدقة، والمسارعة إلىٰ فعل الخيرات، وهذا ما لحظه فقراء المهاجرين؛ فإنهم قالوا للنبي ﷺ: ذهب أهل الدثور بالأجور؛ يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدّقون ولا نتصدّق، ويُعتقون ولا نُعتق. رواه مسلم.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من أشنع الأخلاق الرذيلة

---

(١) تيسير اللطيف المنّان (ص ٦٢، ٦٣).

البخل، والزكاة تطهره من هذا الخلق الرذيل، ويتصف صاحبها بالرحمة والإحسان، والشفقة على الخلق، وتُطهّر المال من الأوساخ والآفات، فإن للأموال آفات مثل آفات الأبدان، وأعظم آفاتها أن تخالطها الأموال المحرمة؛ فهي للأموال مثل الجرب تسحته، وتُحل به النكبات والنوائب المزعجة، فإخراج الزكاة تطهير له من هذه الآفة المانعة له من البركة والنماء، فيستعد بذلك للنماء والبركة، وتوجيهه للأمور النافعة، وأما قوله: ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]؛ فالزكاة هي النماء والزيادة، فهي تنمي المؤتي للزكاة، تنمي أخلاقه، وتحل البركة في أعماله، ويزداد بالزكاة ترقيًا في مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم؛ وتنمي المال بزوال ما به ضرره وحصول ما فيه خيره، وتحل فيه البركة من الله.

ولهذا قال النبي ﷺ: «**ما نقصت صدقةٌ من مال**». بل تزيده، وتُنمي أيضًا المخرج إليه، فتسد حاجته، وتقوم المصلحة الدينية التي تُصرف فيها الزكاة، كالجهاد والعلم والإصلاح بين الناس والتأليف ونحوها، وأيضًا تدفع عادية الفقر والفقراء؛ فإن أرباب الأموال إذا احتكروها واحتجزوها، ولم يؤدوا منها شيئًا للفقراء، اضطر الفقراء، وهم جمهور الخلق، وثاروا بالشر والفساد على أرباب الأموال، وبهذا ونحوه تسلطت البلاشفة على الخلق؛ فالقيام بالدين الإسلامي على وجهه بعقائده وحقائقه وأخلاقه وأداء حقوقه؛ هو السد المانع شرعًا وقدرًا لهذه الطائفة التي بها فساد الأديان والدنيا والآخرة».

فالمال لمن وفقه الله في بذله في مرضاته باب عظيم من أبواب الجهاد في سبيل الله وفي نفع الإسلام ونشر دين الله بالوسائل المهمّة من طباعة الكتب واستخدام الوسائل الحديثة الإعلامية بحيث تصل دعوة الإسلام لأقطار الدنيا، وفي سد حاجة المسلمين من علاج مريضهم وإطعام جائعهم ورعاية أراملهم وأيتامهم وتعليمهم وتحفيظهم القرآن، وغيره من أبواب الخير العظيمة، فمن أطلق الذم للمال فقد أخطأ.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «حبُّ المال - كذلك - تارةً يكون للفخر والخيلاء والتكبُّر على الضعفاء، والتجبُّر على الفقراء، فهذا مذموم، وتارةً يكون للنفقة في القربات ، وصلة الأرحام، والقرابات، ووجوه البر والطاعات، فهذا ممدوح محمودٌ عليه شرعًا».



(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٩٤)، ط - مؤسسة الرسالة ناشرون.

الصلاة هي أعظم العبادات التي يقيم بها المسلمون توحيد الله؛ فتحيا قلوبهم بذكر الله، وتأنس نفوسهم وتبتهج بمناجاة الله، ويتزوَّد منها المسلمون في يومهم وليلتهم خمس مرات؛ لتعتدل أحوالهم وتستقيم أمورهم؛ فيصبحوا مصلِّين، ويمسوا مصلِّين، وقد أذهبوا عن قلوبهم وأبدانهم أثقال الذنوب، وغسلوا أدران المعاصي، خاضعين لله، حنفاء غير مشركين به، منيبين إليه في كل صلاة، أوَّابين في أول النَّهار، وأوسطه، وآخره، وأول الليل بعد غروب الشمس، وأوسطه.

شرع الله الصلاة في: أول النهار، وأوسطه، وآخره، وبعد غروب الشمس، وفي الليل؛ ليكون عباده من الذاكرين لا من الغافلين، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤].

الصلاة مناجاة بين العبد وربِّه، فإذا قال المصلِّي: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ [الفاتحة: ٢]؛ قال الله: حمدني عبدي. فإذا قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾ [الفاتحة: ٣]؛ قال الله: أثنى عليَّ عبدي. فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]؛ قال الله: مَجَّدني عبدي. فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ قال الله: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]؛ قال الله: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل»؛ رواه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ فيما رواه عن ربِّه.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «مناجاة الرَّبِّ جَلَّجَلَالُهُ أرفع درجات العبد».

عهد الله إلينا بإقامة فرائض الصلاة، وجعل ثواب من حافظ عليهن دخول الجنة، عن عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خمس صلوات كتبهن الله علىٰ العباد في اليوم والليلة، من حافظ عليهنَّ كان له عهد عند الله أن يدخله الجنة، ومن لم يحافظ عليهنَّ؛ فليس له عند الله عهد أن يدخله الجنة؛ إن شاء عذَّبه، وإن شاء غفر له**»، رواه أحمد.

وعن أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **أنَّ رسول الله** ﷺ **قال:** «**من صلىٰ البردين دخل الجنة**» متَّفق عليه.

وقال النبيُّ ﷺ: «**من غدا إلىٰ المسجد أو راح أعدَّ الله له في الجنة نزلًا كلما غدا أو راح**»، رواه البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وعن أبي أمامة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**صلاة في أثر صلاة، لا لغو بينهما؛ كتاب في علِّيِّين**»، رواه أحمد وأبو داود.

وقال داود بن أبي هند عن سعيد بن جبير، أنَّه تلا هذه الآية: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ حتىٰ بلغ: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦]؛ قال: يُدْخِلَهم الجنة؛ فإنَّها لم تتمَّ نعمة الله علىٰ عبْدٍ حتىٰ يُدْخِلَهُ الجنَّة[٢].

الصلاة أعظم مقام يتألَّه فيه المسلم لربِّه؛ فيدعوه رغبًا ورهبًا، ويسجد

---

(١) فتح الباري (٢/ ١٤).

(٢) رواه عبد الله بن وهب في جامعه (١/ ٢٦ – رقم ٥٧)، بإسناد صحيح.

له تذلُّلًا وخضوعًا، ويقوم بين يديه صامدًا إليه لكماله وعظمته؛ إجلالًا له ومحبَّة وخشية.

ما يحصل في قلب المصلي وجوارحه من الإخبات لله والإقبال عليه، والخشية والرهبة والرغبة إليه، والتألُّه له بعبوديته في كل مقامات الصلاة وهيئاتها وأذكارها؛ من أعظم ما يكون من توحيد الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إقامة الصلاة لذكره من أجل عبادته».

والصلاة من أعظم ما يكون من أسباب تزكية المُصلِّي بالإخلاص لله وحده لا شريك له، وقد أُمر المسلم بالإخلاص لله في إقامتها، فإذا أقامها خالصةً لله صوابًا؛ كان ذلك عونًا له على إخلاصه في سائر أعماله.

﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

قال العلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «من أخلص في صلاته ونسكه؛ استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله».

المسلم يدعو الله وحده في صلاته، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ [الجن: ١٨]، فإذا تحقَّق بذلك عَبَد الله ودعاه وحده مخلصًا له الدين، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ١٧٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان (ص٢٨٧).

﴿وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، فحنيفية التوحيد إقامة الإسلام، وعموده الصلاة.

وقال النبيُّ ﷺ: «**الصلاة نور**»، رواه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ فهي نور للقلوب والبصائر، تنفسح بها الصدور، وهي أفضل الذكر، وتكون نورًا للمصلِّين في قبورهم وفي مرورهم على الصراط، وهي نورٌ لوجوههم في الدنيا؛ فالمصلُّون حسنت وجوههم وأشرقت نورًا لصلاتهم وسجودهم لمولاهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أصل صلاح القلب هو حياته واستنارته، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، لذلك ذكر الله حياة القلوب ونورها».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنَّ الذِّكْر نور للذاكر في الدنيا، ونور له في قبره، ونور له في معاده، يسعى بين يديه على الصراط؛ فما استنارت القلوب والقبور بمثل ذكر الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]».

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «هي - الصلاة - للمؤمنين

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٠٠).

(٢) الوابل الصيِّب (ص١١٤).

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢١).

في الدنيا نورٌ في قلوبهم وبصائرهم، تُشرق بها قلوبهم، وتستنير بها بصائرهم، ولهذا كانت قرَّة عين المتقين؛ كما كان النبيُّ ﷺ يقول: «**جُعلت قُرَّة عيني في الصلاة**»، خرَّجه أحمد والنسائي».

وقال الحافظ ابن رجب(١): «هي نور للمؤمنين في قبورهم، ولا سيَّما صلاة الليل؛ كما قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: صلُّوا ركعتين في ظلم الليل لظلمة القبور».

ونصوص القرآن والسنَّة في الأمر بإقامة الصلاة والمحافظة عليها، وتعظيم شأنها، والاهتمام بها، وتفخيم أمرها؛ يقطع معه المسلم بأنَّها عمود الإسلام وآكد أركانه بعد التوحيد، وأهم فرائضه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «إنَّ الصلاة هي أعرف المعروف من الأعمال، وهي عمود الإسلام، وأعظم شرائعه، وهي قرينة الشهادتين، وإنما فرضها الله ليلة المعراج، وخاطب بها الرسول ﷺ بلا واسطة، لم يبعث بها رسولًا من الملائكة، وهي آخر ما وصَّى به النبيُّ ﷺ أمَّته، وهي المخصوصة بالذكر في كتاب الله تخصيصًا بعد تعميم؛ كقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، وقوله: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٢).

(٢) الفتاوى العراقية (١/ ٣٧٥، ٣٧٦).

وهي المقرونة بالصَّبر وبالزَّكاة وبالنُّسك وبالجهاد في مواضع من كتاب الله؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقوله: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ [الأنعام: ١٦٢]، وقوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡ﴾ [النساء: ١٠٢]».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّها - الصلاة - أكثر الفروض ذكرًا في القرآن».

التوحيد والصلاة أساس الإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]، قال العلَّامة أبو عبد الله محمد بن نصر المروزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «شهد الله بالإيمان لمن أقام الصَّلاة لربِّه».

والصلاة من أول فرائض الإسلام تشريعًا وفرضًا، وقد كان النبيُّ ﷺ يأمر بالدعوة إليها أولًا بعد التوحيد، وسمَّاها الله إيمانًا؛ لأنها عمود الإسلام.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «الصلاة أول أعمال الإسلام، وأصل أعمال الإيمان، ولهذا سمَّاها إيمانًا في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ أي: صلاتكم إلىٰ بيت المقدس».

---

(١) الصلاة (ص٣١).

(٢) تعظيم قدر الصلاة (ص٢٣١).

(٣) الفتاوىٰ العراقية (١/ ٤٦٨).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّ الصلاة قد اختُصَّت من سائر الأعمال بخصائص ليست لغيرها؛ فهي أوَّل ما فرض الله من الإسلام، ولهذا أمر النبيُّ ﷺ نوابه ورسله أن يبدءوا بالدعوة إليها بعد الشهادتين، فقال لمعاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**ستأتي قومًا أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله - ﷺ -، وأن الله فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة**». ولأنها أول ما يحاسب عليها العبد من عمله».

نعت النبي ﷺ والصحابة إقامة الصلاة، قال تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقالت الملائكة لربنا في أحوال عباد الله وهم يرفعون أعمالهم في اليوم والليلة: «**أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون**»، متفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

التوحيد بإقامة الصلاة أساس قبول الأعمال، فالصلاة أول ما يُنظر من أعمال المسلم؛ إن صحَّت وقبلت، قُبلت سائر أعماله.

قال النبي ﷺ: «**إنَّ أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته؛ فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انْتُقِصَ من فريضته شيء؛ قال الربُّ** عَزَّوَجَلَّ: **انظروا هل لعبدي من تطوُّع؛ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله علىٰ ذلك**»، رواه أحمد

---

(١) الصلاة (ص٣١).

والنسائي وأبو داود.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنَّها أساس العمل وأوله».

وقال ابن القيم[٢]: «إنَّ قبول سائر الأعمال موقوف على فعلها؛ فلا يقبل الله من تاركها صومًا، ولا حجًّا، ولا صدقة، ولا جهادًا، ولا شيئًا من الأعمال».

الصلاة عمود الدين، ومعنى ذلك أنَّ أعمال الإسلام تتأسَّس عليه، فمن صلى وصحَّت صلاته؛ صحَّ سائر عمله بشروطها، ومن لم يصلِّ؛ لم يقبل الله منه صيامًا ولا زكاة ولا حجًّا.

قال عطاء الخراساني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «الصلوات الخمس عمود الدِّين، لا يقبل الله الإيمان إلَّا بالصلاة، والزكاة طهور من الذنوب، ولا يقبل الله الإيمان ولا الصلاة إلا بالزكاة، فمن فعل هؤلاء، ثم جاء رمضان فترك صيامه متعمدًا؛ لم يقبل الله منه الإيمان ولا الصلاة ولا الزكاة.

فمن فعل هؤلاء الأربع، ثم تيسَّر له الحجُّ، فلم يحجَّ ولم يوص بحجِّه، ولم يحجَّ عنه بعض أهله؛ لم يقبل الله منه الأربع التي قبلها».

والصلاة فرضها على ما استقرت عليه من خمس صلوات في اليوم والليلة كان في ليلة المعراج، مع أنها كانت مشروعة قبل ذلك في مكة.

---

(١) زاد المعاد (ص٣٢٢).

(٢) الصَّلاة (ص٣٢).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ١٤٩، ١٥٠).

والبخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صحيحه في كتاب الصلاة، أول باب بدأ فيه هو باب [كيف فُرضت الصلوات في الإسراء]، وساق حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وفيه أن النبي ﷺ قال: «**ففرض الله علىٰ أُمَّتي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتىٰ مررت علىٰ موسىٰ فقال: ما فرض الله لك علىٰ أُمَّتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة. قال: فارجع إلىٰ ربِّك؛ فإن أُمَّتك لا تطيق ذلك. فراجعت فوضع شطرها، فرجعت إلىٰ موسىٰ، قلت: وضع شطرها. فقال: ارجع إلىٰ ربِّك؛ فإنَّ أُمَّتك لا تطيق ذلك. فراجعته، فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يُبدَّلُ القول لدي**».

ويُضم إلىٰ حديث الإسراء - لمعرفة التطور في تشريع الصلاة وما استقرت عليه - ما رواه مسلم في صحيحه من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين في الحضر والسفر، فأُقرَّت صلاة السَّفَرِ، وزيد في صلاة الحضر. وفي رواية معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: فُرضت الصلاة ركعتين، ثم هاجر النبي ﷺ ففُرضت أربعًا، وتُركت صلاة السفر علىٰ الأولىٰ.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لم يزل - النبي ﷺ - يصلِّي - أيضًا - قبل أن تُفرض الصلاة، وأول ما نزل عليه سورة: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]، وفي آخرها ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠﴾، إلىٰ قوله:

(١) فتح الباري (٢/ ٣٠٣، ٣٠٤).

﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق: ٩-١٩]. وقد نزلت هذه الآيات بسبب قول أبي جهل: لئن رأيت محمدًا ساجدًا عند البيت لأطأنَّ على عنقه.

وقد خرَّج هذا الحديث مسلم في صحيحه، وقد ذكرنا في أول كتاب الوضوء حديث أسامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن جبريل نزل على النبي ﷺ في أول الأمر، فعلَّمه الوضوء والصَّلاة.

وذكر ابن إسحاق أن الصَّلاة فُرضت عليه حينئذ، وكان هو ﷺ وخديجة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا يُصلِّيان، والمراد جنس الصلاة لا الصلوات الخمس.

والأحاديث الدالة على أن النبي ﷺ كان يُصلِّي بمكة قبل الإسراء كثيرة، لكن قد قيل: إنه كان قد فُرض عليه ركعتان في أول النهار، وركعتان في آخره، ثم افتُرضت عليه الصلوات الخمس ليلة الإسراء. قاله مقاتل، وغيره.

وقال قتادة: كان بدو الصَّلاة ركعتين بالغداة وركعتين بالعشيِّ.

وإنما أراد هؤلاء أن ذلك كان فرضًا قبل افتراض الصلوات الخمس ليلة الإسراء».

وفي تخصيص الصلاة دون سائر أركان الإسلام وواجباته وشعائره بالفرض في السماء ليلة معراج النبي ﷺ؛ تفخيم إلهي وتعظيم لشأن الصلاة.

ومن أعظم الأدلة بيانًا لعظم شأن الصلاة أن الله يباهي بملائكته في سجودهم، الذي هو أفضل هيئات المصلي عبودية لله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

ومن أوضح الأدلة دلالةً في تعظيم شأن الصلاة، أن الله افترضها على

جميع النبيين عليهم السلام، فبعد أن ذكر الله مقامات أنبيائه عليهم السلام، قال سبحانه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (٥٨)﴾ [مريم: ٥٨].

قال العلامة محمد بن نصر المروزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أخبر عن جميع الأنبياء أن مفزعهم كان إلىٰ الصلاة يعبدون الله، ويتقربون إليه بها».

وفي حديث الإسراء أن النبي ﷺ بعد عروجه إلىٰ السماء ونزوله إلىٰ الأرض انتهىٰ إلىٰ بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ في نفر من الأنبياء قد جُمعوا له، فصلىٰ بهم.

ومن أعظم ما يكون من تعظيم قدر الصلاة أنها أخص ما ترفعه الملائكة إلىٰ ربها من أعمال العباد، وتنوّه بذكره أولًا قبل سائر الواجبات والطاعات؛ ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرجُ الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم – وهو أعلم بهم –: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يُصلُّون، وأتيناهم وهم يُصَلُّون**».

ومن أقوىٰ النصوص دلالةً علىٰ عظم قدر الصلاة اصطفاء الله خاصة ملائكته المقربين جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للصلاة بالنبي ﷺ، لبيان صفتها

(١) تعظيم قدر الصلاة (١/ ١١٣).

ومواقيتها؛ تعليمًا وبيانًا للأمة كافة.

ففي الصحيحين من حديث أبي مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**نزل جبريل فأمَّني فصلَّيت معه، ثم صلَّيت معه، ثم صلَّيتُ معه، ثم صلَّيتُ معه، ثمَّ صلَّيتُ معه**».

ومن أعظم الأدلة بيانًا لعظم قدر الصلاة أن العبد يؤدي بها حق الله عن كل عضو من أعضاء بدنه، وليس ذلك إلا للصلاة؛ فالنبي ﷺ ذكر أن في ابن آدم ستين وثلاثمائة مفصل، وقال أيضًا: «**يُصبح علىٰ كل سلامىٰ من أحدكم صدقة، ويُجزئ عن ذلك ركعتان يركعهما من الضحىٰ**»، رواه البخاري.

ومن أعظم الأدلة بيانًا لعظم قدر الصلاة أن الله يكون قبل وجه العبد إذا قام يصلي، فقد روىٰ البخاري في صحيحه من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ أن النبي ﷺ قال: «**إذا قام أحدكم يُصلي، فإن الله قبل وجهه**».

ومن أوضح الأدلة في بيان عظم قدر الصلاة أن الله يناجي عبده إذا قام يصلي، «**فإذا قال: الحمد لله رب العالمين. قال الله: حمدني عبدي. فإذا قال: الرحمن الرحيم. قال الله: أثنىٰ عليّ عبدي. فإذا قال: مالك يوم الدين. قال الله: مجدني عبدي. فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين. قال الله: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل**».

فالصلاة شعار المؤمنين الموحدين، قال النبي ﷺ: «**من صلّىٰ صلاتنا واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا؛ فذلك المسلم**»، رواه البخاري.

والصلاة قرة عين خاصة أولياء الله المتقين، قال النبي ﷺ: «**وجُعلت**

قرة عيني في الصلاة»، رواه أحمد والنسائي.

والصلاة تُقوّي الإيمان وتُثبّته وتزيده؛ من أداها كما أمر الله أورثته الإقبال على الله في سائر الطاعات، ونهته عن المعاصي والمنكرات.

قال العلامة المجدّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنها أعظم عبادة يحصل فيها الخضوع والذل لله، وامتلاء القلب من الإيمان به وتعظيمه، وذلك مادة سعادة القلب الأبدية ونعيمه، ولا يمكن تغذيته بمثل الصلاة. والصلاة أعظم غذاء وسقي لشجرة الإيمان؛ فالصلاة تُثبّت الإيمان وتُنمّيه، وتُنمّي ما يُثمره الإيمان من فعل الخير والرغبة فيه، وكذلك تنهى عن الشر، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فأخبر أن فيها الغذاء بذكر الله، والشفاء بنهيها عن الفحشاء والمنكر، وأي شيء أعظم من هذا وأجمل وأكمل!

ومن فضائلها أنها أكبر عون للعبد على مصالح دينه ودنياه؛ قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: ٤٥]، أي على كل الأمور.

أما عونها على المصالح الدينية: فإن العبد إذا داوم على الصلاة، وحافظ عليها؛ قويت رغبته في فعل الخيرات، وسهلت عليه الطاعات، وبذل الإحسان بطمأنينة نفس واحتساب ورجاء للثواب، وتذهب أو تضعف داعيته للمعاصي، وهذا أمر محسوس مشاهد؛ فإنك لا تجد محافظًا على

---

(١) مجموع مؤلفات العلامة عبد الرحمن السعدي (٢٢/ ٧٣، ٧٤).

الصلاة، فروضها ونوافلها، إلا وجدت تأثير ذلك في بقية أعماله؛ ولهذا كانت الصلاة عنوانًا على الفلاح، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]، والمراد: عمارتها بالصلاة والقربات».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الصلاة مجلبة للرزق، حافظة للصحة، دافعة للأذى، مطردة للأدواء، مقوِّية للقلب، مبيِّضة للوجه، مُفرحةٌ للنفس، مُذهبة للكسل، مُنشّطة للجوارح، مُمدّة للقوى، شارحة للصدر، مُغذِّية للروح، مُنوِّرةٌ للقلب، حافظةٌ للنعمة، دافعة للنقمة، جالبة للبركة، مُبعِدة من الشيطان، مُقرِّبة من الرحمن.

وبالجملة: فلها تأثير عجيب في حفظ صحة البدن والقلب وقواهما، ودفع المواد الرديئة عنهما، وما ابتُلي رجلان بعاهةٍ أو داءٍ أو محنة أو بلية، إلَّا كان حظُّ المصلي منهما أقلَّ، وعاقبته أسلم.

وللصلاة تأثير عجيب في دفع شرور الدنيا، ولا سيما إذا أُعطيت حقها من التكميل ظاهرًا وباطنًا، فما استُدفعت شرور الدنيا والآخرة، ولا استُجلبت مصالحهما بمثل الصلاة، وسِرُّ ذلك أن الصلاة صلة بالله عَزَّوَجَلَّ وعلى قدر صلة العبد بربه عَزَّوَجَلَّ تَفتح عليه من الخيرات أبوابها، وتقطع عنه من الشرور أسبابَها، وتُفيض عليه مواد التوفيق من ربه عَزَّوَجَلَّ، والعافية والصحة، والغنيمة والغِنى، والراحة والنعيم، والأفراح والمسرات، كلها محضرة لديه، ومسارِعة إليه».

---

(١) زاد المعاد (ص٧١٤)، ط - مؤسسة الرسالة، ناشرون.

الزكاة ركن الإسلام الثالث، ففي الصحيحين من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: قال رسول الله ﷺ: «**بُني الإسلام علىٰ خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلًا**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «من آكد العبادات الصلاة، وتليها الزكاة؛ ففي الصلاة عبادته، وفي الزكاة الإحسان إلىٰ خلقه».

ومن رفق الله بعباده وتخفيفه ورحمته؛ أنَّه لم يجعل الزكاة في كل أصناف أموالهم، ولا في قليله، بل في أصناف محدودة إذا بلغت نصابًا، ومقدار الزكاة في ذلك يسير جدًّا يكون سببًا في البركة في المال، وفي حفظه ونمائه ودفع الآفات عنه، وتزكية النفس من الشحِّ وتربيتها علىٰ نفع الخلق.

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة، ولا فيما دون خمس ذود صدقة، ولا فيما دون خمس أواق صدقة**»، رواه مسلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ[2]: «حديث أبي سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أصحُّ ما رُوي في الباب، وفيه ذكر نصاب الورق، ونصاب الإبل، ونصاب الحب والثمر، ثم الماشية والعين».

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٥/ ٦).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٢٤/ ٩) باختصار.

وأوجب الله الزكاة في الحبوب والثِّمار، فقال تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وأوجب الله الزكاة في عروض التجارة، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الأول: يتضمَّن زكاة التجارة، والثاني: يتضمَّن زكاة ما أخرج الله لنا من الأرض».

وعن سمرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ **قال:** «كان النبي ﷺ يأمرنا أن نخرج الزكاة مما نعده للبيع»، رواه أبو داود.

وعروض التجارة تُخرج فيها القيمة، والقيمة تعتبر وقت إخراج الزكاة، قال العلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «تعتبر قيمتها عند تمام الحول، فلا يُعتبر ما اشتُريت به».

وما كان من الأموال مما يتملكه المسلم لحاجته، ولم يقصد به التجارة؛ فهذا ليس فيه زكاة، لحديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس علىٰ المسلم في عبده ولا فرسه صدقة**»، رواه البخاري ومسلم.

قال الحافظ ابن الملقن رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «هذا الحديث أصل في أنَّ أموال القنية لا تجب زكاتها، لكن قال العلماء: لا يصير المال للقنية إلَّا بالنيَّة، ولا

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٤/ ٢٥).

(٢) شرح عمدة الأحكام (٢/ ٥٦٥).

(٣) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (٥/ ٥٣، ٥٤).

يصير للتِّجارة أيضًا إلَّا بالنيَّة، وزكاته متعلِّقة بقيمته لا بعينه».

وأوجب الله الزكاة في الذهب والفضة، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

والكنز في لغة وحكم الشرع هو كلُّ مال لم يؤدَّ زكاته(١).

وقال النبيُّ ﷺ في نصاب الذهب والفضة: «ليس في أقل من مئتي درهم زكاة، وليس في أقل من عشرين دينارًا زكاة».

وقال النبيُّ ﷺ في مقدار زكاة الفضة: «إذا كان لك مائتا درهم - وحال عليها الحول - ففيها خمسة دراهم»، رواه أبو داود من حديث عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصحَّحه البخاري. مائتا درهم تعادل خمسة وتسعين وخمسمائة غرام.

وفي حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الكتاب الذي كتبه له أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصدقة التي أمر الله بها رسوله: «**في الرِّقَة ربع العشر**»، رواه البخاري.

وفي حديث عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال النبيُّ ﷺ: «**ليس عليك شيء حتىٰ يكون لك عشرون دينارًا، وحال عليها الحول؛ ففيها نصف دينار**»، رواه أبو داود.

فدلَّ علىٰ أنَّ زكاة الذهب ربع العشر، وهو إجماع.

ودينار الذهب الإسلامي وزنه أربعة جرامات وربع، فعلىٰ هذا العشرون

---

(١) الشافي في شرح مسند الشافعي (٣/ ٩).

دينارًا تعادل خمسة وثمانين جرامًا ذهبًا؛ هذا نصاب زكاة الذهب.

وأما من لم يملك الذهب والفضة تبرًا، وملك عدلها من النقد؛ فإنه يخرج زكاتها نقدًا ربع العشر.

ففي الصحيحين أنَّ النبيَّ ﷺ بعث معاذًا إلى اليمن، وقال له: «**أعلمهم أنَّ الله افترض عليهم صدقة في أموالهم، تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم**».

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قوله: «**صدقة في أموالهم**»، صدقة: أي: زكاة».

والزكاة الواجبة في الزروع هي في الزرع والحب الذي يكال ويُدَّخر، وهو قوت.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «لم يكن من هديه - ﷺ - أخذ الزكاة من الخضروات ولا المباطح والمقاتي والفواكه التي لا تُكال ولا تُدَّخر إلا العنب والرُّطب؛ فإنه كان يأخذ الزكاة منه جملة، ولم يفرِّق بين ما يبس منه وما لم ييبس».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «لا يوجبون الزكاة في الخضروات؛ لما في التَّرك من عمل النبيِّ ﷺ وخلفائه».

---

(١) شرح بلوغ المرام (٦/ ١٦).

(٢) زاد المعاد (ص١٧٦)، باختصار.

(٣) القواعد النورانية (١/ ٢٥٤).

والزرع إن كان يُسقىٰ بلا مؤونة؛ فإن زكاته العشر، وإن كان يُسقىٰ بمؤونة فزكاته نصف العشر، وإن كان الزرع يسقىٰ نصف الحول بمؤونة، والنصف الآخر من الحول بغير مؤونة؛ ففيه ثلاثة أرباع العشر.

قال النبيُّ ﷺ: «فيما سقت السماء والعيون أو كان عثريًّا العُشر، وفيما سُقي بالنضح نصف العشر»، رواه البخاري.

وزكاة الماشية إنما تجب في بهيمة الأنعام، قال العلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «لا تجب الزكاة في المواشي غير بهيمة الأنعام، وهي هذه الثلاثة: الإبل، والبقر، والغنم.

ويشترط فيها أن تكون للدر والنسل، وأما إذا كانت للتجارة؛ فإنها عرض، زكاتها كزكاة العروض، وكذلك غيرها من المواشي إن كانت للتجارة ففيها زكاة العروض».

ويُشترط لوجوب زكاة بهيمة الأنعام السوم، وهو أن ترعىٰ أكثر الحول، ستة أشهر فأكثر، فإن كانت تعلف فلا زكاة فيها؛ لقول النبيِّ ﷺ: **«صدقة الغنم في سائمتها»**، متفق عليه من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في كتاب النبيِّ ﷺ لأبي بكر الصدِّيق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في فرائض الزكاة.

وجاء اشتراط السوم منطوقًا به في زكاة الإبل، في حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده. رواه أبو داود والنسائي.

---

(١) شرح عمدة الأحكام (٢/ ٥٦١).

وكذلك بالنسبة للبقر تجب الزكاة في سائمتها؛ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، عن النبي ﷺ: «**ليس في البقر العوامل صدقة**».

قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «صفة النماء معتبرة في الزكاة، وهذه لا توجد إلا في السائمة».

وقد دلَّ قول النبيِّ ﷺ: «لا زكاة في حب ولا ثمر حتىٰ تبلغ خمسة أوسق»، رواه مسلم، علىٰ نوع ما تجب فيه زكاة الزروع ونصابه؛ قال ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «هذا يدل علىٰ وجوب الزكاة في الحب والثمر، وانتفائها عن غيرهما.

الشرط الثاني: أن يكون مكيلًا لتقديره بالأوسق.

الشرط الثالث: أن يكون مما يُدَّخَر؛ لأنَّ غير المدخر لا تكمل ماليته؛ لعدم التمكُّن من الانتفاع به في المال.

الشرط الرابع: أن يبلغ نصابًا في قدر خمسة أوسق؛ لقول النبي ﷺ: «**ليس فيما دون خمسة أوسق**»، متفق عليه، والوسق ستون صاعًا؛ لما روىٰ أبو سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**الوسق ستون صاعًا**»، رواه أبو داود».

وزكاة البقر في سائمتها في كل ثلاثين تبيع أو تبيعة، وهو ما تم له سنَة، وفي كلِّ أربعين مسنة، وهو ما تمَّ له سنتان، علىٰ نحو ما جاء في حديث معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، رواه أبو داود والترمذي.

---

(١) المغني (٤/ ٣٢).

(٢) الكافي في فقه الإمام أحمد (ص١٩١، ١٩٢)، باختصار.

وحديث معاذ من رواية مسروق عنه، ولم يسمع منه، وله خصوصيَّة في أخذ الفقه من أصحاب معاذ.

ويعضده حديث عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **أنَّ النبيَّ** ﷺ **قال: «في البقر من كل ثلاثين بقرة تبيع، وفي كل أربعين مسنة»**، صحَّحه البخاري.

وفي كتاب النبي ﷺ **لعمرو بن حزم** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **الذي تلقَّته الأمَّة بالقبول: «في كل ثلاثين بقرة تبيع أو تبيعة، وفي كل أربعين مسنَّة»**.

وما زاد من عدد البقر يجب فيه من مجموع هذين؛ فالستون بقرة فيها تبيعان، والسبعون فيها تبيع ومسنَّة، والثمانون فيها مسنَّتان، وهكذا.

وزكاة الغنم نصابها والواجب فيها ورد من حديث أنس في فريضة الزكاة التي كتبها النبيُّ ﷺ لأبي بكر الصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«صدقة الغنم في سائمتها إذا كانت أربعين إلىٰ عشرين ومائة شاةٍ شاةٌ، فإذا زادت علىٰ عشرين ومائة إلىٰ مائتين ففيها شاتان، فإذا زادت علىٰ مائتين إلىٰ ثلاثمائة ففيها ثلاث شياه، فإذا زادت علىٰ ثلاثمائة ففي كل مائة شاة»**، رواه البخاري.

وفي حديث أنس أيضًا بيان أحكام زكاة الإبل، حيث قال النبيُّ ﷺ: **«في أربع وعشرين من الإبل فما دونها الغنم، في كل خمس شاة، فإذا بلغت خمسًا وعشرين إلىٰ خمس وثلاثين ففيها بنت مخاض أنثىٰ، فإن لم يكن ابنة مخاض فابن لبون ذكر، فإذا بلغت ستًّا وثلاثين إلىٰ خمس وأربعين ففيها بنت لبون أنثىٰ، فإذا بلغت ستًّا وأربعين إلىٰ ستين ففيها حِقَّةٌ طروقة الجمل، فإذا بلغت واحدة وستين إلىٰ خمس وسبعين؛ ففيها جذعة، فإذا**

بلغت ستًّا وسبعين إلىٰ تسعين؛ ففيها بنتا لبون، فإذا بلغت إحدىٰ وتسعين إلىٰ عشرين ومائة؛ ففيها حقَّتان طروقتا الجمل، فإذا زادت علىٰ عشرين ومائة؛ ففي كل أربعين ابنة لبون، وفي كل خمسين حقَّة، ومن لم يكن معه إلا أربع من الإبل؛ فليست فيها صدقة إلا أن يشاء ربُّها، فإذا بلغت خمسًا من الإبل ففيها شاة».

وبنت المخاض هي التي لها سنة، وبنت اللبون هي التي لها سنتان، والحقة لها ثلاث سنوات، والجذعة أربع.



والصيام فرضه الله علينا كما فرضه على الأمم قبلنا، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

والصيام لا ينحصر ثوابه في عدد معيّن من الحسنات، بل يضاعفه الله أضعافًا كثيرة، والسرُّ في ذلك: أن الصائم يدع ما فطره الله عليه مما يحبه؛ طاعة لله، من أجل هذا أضاف الله الصوم إليه، كما في الحديث القدسي: «**إلا الصوم فإنه لي، وأنا أجزي به**»، فهو تربية على تقديم طاعة الله على ما تهوى الأنفس؛ لذلك قال الله في الحديث القدسي: «**يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي**».

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الحديث كالتنبيه على حكمة هذا التَّخصيص، وأنَّ الصائم لما ترك محبوبات النَّفس التي طُبعتْ على محبَّتها، وتقديمها على غيرها، وأنَّها من الأمور الضروريَّة، فقدَّم الصَّائمُ عليها محبة ربَّه، فتركها لله في حالة لا يطَّلعُ عليها إلا الله، وصارت محبَّتُه لله مقدَّمةً وقاهرة لكلِّ محبة نفسيَّةٍ، وطلبُ رضاه وثوابه مقدَّمًا على تحصيل الأغراض النفسيَّة؛ فلهذا اختصه الله لنفسه، وجعل ثواب الصائم عنده.

فما ظنُّك بأجر وجزاء تكفَّل به الرحمن الرحيم الكريم المنَّانُ، الذي عمَّت مواهبه جميع الموجودات، وخصَّ أولياءه منها بالحظِّ الأوفر،

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص ١٩٤).

والنصيب الأكمل، وقدَّر لهم من الأسباب والألطاف التي ينالون بها ما عنده على أمور لا تخطر لهم بالبال، ولا تدور في الخيال؟

فما ظنُّك أن يفعل الله بهؤلاء الصائمين المخلصين؟

وهنا يقف القلم، ويسيح قلبُ الصائم فرحًا وطربًا بعمل اختصَّه الله لنفسه، وجعل جزاءه من فضله المحض، وإحسانه الصِّرف، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم».

والواجب على المسلم أن يأتي بحقيقة الصوم لا صورته، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الصائم هو الذي صامت جوارحه عن الآثام، ولسانه عن الكذب والفحش وقول الزور، وبطنه عن الطعام والشراب، وفرجه عن الرفث؛ فإن تكلم لم يتكلم بما يجرح صومه، وإن فعل لم يفعل ما يُفسد صومه، فيخرج كلامه كله نافعًا صالحًا؛ وكذلك أعماله، فهي بمنزلة الرائحة التي يشمّها من جالس حامل المسك، كذلك من جالس الصائم انتفع بمجالسته له، وأَمِن فيها من الزور والكذب والفجور والظلم.

هذا هو الصوم المشروع، لا مجرد الإمساك عن الطعام والشراب؛ ففي الحديث الصحيح: «**من لم يدع قول الزُّور والعمل به والجهل؛ فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه**»، وفي الحديث: «**رُبَّ صائم حظُّه من صيامه الجوع والعطش**».

---

(١) الوابل الصيّب (ص ٥٧، ٥٨).

فالصوم هو صوم الجوارح عن الآثام، وصوم البطن عن الشراب والطعام، فكما أن الطعام والشراب يقطعه ويفسده، فكذلك الآثام تقطع ثوابه وتفسد ثمرته، فتصيِّره بمنزلة من لم يَصُمْ».

وكان السلف إذا صاموا بذلوا كل سبب من أجل حفظ صيامهم؛ ليأتوا بحقيقته لا صورته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: ينبغي للصائم أن يتعاهد صومه من لسانه، ولا يماري، ويصون صومه، كانوا إذا صاموا قعدوا في المساجد، وقالوا. نحفظ صومنا، ولا نغتاب أحدًا. ولا يعمل عملًا يجرح به صومه.

قال الأصحاب رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: يُسن له كثرة القراءة والذكر والصدقة، وكف لسانه عما يُكرَهُ، ويجب كفه عما يحرم من الكذب، والغيبة والنميمة، والشتم، والفحش، ونحو ذلك».

وقال جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا[2]: «إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم، ودع أذىٰ الخادم، وليكن عليك وقار وسكينة يوم صومك، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواءً».

والصيام من أجلِّ العبادات، يلم شعث القلب ويجمعه علىٰ ربه، فيُقبل

---

(١) حقيقة الصيام (ص ٢١٣)، بشرح شيخنا العلامة محمد العثيمين.

(٢) سنن الصالحين (١/ ٢٢١).

إليه، ويجدِّد سيره إليه، وتنبعث جوارحه إلىٰ أنواع العبادات والطاعات، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لما كان صلاحُ القلبِ واستقامتُه علىٰ طريق سيره إلىٰ الله تعالىٰ، متوقِّفًا علىٰ جمعيَّته علىٰ الله، وَلَمِّ شَعثه بإقباله بالكليَّة علىٰ الله تعالىٰ، فإن شَعَثَ القلب لا يَلُمُّه إلا الإقبالُ علىٰ الله تعالىٰ، وكان فُضولُ الطعام والشراب، وفُضولُ مخالطة الأنام، وفضولُ الكلام، وفضولُ المنام؛ مما يزيدُه شَعَثًا، ويُشَتِّتُهُ في كُلِّ وادٍ، ويقطعه عن سيره إلىٰ الله تعالىٰ، أو يُضعِفُه، أو يعوقه ويُوقِفه؛ اقتضت رحمة العزيز الرحيم بعباده: أن شرع لهم من الصوم ما يُذهِبُ فضولَ الطعام والشراب، ويستفرِغُ مِن القلب أخلاطَ الشهواتِ المعوِّقة له عن سيره إلىٰ الله تعالىٰ، وشرعه بقدر المصلحة، بحيث ينتفعُ به العبد في دنياه وأُخراه، ولا يضرُّه ولا يقطعُه عن مصالحه العاجلة والآجلة، وشرع لهم الاعتكاف الذي مقصودُه وروحُه عكوفُ القلبِ علىٰ الله تعالىٰ، وجمعيَّتُه عليه، والخلوةُ به، والانقطاعُ عن الاشتغال بالخلق والاشتغال به وحده سبحانه، بحيث يصير ذِكره وحُبّه، والإقبالُ عليه في محل هموم القلب وخطراته، فيستولي عليه بدلَها، ويصير الهمُّ كُلُّه به، والخطراتُ كلُّها بذكره، والتفكر في تحصيل مراضيه وما يُقرِّب منه، فيصيرُ أُنسه بالله بدَلًا عن أُنسه بالخلق، فيعده بذلك لأنسه به يومَ الوَحشة في القبور حين لا أنيس له، ولا ما يفرحُ به سواه؛ فهذا مقصود

(١) زاد المعاد (ص ٢٠٣)، ط: مؤسسة الرسالة، ناشرون.

الاعتكاف الأعظم».

الصوم من أسباب تزكية النفوس وصلاحها، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣]. فالصيام يُقوِّي في المسلم الصبر عن الشهوات؛ فإنَّ المسلم يصبح صائمًا من حين طلوع الفجر إلىٰ غروب الشمس، فبالصوم ترتاض النفس عن الشهوات، وقد حُفَّت النار بالشهوات؛ كما قال النبيُّ ﷺ. رواه مسلم.

وبالصوم يرتاض المسلم علىٰ الطاعة، فيصلي ويقوم الليل ويتلو القرآن، ويسارع في الخيرات؛ فيكون المسلم بالصيام مقبلًا علىٰ طاعة الله مجتنبًا معاصيه.

وبالصوم يحفظ المسلم ما ائتمنه الله عليه من حقيقة الصوم، والصوم من أعظم الأمانات كما فسَّرها الصحابة.

والتقوىٰ سبب للصيام؛ فإنَّ المسلم يصوم بسبب تقواه، فيتقي الله بالقيام بالصيام، وتحصل له التقوىٰ بالصيام.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «التقوىٰ هي الطريق الموصلة إلىٰ البر والوسيلة إليه».

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ [محمد: ١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ ﴾ [يونس: ٩].

---

(١) الرسالة التبوكية (ص١٠).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «أعمال البر تُثمِرُ الهدى».

الصوم أيام معدودات، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ [البقرة: ١٨٣، ١٨٤].

وفي وصف أيام الصيام بالمعدودات حثٌّ على العبوديَّة في أيام الدنيا المعدودة؛ لتربح الثواب الأبدي في دار الخلود.

وإذا كانت الدنيا أيامًا معدودات؛ فاجعل لحظاتها فيما خُلقت له، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فالموفَّق هو الذي كانت دنياه حرثًا لآخرته، وهو الذي عمَّر أوقاته بطاعة الله وذكره، ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

فالتذكير بأيام الصوم بأيام الدُّنيا من أعظم ما وعظنا الله به، والعلماء الفقهاء أفادوا بالموعظة من ذلك في أيام رمضان مجموعًا، وفي الموعظة في آحاد أيامه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «من أفطر قبل غروب الشمس؛ ذهب صيامه ضائعًا، ومن أساء في آخر عُمُرِهِ؛ لقي ربَّه بذلك الوجه».

---

(١) الفوائد (ص١٨٨).

(٢) الفوائد (ص٨٨).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أغبى الناس من ضَلَّ في آخر سفره، وقد قارب المنزل».

الصوم تذكير بنعم الله على خلقه، فإنَّ الصائم إذا أمسك عن الطعام والشَّراب في نهار رمضان؛ تذكَّر من قُدر عليه رزقه ممن لا يجد الطعام، فكان ذلك من أسباب شكره لنعم الله وأدائه لحقِّها، وكان ذلك من أسباب إحسانه إلى الفقراء بالصدقة.

والإمساك والصوم عن الطعام من أسباب فراغ القلب المعينة على الإخبات لله وعبوديته.

والصوم يُنمِّي الإخلاص ويزيده، ويقويه، قال النبي ﷺ: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا؛ غُفر له ما تقدَّم من ذنبه**»، متفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ لأنَّ الصوم سرٌّ بين العبد وربِّه، وهو يدفع الرياء عن النفوس، فيزيد في إخلاصها؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ في الحديث القدسي عن الصائم: «**يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي**».

الصوم تزكية للأخلاق، فبالصوم يألف المسلم الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصيته، حتى يكون ذلك خُلقًا له.

الصوم فيه تربية على دفع سفه المؤذين بالإعراض عنهم، وفيه حثٌّ على عدم الإساءة إلى الناس وأذيتهم وظلمهم، قال النبيُّ ﷺ: «**إذا كان**

---

(١) الفوائد (ص١٥٧).

صوم يوم أحدكم فلا يرفث ولا يفسق؛ فإن سابَّه أحد أو شاتمه فليقل: إني صائم»، رواه البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وحسن الخلق من الإيمان، عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبيِّ ﷺ قال: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا**»، رواه أحمد وأبو داود وصحَّحه ابن حبان، وسوء الأخلاق من النفاق، قال النبيُّ ﷺ: «**الفحش والبذاء من النفاق**».

قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «إنَّ تقوىٰ الله تُصلح ما بين العبد وبين ربِّه، وحسن الخلق يُصلح ما بينه وبين خلقه؛ فتقوىٰ الله تُوجب له محبَّة الله، وحسن الخلق يدعو الناس إلىٰ محبَّته».

والحج ركن الإسلام الذي أوجبه الله مرة في العمر، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].



(١) الفوائد (ص٧٦).

والحج: هو السير إلى مكة بالقلوب والأبدان طاعة لله بأداء هذا الركن، استجابة لله في تحقيق العبودية له في بذل المال وكدّ الجوارح، يتخفف الحاج من ذنوبه طالبًا الولادة السعيدة، قال ﷺ: «**من حج فلم يرفث، ولم يفسق؛ رجع كيوم ولدته أمه**»، رواه البخاري ومسلم.

فالحج عبادة يُحقق فيها المسلم توحيد الله في كل شعائره، فأول ما يبدأ به نسكه: الإهلال بالتوحيد «لبيك اللهم لبيك»، ويستصحب هذا العهد لربه الذي أعلنه في نسكه دهره كله، «لبيك اللهم لبيك»: استجابة لله بعد استجابة، هكذا اتخذه منهجًا في سيره إلى الله؛ يؤدي الفرائض ويستبق الخيرات في النوافل، ولا يزال في سيره إلى الله على هذا المنهج، فيزيده الله هدًى وتثبيتًا ويُكمِّله الله في عبوديته له، فينوِّر الله قلبه ووجهه وبصيرته، ويحفظ جوارحه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فالتزام الطاعة والاستجابة لله حياة، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٢﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وتأمل فضل ذكر الله بكلمة التوحيد في يوم عرفة في العتق من النار، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «الإكثار من شهادة التوحيد بإخلاص

(١) لطائف المعارف (ص ٣٩٥، ٣٩٦).

وصدق؛ فإنها أصل دين الإسلام الذي أكمله الله في ذلك اليوم وأساسه، وفي المسند عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان أكثر دعاء النبي ﷺ يوم عرفة: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، بيده الخير، وهو علىٰ كل شيء قدير**»، وخرّجه الطبراني من حديث علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا أيضًا. وخرّج الإمام أحمد من حديث الزبير بن العوام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية: ﴿**شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ**﴾ [آل عمران: ١٨] الآية، ويقول: «**وأنا علىٰ ذلك من الشاهدين، يا رب**».

ويروىٰ من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال**: شهدت النبي ﷺ يوم عرفة فكان أكثر قوله: ﴿**شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ**﴾ الآية، ثم قال: «**أي رب، وأنا أشهد**».

فتحقيق كلمة التوحيد يوجب العتق من النار؛ فإنها تعدل عتق الرقاب، وعتق الرقاب يوجب العتق من النار، كما ثبت في الصحيح: «**أن من قالها مائة مرة؛ كان له عدل عشر رقاب**»، وثبت أيضًا: «**أن من قالها عشر مرات؛ كان كمن اعتق أربعة من ولد إسماعيل**»».

والحج شعائره عظيمة من الطواف بالبيت العتيق، والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفة، والمبيت بمزدلفة ومنىٰ ليالي التشريق، ورمي الجمار، ونحر الهدي، قال تعالىٰ: ﴿**ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ**

عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٢٩، ٣٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «المراد بالشعائر: أعلام الدين الظاهرة، ومنها المناسك كلها، كما قال تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]، ومنها الهدايا والقربان للبيت، وتقدّم أن معنىٰ تعظيمها: إجلالها، والقيام بها، وتكميلها علىٰ أكمل ما يقدر عليه العبد، ومنها الهدايا، فتعظيمها باستحسانها واستسمانها، وأن تكون مكمّلة من كل وجه، فتعظيم شعائر الله صادر من تقوىٰ القلوب، فالمعظِّم لها يبرهن علىٰ تقواه وصحة إيمانه؛ لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله وإجلاله».

وبيّن العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن مقصود إقامة هذه الشعائر: تحقيق التوحيد وإخلاص الوجه لله وحده لا شريك له، قال تعالىٰ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أي: ليس المقصود منها ذبحها فقط، ولا ينال الله من لحومها ولا دمائها شيء؛ لكونه الغني الحميد، وإنما يناله الإخلاص فيها، والاحتساب، والنية الصالحة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، ففي هذا حثٌّ وترغيب علىٰ الإخلاص في النحر، وأن يكون القصد وجه الله وحده، لا فخرًا، ولا رياءً،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص ٥٦٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص ٥٦٧).

ولا سمعةً، ولا مجرد عادة، وهكذا سائر العبادات».

وعظّم الله بيته العتيق في قلوب المؤمنين، قال تعالى: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]، وأمرهم أن يعظموا حرمة دمائهم وأعراضهم وأموالهم كتعظيم بيت الله، وهذا ما وعظ به النبي ﷺ المسلمين في حجة الوداع فقال: «**إن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم، حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا**» متفق عليه.

قال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال العلماء: والحكمة في جعل الله تعالى هذه الاشياء قيامًا للناس، أن الله سبحانه خلق الخلق على سليقة الآدمية من التحاسد والتنافس والتقاطع والتدابر، والسلب والغارة والقتل والثأر، فلم يكن بدّ في الحكمة الإلهية، والمشيئة الأوليّة من كاف يدوم معه الحال، ووازع يُحمد معه المآل، قال الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] فأمرهم الله سبحانه بالخلافة، وجعل أمورهم إلى واحد يزعهم عن التنازع، ويحملهم على التآلف من التقاطع، ويردّ الظالم عن المظلوم، ويقرر كلّ يد على ما تستولي عليه.

روى ابن القاسم قال: حدثنا مالك أن عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان يقول: ما يزع الإمام أكثر مما يزع القرآن. ذكره أبو عمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وجَوْر السلطان عامًا واحدًا أقل إذاية من كون الناس فوضى لحظة

(١) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٣٢٥).

واحدة، فأنشأ الله سبحانه الخليفة لهذه الفائدة، لتجري على رأيه الأمور، ويكفّ الله به عادية الجمهور، فعظّم الله سبحانه في قلوبهم البيت الحرام، وأوقع في نفوسهم هيبته، وعظّم بينهم حرمته، فكان من لجأ إليه معصومًا به، وكان من اضطُهد محميًّا بالكون فيه».

الحج فيه تذكير بنعمة الله بإكمال الدِّين، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «هذا نصٌّ في أنَّ الدين كامل، لا يحتاج معه إلى غيره».

وإكمال الدين حصل من وجوه:

١- أنَّ المسلمين لم يكونوا حجوا حجة الإسلام بعد فرض الحج قبل ذلك، فكمل بذلك دينهم؛ لاستكمالهم عمل أركان الإسلام كلها.

٢- أن الله أعاد الحج على قواعد إبراهيم، ونفى الشرك وأهله، فلم يختلط بالمسلمين في ذلك الموقف منهم أحد؛ قال الشعبي: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ وهو واقف بعرفة حين وقف موقف إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، واضمحل الشرك، وهدمت منار الجاهلية، ولم يطف بالبيت عريان.

٣- إحكام الأحكام: قال أبو بكر بن عياش رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لم ينزل بعدها تحليل ولا تحريم»[(٢)].

---

(١) تفسير شيخ الإسلام (٢/ ٤٠١).

(٢) لطائف المعارف (ص٥٢٣).

وشرائع الله وأحكامه كلها لمصلحة الناس في شؤونهم الدينية والدنيوية، وكلها كمال؛ فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ أحلَّ الطيبات وحرَّم الخبائث، وأحلَّ ما مصلحته خالصة أو راجحة، وحرَّم ما مفسدته راجحة أو خالصة، قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾ [البقرة: ٢١٩].

الحج فيه تذكير بفضل السابقين الأولين؛ فإنَّ الله جعل الرمل من سنن طواف القدوم، منذ رمل الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ إغاظة للكافرين، وإظهارًا لجلدهم، وقوتهم، حتى تقوم السَّاعة، مع ذهاب سبب الرمل، وما ذاك إلا لتذكير المؤمنين بنعم الله في إظهار الدِّين بالصحابة، والتنبيه على فضلهم.

الحجُّ تذكير بالبعث والجزاء؛ فإنَّ الحُجَّاج كلهم وفدوا من مختلف الأمصار، واجتمعوا في صعيد واحد على صفة واحدة من التجرُّد من الثياب والإحرام بإزار ورداء، وهذا شبيه بالموقف الأعظم في المحشر؛

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قصيدته الميمية:

وراحوا إلى التعريف يرجون رحمةً ... ومغفرة ممن يجود ويُكرم

فلله ذاك الموقف الأعظم والذي ... كموقف يوم العرض بل ذاك

الحجُّ يتزوَّد فيه المسلمون من تقوى الله، قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وهو من أسباب رزق الله لهم، قال النبيُّ ﷺ: «**تابعوا بين الحج والعمرة؛ فإنَّهما ينفيان الفقر كما تنفي النار خبث الحديد**».

وأباح الله عَزَّوَجَلَّ طلب المنافع الدنيويَّة في الحجِّ من وجوهها المباحة، فقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾ [البقرة: ١٩٨].

قال العلَّامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «أخبر تعالى أن ابتغاء فضل الله بالتكسُّب في مواسم الحج وغيره؛ ليس فيه حرج إذا لم يشغل عما يجب إذا كان المقصود هو الحج، وكان الكسب حلالًا منسوبًا إلى فضل الله، لا منسوبًا إلى حذق العبد، والوقوف مع السبب ونسيان المسبب؛ فإنَّ هذا هو الحرج بعينه».

وفي الحج أجمل النبيُّ ﷺ شرح حقيقة الإسلام في خطبه التي خطب فيها النَّاس، فمن ذلك تبيينه أنَّ التوحيد ولزوم الجماعة وإقامة أركان الإسلام؛ سبب دخول الجنة، حيث قال: «**اعبدوا ربكم، وصَلُّوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأطيعوا ذا أمركم؛ تدخلوا جنَّة ربكم**»؛ رواه أحمد والترمذي، وصححه ابن حبان.

وكان يوم عرفة من أعظم ما خطب به الناس، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «خطب الناس وهو على راحلته، خطبة عظيمة، قرَّر فيها قواعد الإسلام،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٨٢).

(٢) زاد المعاد (ص٢٥٨).

وهَدَم فيها قواعد الشرك والجاهليَّة، وقرَّر فيها تحريم المحرَّمات التي اتفقت الملل على تحريمها، وهي: الدماء، والأموال، والأعراض، ووضع فيها أمور الجاهلية تحت قدميه، ووضع فيها ربا الجاهلية كلَّه وأبطله، وأوصاهم بالنساء خيرًا، وذكر الحقَّ الذي لهن والذي عليهن، وأنَّ الواجب لهن الرزق والكسوة بالمعروف، ولم يُقدِّر ذلك بتقدير، وأباح للأزواج ضربهن إذا أدخلن إلى بيوتهن من يكرهه أزواجهن. وأوصى الأمَّة فيها بالاعتصام بكتاب الله، وأخبر أنَّهم لن يضلوا ما داموا معتصمين به».

والحجُّ يجتمع فيه المسلمون، ويحصل للإسلام ولهم أنواع من المنافع العظيمة الكثيرة، منها: تحقيق آصرة الأخوة في الله، والموالاة في الله، واستشعار أخوة الجماعة الواحدة، حيث جاء كل من بأقطارها لتحقيق عبوديَّة الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

الحجُّ أعظم مجمع يلتقي فيه العلماء والدعاة والمسلمون عمومًا، وهو من أسباب السعي في مصالح المسلمين، ومذاكرة أحوالهم، والتعاون على البر والتقوى لنصرة الإسلام.

قال تعالى: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ﴾ [الحج: ٢٨].

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يجتمع فيه من

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٢٤٧).

كل فج عميق جميع أجناس المسلمين؛ فيتعارفون، ويستعين بعضهم ببعض، ويتشاورون على المصالح العامة، وتنعقد بينهم الروابط في مصالحهم الدينية والدنيويَّة».

الحُجَّاج أجابوا داعي الله، خليل الرحمن الذي امتثل ما أمره الله به ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧]، ومن أجاب داعي الله عَزَّوَجَلَّ؛ غفر الله ذنوبه، وأجاره من النار: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١)﴾ [الأحقاف: ٣١].

وفي الحديث القدسي الذي رواه النبيُّ ﷺ عن ربِّه، قال الله عَزَّوَجَلَّ لملائكته في السبب الموجب لمغفرته للحُجَّاج: «**أتوني شعثًا غبرًا، أشهدكم أنِّي قد غفرت لهم**»، رواه أحمد وصححه ابن حبان.

فالحاج من حين أحرم بالحجِّ ينتقل من مشعر إلى مشعر، ويؤدي في كل مشعر العبادات التي شرعها الله عَزَّوَجَلَّ فيه، ويلبي؛ طاعة لله، وتحقيقًا لإجابته لداعي الله.

والحاجُّ في كل مشعر يتضرَّع لله، ويجتهد في عبادته حتى ينحر قربانه، ثم يطوف بالبيت العتيق، فيطوف وقد تطهَّر من ذنوبه، فيزداد قربًا من الله بطواف الحج؛ فأحرى أن يرجع كيوم ولدته أمه.

قال سفيان الثوري لجعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن عليِّ بن أبي طالب الصادق: لم جُعل الموقف من وراء الحرم، ولم يُصيَّر في

المشعر الحرام؟

فقال: الكعبة بيت الله عَزَّوَجَلَّ، والحَرَم حجابه، والموقف بابه، فلما قصده الوافدون؛ أوقفهم بالباب يتضرَّعون، فلما أذن لهم بالدخول؛ أدناهم من الباب الثاني وهو المزدلفة، فلما نظر إلى كثرة تضرُّعهم وطول اجتهادهم؛ رحمهم، فلما رحمهم أمرهم بتقريب قربانهم، فلما قرَّبوا قربانهم وقضوا تفثهم وتطهَّروا من الذنوب التي كانت حجابًا بينه وبينهم؛ أمرهم بالزيارة ببيته على طهارة منهم(١).



(١) تهذيب الكمال (١/ ٤٧٤).




البَابُ الثَّالِثُ

الإيمـــان






الباب الثالث

الإيمان

وحديث جبريل فيه بيان أركان الإيمان الستَّة، وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وهي منصوصة في قوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وبشرح آية البِرِّ وحديث جبريل وحديث شعب الإيمان تتبيَّنُ للمسلِم شعب الإيمان وتفاصيله وحقائقه، ويعرف المسلم مسمَّىٰ الإيمان ومعناه وأركانه.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في آية البرّ[١]: «اشتملت هذه الآية الكريمة علىٰ جُمَل عظيمة، وقواعد عميمة، وعقيدة مستقيمة».

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ الآية، هذه الأنواع البر كلِّها».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلّقًا علىٰ كلام الثوري[٣]: «وصدق

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٠٢)، ط - مؤسسة الرسالة.

(٢) (١/ ٣٠٣).

(٣) (١/ ٣٠٣).

رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإن من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الإسلام كلِّها، وأخذ بمجامع الخير كلِّه».

فالإيمان هو تقوى الله، وشعب الإيمان هي خصال البِرِّ والتَّقوى،

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «البِرّ إذا أطلق كان مسماه مسمى التقوى، والتقوى إذا أُطلقت كان مسماها مسمى البرّ». وقال[(٢)]: «لفظ «الإيمان» و«البر» و«التقوى» أيها أُطلق تناول ما يتناوله الآخر».

وأبو ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ سأل النبي ﷺ عن الإيمان، فقرأ: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٧][(٣)].

وهذا دال على استيعاب هذه الآية لشعب الإيمان وحقائقه.

وشعب الإيمان لا تنحصر في بضع وستين شعبة، فكل شعبة من شعبه كالجنس تحته أنواع.

---

(١) الإيمان الكبير (ص ٣٧٥).

(٢) الإيمان الكبير (ص ٣٧٧).

(٣) صححه الحافظ ابن رجب الحنبلي في فتح الباري (١/ ١٧).

وشرائع الإسلام وشعب الإيمان ما فرضها الله عَزَّوَجَلَّ إلا لإخلاص التوحيد له، وتحقيقه، وتحقيق الإيمان، قال العلامة أبو عبيد القاسم بن سلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الإيمان هو درجات ومنازل، وإن سُمي أهله اسمًا واحدًا، وإنما هو عمل من أعمال تعبَّدَ الله به عباده، وفرضه على جوارحهم، وجعل أصله في معرفة القلب، ثم جعل المنطق شاهدًا عليه، ثم الأعمال مصدقةً له».

وقال هشام بن عمار رَحِمَهُ ٱللَّهُ **- وهو من شيوخ البخاري -**[(٢)]: «ومما يبيّن لأهل العقل أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص؛ ما جاء عن النبي ﷺ من الأحاديث: أن الحياء من الإيمان، وأن حسن العهد من الإيمان، وأن للإيمان عُرًى، وأوثق عرى الإيمان الحب في الله، والبغض في الله.

قالوا: وإن للإيمان أركانًا ودعائم، وذروة، وحقيقة، ومحبة، وصدقًا، وبرًّا، وحلاوة، وزينة، ولباسًا، وطهرًا».

فآية «البر» وحديث جبريل من أجمع الأدلة في بيان حقائق الإيمان، قال الحافظ البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «ذلك تفصيل لجملة، هي كلها شيء واحد، وجماعها الدين؛ ولذلك قال ﷺ: «**هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم**»».

---

(١) الإيمان (ص ٧٦).

(٢) الحجة في بيان المحجة (٢/ ١٥٣ - ١٥٥).

(٣) الإيمان، لشيخ الإسلام (ص ٣٤٨، ٣٤٩).

وقال الحافظ ابن الصلاح رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلقًا على حديث جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[١]: «هذا بيان لأصل الإيمان، وهو التصديق الباطن، وبيان لأصل الإسلام في الظاهر، يثبت بالشهادتين، وإنما أضاف إليهما الأربع – من أركان الإسلام – لكونها أظهر شعائر الإسلام ومعظمها، وبقيامه بها يتم استسلامه، وتركه لها يُشعر بحل قيد انقياده أو انحلاله».

وآية «البر» وحديث «جبريل» تضمنا جمل الاعتقاد الموجب للإقرار والانقياد والعمل.

قال شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إن المعنى الذي يستحق به اسم مؤمن بالإطلاق، هو الجامع لمعاني الإيمان، وذلك أداء جميع فرائض الله – تعالى ذكره – من معرفة وإقرار وعمل.

وذلك أن العارف المعتقد صحَّة ما عرف من توحيد الله – تعالى ذكره – وأسمائه وصفاته، فكذلك العارف بنبوة نبي الله ﷺ، المُعتقد صحة ذلك، وصحَّة ما جاء به من فرائض الله.

وذلك أن معارف القلوب عندنا اكتساب العباد وأفعالهم، وكذلك الإقرار باللسان بعد ثبوته، وكذلك العمل بفرائض الله التي فرضها على عباده، تصديقٌ من العامل بعمله ذلك لله – جل ثناؤه – ورسوله ﷺ.

---

(١) الإيمان، لشيخ الإسلام (ص ٣٤٨، ٣٤٩).

(٢) التبصير في معالم الدين (ص ١٩٠، ١٩١).

كما أن إقراره بوجوب فرض ذلك عليه، تصديق منه لله ورسوله؛ بإقراره أن ذلك له لازم، فإذ كل هذه المعاني يستحق على كلِّ واحد منها على انفراده اسم الإيمان، وكان العبد مأمورًا بالقيام بجميعها كما هو مأمور ببعضها - وإن كانت العقوبة على تضييع بعضها أغلظ، وفي تضييع بعضها أخف - كان بيِّنًا أنه غير جائز تسمية أحد مؤمنًا، ووصفه به مطلقًا من غير وصل، إلا لمن استكمل معاني التَّصديق الذي هو جماع أداء جميع فرائض الله».

وحديث شعب الإيمان ذكر فيه النبي ﷺ أصل الإيمان، وهو كلمة التوحيد بحقوقها، وذكر الباعث على فعل الطاعة وترك المعصية وهو الحياء من الله، فكان في ذلك أوضح دليل على أنه لا يكون إيمان بدون عمل، وأن تحقيق التوحيد بالعمل وإخلاصه لله.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «حيث أجاب النبي ﷺ بذكر الإيمان أو بذكر الصلاة، فإنما مقصوده التمثيل بأفضل مباني الإسلام، ومراده المباني بجملتها؛ فإن المباني الخمس كالشيء الواحد، وكل من دخل في الإسلام بالإقرار بالشهادتين، أو بالصلاة - على رأي من يرى فعلها إسلامًا - فإنه يؤمر ببقية المباني، ويلزم بذلك، ويقاتل على تركه».

فإياك أن تفهم من آية «البر» أو حديث «شعب الإيمان» أن الشهادتين تتحققان بدون العمل بشعب الإيمان وإقامة أركان الإسلام؛ فالشهادتان

---

(١) فتح الباري (٤/ ٢١٤).

مستلزمتان العمل والانقياد، لا التولي والكفران.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إذا كانت الشهادتان هي أصل الدين، وفرعه، وسائر دعائمه وشعبه داخلة فيهما، فالعبادة متعلقة بطاعة الله ورسوله ﷺ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ [النساء: ٦٩]».

فالإيمان لا يكون بقول كلمة التوحيد مجردةً عن حقائقها وحقوقها، لا بد من تحقيقها اعتقادًا وعملًا، لا يُقبل من أحد غير ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «الأعراب وغيرهم كانوا إذا أسلموا علىٰ عهد النبي ﷺ أُلزموا بالأعمال الظاهرة: الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، ولم يكن أحد يُترك بمجرد الكلمة».

فمجرد نطق اللسان بشهادة أن «لا إله إلا الله» لا يتحقق به التوحيد، ولا يُقام به الإيمان، قال الحافظ أبو بكر الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «إن الله تعالىٰ أوجب علىٰ المؤمنين بعد إيمانهم به وبرسوله ﷺ: العمل. وأنه تعالىٰ لم يثنِ علىٰ المؤمنين بأنه قد رضي عنهم وأنهم قد رضوا عنه، وأثابهم علىٰ ذلك الدخول إلىٰ الجنة، والنجاة من النار؛ إلا الإيمان والعمل الصالح،

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٣٤١).

(٢) الإيمان (ص ٢٤٥).

(٣) الشريعة (١/ ٢٧٧).

وقرن مع الإيمان العمل الصالح، الذي قد وفقهم له، فصار الإيمان لا يتم لأحد حتىٰ يكون مصدّقًا بقلبه، وناطقًا بلسانه، وعاملًا بجوارحه، لا يخفىٰ علىٰ من تدبّر القرآن وتصفحه، وجده كما ذكرت».

فإقامة أركان الإسلام ولزوم شعب الإيمان هو من إقامة الإسلام، وتحقيق التوحيد والإيمان، وتضييع أركان الإسلام هو هدم للإسلام، فإن أركانه هي حقائقه ومبانيه، لا يقوم الإسلام إلا بها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «**إن الإسلام الذي في القلب لا يتم إلا بعمل الجوارح، فهُنَّ مبانٍ له ينبني عليها، فالمباني الظاهرة تحمل الإسلام الذي في القلب، كما يحمل الجسد الروح، وكما تحمل العُمُدُ السقف، والقبة الأركان**».

والأحاديث الواردة في عصمة الدم بكلمة التوحيد لا يُراد بها مجرد النطق بها باللسان، مجردةً عن حقوقها وحقائقها، فالأدلة كلها توجب أداء حق كلمة التوحيد، والنصوص يُفسر بعضها بعضًا، ففي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قال رسول الله ﷺ: «**من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله ﷺ، وأن عيسىٰ عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق؛ أدخله الله الجنة علىٰ ما كان من العمل**».

---

(١) المجموعة العليَّة من كتب ورسائل وفتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٧٦، ٧٧).

فالمراد بذكر الشهادتين في عصمة الدم والمال: الشهادتان بحقوقهما ولوازمهما، وكذلك حيث ذُكر في بعض الأحاديث بعض الأركان الخمسة، فإنما ذُكر بعضها لأنه أوكدهما، وهي مقتضية لبقيتها، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «مراده ﷺ في كلا الجوابين سائر المباني، لكنه خصّ بالذكر أشرفها، فكأنه قال: الشهادتان وتوابعهما، والصلاة وتوابعها ولوازمها، وهي بقية المباني الخمس.

ويشهد لهذا قول النبي ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم**».

فتوهم طائفة من الصحابة أن مراده أن مجرّد هذه الكلمة يعصم الدم حتىٰ توقفوا في قتال من منع الزكاة، حتىٰ بيّن لهم أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ورجع الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ إلىٰ قوله

إن المراد: الكلمتان بحقوقهما ولوازمهما، وهو الإتيان ببقية مباني الإسلام.

وقد تبيّن صحة قولهم بروايات أخر تُصرح بإضافة إقام الصلاة وإيتاء الزكاة إلىٰ الشهادتين في شرط عصمة الدم.

وكذلك قوله ﷺ: «**من قال: لا إله إلا الله. لم تمسه النار – أو دخل الجنة –**».

وإنما أراد الشهادتين بلوازمهما، وتوابعهما، وهي الإتيان ببقية أركان

(١) فتح الباري (٤/ ٢١٥، ٢١٦).

الإسلام ومبانيه».

وهنا تنبيه مهم لا بد من ذكره وبيانه، فالخطرات غير المستقرة الواردة على أذهان بعض الصحابة حيث ظنوا أن الدم يُعصم بقول كلمة التوحيد، لا يصح نسبته مذهبًا لهم، فهي خطرات وواردات لم تستقر، دفعوها بصحيح اعتقادهم الذي أجمعوا عليه بموافقة أبي بكر الصدّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ونظير هذا قول عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في الحج: «ما لنا وللرمل»، خاطرة وواردة دفعها نفسه بالتأسي بالنبي ﷺ؛ حيث قال: «شيء فعلناه في عهد النبي ﷺ لا نتركه».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ولهذا جعل سبحانه إحكام آياته في مقابلة ما يلقي الشيطان بإزاء الآيات المحكمات في مقابلة المتشابهات؛ فالأحكام هاهنا بمنزلة إنزال المحكمات هناك، ونسخ ما يلقي الشيطان هاهنا في مقابلة رد المتشابه إلى المحكم هناك، والنسخ هاهنا رفع ما ألقاه الشيطان، لا رفع ما شرعه الرب سبحانه.

وللنسخ معنًى آخر هو النسخ من إفهام المخاطبين ما فهموه مما لم يرده، ولا دل اللفظ عليه، وإن أوهمه، كما أطلق الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ النسخ على قوله: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ﴾ [البقرة: ٢٨٤] قالوا: نسخها قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]... الآية فهذا نسخ من الفهم لا

(١) شفاء العليل (٣/ ١٠٣٤، ١٠٣٥).

نسخ للحكم الثابت؛ فإن المحاسبة لا تستلزم العقاب في الآخرة ولا في الدنيا أيضًا».

وحديث «شعب الإيمان» دالٌّ علىٰ أن الإيمان ذو شعب يزيد وينقص؛ وهو مبطل لعقيدة الخوارج والمعتزلة الذين يقولون: إن الإيمان قطعة واحدة، إما يبقىٰ كله أو يذهب كله.

ومن شبهات الخوارج والمعتزلة في تكفير أهل المعاصي من المسلمين، قولهم: إن الشيء المركّب إذا زال بعض أجزائه لزم زواله كله. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الجواب عمّا ذكروه هو سهل؛ فإنه يُسلم له أن الهيئة الاجتماعية لم تبق مجتمعة كما كانت، لكن لا يلزم من زوال بعضها زوال سائر الأجزاء.

والشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، والتابعين رحمهم الله؛ وسائر السلف، يقولون: إن الذنب يقدح في كمال الإيمان، ولهذا نفىٰ الشارع الإيمان عن هؤلاء، فذلك المجموع الذي هو الإيمان لم يبق مجموعًا مع الذنوب، لكن يقولون: بقي بعضه: إما أصل وإما أكثره، وإما غير ذلك؛ فيعود الكلام إلىٰ أنه يذهب بعضه ويبقىٰ بعضه».

وقال شيخ الإسلام أيضًا مبطلًا عقيدة الخوارج والمرجئة والمعتزلة والجهمية[٢]: «وقد ثبت عنه في الصحيحين أنه قال: «**يخرج من النار من**

(١) الإيمان الكبير (ص ٧١٩).

(٢) شرح حديث جبريل (ص ٣٩٤).

كان في قلبه مثقال حبة من إيمان»، فأخبر أنه يتبعض ويبقى بعضه، وأن ذاك من الإيمان، فعُلم أن بعض الإيمان يزول ويبقى بعضه».

والبخاري في صحيحه في كتاب الإيمان في فصل ساق حديث أركان الإيمان[١]، ثم أتبعه بـ «فصل في أمور الإيمان»[٢]، وبوّب به بآية «البر»، ثم أتبعه بحديث شعب الإيمان مسندًا[٣].

واستفاد الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من تبويب البخاري في كتاب الإيمان، والأحاديث التي ذكرها فيه؛ استيعابه لشعب الإيمان السبعين كلها، فقال[٤]: «وتبويب البخاري على خصال الإيمان والإسلام والدين من أوله إلى آخره، وما خرّج فيه من الأحاديث، وما استشهد به من الآيات والآثار الموقوفة، إذا عُدَّت خصاله وأضيف إليه أضداد ما ذكره في أبواب خصال النفاق والكفر؛ بلغ ذلك فوق السبعين - أيضًا - والله أعلم».

وحديث «شعب الإيمان» دال على أن الإيمان ليس قطعة واحدة، كما يقول الخوارج والمعتزلة، فالإيمان ذو شعب، وشعبه منها ما هو من أركان الإيمان، ومنها ما هو من واجباته، ومنها ما هو من مستحباته.

---

(١) كتاب الإيمان، باب دعاؤكم إيمانكم (ص ٥- رقم ٨).

(٢) كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان (ص ٥).

(٣) كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان (ص ٥- رقم٩).

(٤) فتح الباري (١/ ٣٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن النبي ﷺ قال: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ من الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»، ثم من المعلوم أنه إذا زال الإماطة ونحوها لم يزل اسم الإيمان.

وقد ثبت عنه في الصحيحين أنه قال: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان»، فأخبر أنه يتبعض ويبقىٰ بعضه، وأن ذاك من الإيمان، فعُلم أن بعض الإيمان يزول ويبقىٰ بعضه، وهذا ينقض مآخذهم الفاسدة، ويبيّن أن اسم الإيمان مثل اسم القرآن والصلاة والحج ونحو ذلك، أما الحج ونحوه ففيه أجزاء ينقص الحج بزوالها عن كماله الواجب ولا يبطل؛ كرمي الجمار، والمبيت بمنىٰ، ونحو ذلك، وفيه أجزاء ينقص بزوالها عن كماله المستحب؛ كرفع الصوت بالإهلال، والرمل والاضطباع في الطواف الأول.

وكذلك الصلاة فيها أجزاء تنقص بزوالها عن كمال الاستحباب، وفيها أجزاء واجبة تنقص بزوالها عن الكمال الواجب مع الصحة في مذهب أبي حنيفة وأحمد ومالك، وفيها ما له أجزاء إذا زالت جبر نقصها بسجود السهو، وأمور ليست كذلك».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أصل نزاع هذه الفرق

(١) شرح حديث جبريل (٣٩٤، ٣٩٥).

(٢) شرح حديث جبريل (ص ٣٨٣، ٣٨٤).

في الإيمان من الخوارج، والمرجئة، والمعتزلة، والجهمية، وغيرهم، أنهم جعلوا الإيمان شيئًا واحدًا، إذا زال بعضه زال جميعه، وإذا ثبت بعضه ثبت جميعًا، فلم يقولوا بذهاب بعضه وبقاء بعضه كما قال النبي ﷺ: «**يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان**»، ثم قال الخوارج والمعتزلة: الطاعات كلها من الإيمان، فإذا ذهب بعضها ذهب بعض الإيمان، فذهب سائره، فحكموا بأن صاحب الكبيرة ليس معه شيء من الإيمان. وقالت «المرجئة والجهمية»: ليس الإيمان إلا شيئًا واحدًا لا يتبعض، إما مجرد تصديق القلب كقول الجهمية، أو تصديق القلب واللسان كقول المرجئة.

قالوا: لأنا إذا أدخلنا فيه الأعمال صارت جزءًا منه، فإذا ذهبت ذهب بعضه، فيلزم إخراج ذي الكبيرة من الإيمان، وهو قول المعتزلة والخوارج، لكن قد يكون له لوازم ودلائل، فيُستدل بعدمها علىٰ عدمه.

وصار كل من الطائفتين بعد السلف والجماعة وأهل الحديث متناقضين».

وحديث شعب الإيمان ذكر فيه النبي ﷺ أساس الشعب وأعلاها وهو «التوحيد»، وذكر أدناها وهو «**إماطة الأذىٰ عن الطريق**»، وذكر أيضًا الحياء الذي يبعث علىٰ أنواع العمل.

أما آية «البر» فقد بيّنت البرّ مفصلًا: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، والصدقة - وقد جاءت مفصّلة في أنواع المتصدّق عليه -، وعتق الرقاب، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس.

ولنتدبر آية «البرّ» وما دلّت عليه من أركان الإيمان وحقائقه وأصوله، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧]، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «تضمنت الآية: أن أنواع البر ستة أنواع، من استكملها فقد استكمل البر:

أولها: الإيمان بأصول الإيمان الخمسة.

وثانيها: إيتاء المال المحبوب: لذوي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، والسائلين، وفي الرقاب.

وثالثها: إقام الصلاة.

ورابعها: إيتاء الزكاة.

وخامسها: الوفاء بالعهد.

وسادسها: الصبر على البأساء والضراء وحين البأس.

وكلها يحتاج الحاج إليها؛ فإنه لا يصح حجه بدون الإيمان، ولا يكمل حجه ويكون مبرورًا بدون إقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ فإن أركان الإسلام

---

(١) لطائف المعارف (ص٣٢٦، ٣٢٧).

بعضها مرتبطة ببعض، فلا يكمل الإيمان والإسلام حتى يُؤتى بها كلها، ولا يكمل بر الحج بدون الوفاء بالعهد في المعاقدات والمشاركات المحتاج إليها في سفر الحج، وإيتاء المال المحبوب لمن يحب الله إيتاءه له، ويحتاج مع ذلك إلى الصبر على ما يصيبه من المشاق في السفر».

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن البرَّ يُطلق باعتبار معنيان:

أحدُهما: باعتبار معاملة الخلق بالإحسان إليهم، وربما خصَّ بالإحسانِ إلى الوالدين، فيقال: برُّ الوالدين. ويطلق كثيرًا على الإحسان إلى الخلق عمومًا، وقد صنّف ابنُ المبارك كتابًا سماه «كتاب البرِّ والصلة»، وكذلك في «صحيح البخاري» و«جامع الترمذي»: «كتاب البرِّ والصِّلة»، ويتضمن هذا الكتاب الإحسان إلى الخلق عمومًا، ويقدَّم فيه برُّ الوالدين على غيرهما.

وفي حديث بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده أنَّه قال: يا رسول الله! مَنْ أبرُّ؟ قالَ: «**أمك**»، قالَ: ثُمَّ من؟ قال: «**ثم أباك**»، قال: ثم من؟ قالَ: «**ثُمَّ الأقرب فالأقرب**».

ومن هذا المعنى قول النَّبيِّ ﷺ: «**الحجُّ المبرور ليس لهُ جزاءٌ إلَّا الجنَّة**». وفي «المسند»: أنَّه ﷺ سُئِلَ عن برِّ الحجِّ، فقال: «**إطعامُ الطَّعام، وإفشاءُ السَّلام**»، وفي روايةٍ أخرى: «**وطيبُ الكلام**».

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص ٤٧٦ - ٤٧٨).

وكان ابنُ عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **يقول**: البرُّ شيءٌ هيِّنٌ: وجهٌ طليقٌ، وكلامٌ ليِّنٌ.

وإذا قُرن البرُّ بالتَّقوىٰ، كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، فقد يكون المرادُ بـ«البرِّ»: معاملةَ الخلق بالإحسان، وبـ«التَّقوىٰ»: معاملة الحقِّ بفعل طاعته، واجتناب محرَّماته، وقد يكونُ أُريد بـ«البرِّ»: فعل الواجبات، وبالتقوىٰ: اجتناب المحرَّمات، وقوله: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢]، قد يُراد بالإثم: المعاصي، وبالعدوان: ظُلمُ الخلق، وقد يُراد بالإثم: ما هو محرَّم في نفسه؛ كالزِّنىٰ، والسَّرقة، وشُرب الخمر، وبالعُدوان: تجاوز ما أذن فيه إلىٰ ما نُهي عنه ممَّا جنسُه مأذونٌ فيه؛ كقتل مَن أُبيح قتلُه لِقِصاصٍ ومن لا يُباح، وأخذِ زيادة علىٰ الواجب من الناس في الزكاة ونحوها، ومجاوزة الحد في الذي أُمر به في الحدود، ونحو ذلك.

والمعنىٰ الثاني من معنىٰ «البرِّ»: أنْ يُراد به فعلُ جميع الطاعات الظاهرة والباطنة، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقد رُوي أنَّ النَّبيَّ ﷺ سُئل عن الإيمان، فتلا هذه الآية.

فالبرُّ بهذا المعنىٰ يدخل فيه جميعُ الطاعات الباطنة؛ كالإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والطاعات الظاهرة؛ كإنفاق الأموال فيما يحبُّه

الله، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزّكاة، والوفاء بالعهد، والصَّبرِ على الأقدار؛ كالمرض والفقر، وعلى الطَّاعات؛ كالصَّبر عِند لقاءِ العدوِّ».

وحديث «شعب الإيمان» بديع في بيانه؛ حيث ذكر النبي ﷺ أساس الشعب وأعلاها، وأدنى الشعب، والشعبة الباعثة للإتيان ببقية الشعب، بحيث يكون هذا البيان غاية في التوضيح من غير تطويل قد يعيا البعض عن حفظه، أو تفصيل قد يشق ضبطه، أرأيت كيف جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال له: إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فأخبرني بشيء أتشبث به. رواه الترمذي وحسنه وصححه ابن حبان، وكيف حدّث النبي ﷺ حتى صلى الظهر ثم أكمل خطبته بعد الصلاة حتى ظهرت العصر، وهكذا حتى حضرت العشاء، قال الصحابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فكان أفقهنا أحفظنا»، رواه مسلم.

فمقام التفصيل والإجمال يُقدِّر مصلحتها الناصح بحسب ما يقتضيه الحال، وأعلم الناس بذلك وأتمّهم بيانًا وأكملهم تعليمًا هو من أوتي جوامع الكلم - صلوات الله عليه وسلامه -، الذي جمع في هذا الحديث شعب الإيمان كلها في أوجز لفظ وأفصح عبارة وأحسن صياغة وأنفع بيان.

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «هذا الحديث من جملة النصوص الدَّالة على أن الإيمان اسمٌ يشمل عقائد القلب، وأعماله، وأعمال الجوارح، وأقوال اللِّسان؛ فكلُّ ما يقرِّب إلى الله، وما

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص ٣٤٩، ٣٥٠).

يحبُّه ويرضاه، من واجب ومستَحبٍّ؛ فإنه داخل في الإيمان.

وذكرَ هنا أعلاه وأدناه وما بين ذلك وهو الحياء.

ولعلَّ ذكر الحياء لأنه السَّببُ الأقوىٰ للقيام بجميع شُعب الإيمان.

فإنَّ من استحيا من الله؛ لتواتر نعمه، وسوابغ كرمه، وتجلِّيه عليه بأسمائه الحسنىٰ، والعبد مع هذا كثير التقصير مع هذا الربِّ الجليل الكبير، يظلم نفسه ويجني عليها - أوجب له هذا الحياء التوقِّي من الجرائم، والقيام بالواجبات والمستحبَّات. فأعلىٰ هذه الشُّعب وأصلها وأساسها، قول: «لا إله إلا الله» صادقًا من قلبه، بحيث يعلمُ ويوقن أنه لا يستحق هذا الوصف العظيم - وهو الألوهية - إلا الله وحده؛ فإنه هو ربُّه الذي يربِّيه ويربِّي جميع العالمين بفضله وإحسانه. والكلُّ فقير وهو الغنيُّ، والكلُّ عاجزٌ وهو القوي، ثم يقوم في كل أحواله بعبوديته لربه، مخلصًا له الدِّين؛ فإنَّ جميع شعب الإيمان فروع وثمرات لهذا الأصل.

ودلَّ علىٰ أن شعب الإيمان بعضها يرجعُ إلىٰ الإخلاص للمعبودِ الحقِّ، وبعضها يرجعُ إلىٰ الإحسان إلىٰ الخلق.

ونبّه بإماطة الأذىٰ علىٰ جميع أنواع الإحسان القوليِّ والفعليِّ؛ الإحسان الذي فيه وصول المنافع، والإحسان الذي فيه دفع المضارِّ عن الخلْق».

والمسلم يتطلب بيان وتفصيل شعب الإيمان المجملة في حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حيث لم يذكر فيها إلا أعلىٰ الشعب وأدناها، وشعبة الحياء، من بقية نصوص القرآن والسنة، فالنصوص يُفسر بعضها بعضًا، من

ذلك آية «البرّ»، وضمّ إليها العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله تعالىٰ: ﴿ **وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، حيث أتبعه الله ببيان صفات المتقين: ﴿ **ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وضم إلىٰ ذلك نصًّا جامعًا لأنواع الطاعات: حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**اتَّق الله حيثما كُنتَ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**». رواه أحمد.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيِّنًا دلالة هذه النصوص في بيان شعب الإيمان[1]: «وصف المتَّقين بالإيمان بأصوله وعقائده، وأعماله الظاهرة والباطنة، وبأداء العبادات البدنية، والعبادات المالية، والصبر في البأساء والضرَّاء وحين البأس، وبالعفو عن الناس، واحتمال أذاهم، والإحسان إليهم، وبمبادرتهم إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم بالاستغفار والتَّوبة، فأمر ﷺ ووصَّىٰ بملازمة التَّقوىٰ حيثما كان العبدُ في كل وقت، وكلِّ مكان، وكلِّ حالة من أحواله؛ لأنه مضطرٌّ إلىٰ التقوىٰ غاية الاضطرار، لا يستغني عنها في كلِّ حالة من أحواله.

ثم لَمَّا كان العبد لا بد أن يحصل منه تقصير في حقوق التَّقوىٰ وواجباتها

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص ١٠٤).

أمر ﷺ بما يدفع ذلك ويمحوه، وهو أن يُتبع الحسنة السيِّئة».

وحديث شعب الإيمان دال علىٰ زيادة الإيمان ونقصانه، فالنبي ﷺ قال في شعب الإيمان: «**أعلاها: شهادة أن لا إله إلا الله**». وقال: «**أدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق**»؛ فالإيمان يزيد وينقص، وهذا إجماع عند أهل السنة والجماعة.

والأدلة علىٰ زيادة الإيمان كثيرة، قال تعالىٰ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وقال تعالىٰ: ﴿**وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا**﴾ [الأنفال: ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿**ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا**﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤]، وغيره.

وإذا ثبتت الزيادة ثبت النقص، ومن الأدلة المصرّحة بنقص الإيمان حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله يوم القيامة: أخرجوا من النار من في قلبه مثقال ذرّة من إيمان**». رواه البخاري، فالإيمان ينقص، حتىٰ لا يبقىٰ فيه إلا مثقال ذرة.

ويدل لنقصان الإيمان أيضًا قوله ﷺ: «**من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**». رواه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وكذلك وصف النبي ﷺ النساء بقوله: «**ناقصات عقل ودين**». رواه

البخاري، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «نقصان دينها بالنسبة إلىٰ من هي طاهرة تُصلِّي وتصوم».

واعتقاد زيادة الإيمان ونقصانه إجماع من الصحابة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان منه عن الصحابة، ولم يُعرف فيه مخالف من الصحابة».

فاعتقاد السابقين الأولين وإجماعهم علىٰ أن الإيمان يزيد وينقص، قال عمير بن حبيب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[(٣)]: «إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبَّحناه فتلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيّعنا فذلك نقصانه».

وقال عمّار بن ياسر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ثلاث من كُنَّ فيه فقد استكمل الإيمان: الإنصاف من نفسه، والإنفاق من الإقتار، وبذل السلام للعالم». ذكره البخاري تعليقًا مجزومًا به[(٤)].

وقال أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إن من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه، وما نقص منه، ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد الإيمان أم ينقص؟ وإن من فقه الرجل أن يعلم نزغات الشيطان أنَّىٰ تأتيه».

---

(١) فتح الباري (١/ ١٧٠).

(٢) الإيمان الكبير (ص ٤٥٥).

(٣) الإيمان الكبير (ص ٤٧٦).

(٤) كتاب الإيمان، باب إفشاء السلام من الإسلام.

وقال أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[١]: «الإيمان يزداد وينقص».

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٢]: «لو وُزن إيمان أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بإيمان أهل الأرض لرجح به».

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ **شارحًا عبارة الفاروق** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٣]: «لم يُرد الأعمال، لأنَّ العقل يقطع باستحالته، وإنما أراد المعنىٰ القائم بقلبه من قُوَّة إيمانه وصفاء بصيرته، وتحقيقه في تصديقه».

والأدلة أنواع في الدلالة لزيادة الإيمان ونقصانه، ومن أعظم الأدلة علىٰ ذلك نزول القرآن متتابعًا حسب الحوادث، وما حصل بسبب ذلك للصحابة من زيادة العلم والعمل والإيمان.

ومن الأدلة علىٰ تفاضل الإيمان تفاضل ثواب أهله في الجنة، بحسب طبقاتهم في الإيمان والعمل في الدنيا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «وفي حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب كفاية؛ **فإنه من أعظم الأدلة علىٰ زيادة الإيمان ونقصانه**؛ لأنه وصفهم بقوة الإيمان وزيادته في تلك الخصال التي تدل علىٰ قوة إيمانهم، وتوكلهم علىٰ الله في أمورهم كلها».

---

(١) السنة، لعبد الله بن الإمام أحمد (١/ ٣١٦).

(٢) رواه إسحاق وصححه ابن حجر في تخريج الكشاف.

(٣) رموز الكنوز (١/ ٣١٤).

(٤) الإيمان الكبير (ص ٤٦٣).

وزيادة الإيمان يجده الإنسان من نفسه، ويشعر به بما يجده في قلبه وما تنبعث إليه جوارحه من العمل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «هذا أمر يجده المؤمن إذا تُليت عليه الآيات زاد في قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الإيمان ما لم يكن، حتى كأنه لم يسمع الآية إلا حينئذ، ويحصل في قلبه من الرغبة في الخير والرهبة من الشر ما لم يكن؛ فزاد علمه بالله ومحبته لطاعته، وهذه زيادة الإيمان».

وحديث «شعب الإيمان» دال على أن للإيمان شعبًا، وأنه ليس بالتمني ولا بالتحلي.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «نصيب العبد من الإيمان بقدر نصيبه من هذه الخصال، قلةً وكثرةً، وقوّةً وضعفًا، وتكميلًا وضدّه. وهي ترجع إلى تصديق خبر الله وخبر رسوله ﷺ، وامتثال أمرهما، واجتناب نهيهما.

وقد وصف الله الإيمانَ بالشجرة الطيِّبة في أصلها وثمراتها، التي أصلها ثابت، وفروعها باسقةٌ في السَّماء، تُؤتي أُكُلها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكّرون».

وحديث جبريل تضمَّن بيان حقيقة الإيمان والإسلام والإحسان، ففيه بيان كل ما يتحقق به التوحيد والعبودية لله، ومفتاح الجنة وأسنان المفتاح،

---

(١) الإيمان الكبير (ص ٤٦٦).

(٢) بهجة قلوب الأبرار (ص ٣٥٠، ٣٥١).

وجماع ذلك قول النبي ﷺ: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبىٰ! قيل: ومن يأبىٰ؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبىٰ**»، رواه البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال العلامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «قوله: «**من أبىٰ**» دخول الجنة، وذلك إنما هو أن يأبىٰ الطاعة، فمن أبىٰ الطاعة يأبىٰ دخول الجنة، وذلك أن قول رسول الله ﷺ: «**أبىٰ**» يعني: أن دخول الجنة في الآخرة من طريق إليها، فالدنيا هي عند أهل العقل والنظر الصحيح جنة تنقل إلىٰ جنة؛ فإن الطريق إلىٰ الجنة في الآخرة إنما هي عبادة الله في الدنيا بأنواع العبادات التي هي كلها حقائق الأمن وعروش الطمأنينة».

وحديث «شعب الإيمان» دال علىٰ أن الإيمان اعتقاد، وقول، وعمل؛

وإذا تقرر أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل، فنواقضه تكون بما عدّه الشارع ناقضًا من اعتقاد أو قول أو عمل.

فالاعتقاد في قوله ﷺ: «**أعلاها: شهادة أن لا إله إلا الله**»، فهذه الشهادة تضمنت الاعتقاد بالألوهية الحقة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ونفي الألوهية الباطلة لغيره ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، وتضمنت التأله لله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، فدخل في ذلك اعتقاد القلب وعلمه وعمله وفعل اللسان والجوارح.

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح (٧/ ٣١٠، ٣١١).

قال الإمام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلقًا على حديث شعب الإيمان[١]: «جاء في النصوص الأخرى ما يدل على تسميته إسلامًا، فقد سمَّى النبي ﷺ الشهادتين، والصلاة والزكاة والصيام وأداء الفروض؛ سمَّاه إيمانًا، وسمى جميع الدين إيمانًا، قال: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة**»».

وقال أيضًا سماحته رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «فالإيمان عند أهل السنة قول وعمل؛ قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح».

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «الإيمان عند أهل السنة هو ما دلّ عليه الكتاب والسنة؛ هو قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، فيشمل ذلك جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة».

وإذا كان الإيمان اعتقادًا بالجنان، ونطقًا باللسان، وعملًا بالأركان؛ فينبني على ذلك أن العبد قد يكفر بما يأتيه من نواقض الإسلام الاعتقادية، أو القولية، أو العملية.

قال الإمام المجدّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «القوادح قسمان: قسم ينقض هذه العقيدة ويُبطلها؛ فيكون صاحبه كافرًا - نعوذ بالله -، وقسم ينقص هذه العقيدة ويضعفها؛ فالأول يُسمى ناقضًا، وهو الذي

(١) فوائد من التفسير (ص١٤٦).

(٢) فوائد من التفسير (ص٤٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص٨٨٩).

(٤) مجموع الفتاوى البازية (٨/ ١٣، ١٤)، الطبعة الثالثة.

يُبطلها ويفسدها، ويكون صاحبه كافرًا مرتدًّا عن الإسلام، وهذا النوع هو القوادح المكفرة، وهي نواقض الإسلام، وهي الموجبة للردة، هذه تسمىٰ: نواقض.

والناقض يكون: قولًا، ويكون عملًا، ويكون اعتقادًا، ويكون شكًّا.

فقد يرتد الإنسان بقول يقوله أو بعمل يعمله، أو باعتقاد يعتقده، أو بشك يطرأ عليه.

وحديث شعب الإيمان هو الدين كله، وهو في السنة كقوله تعالىٰ في القرآن: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ذلك أن قوله ﷺ: «**الإيمان بضع وستون شعبة**» خبر بمعنىٰ الأمر، أي: من كان مؤمنًا فليأت بشعبه، وليحقِّق وصف الإيمان فيه، كما أمر الله ورسوله ﷺ، وقوله ﷺ: «**أعلاها: شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق**» بيان أن الأعمال إنما تأتي من التوحيد وصحيح الاعتقاد، وأن شرائع الإسلام وأعمال الإيمان هي من تفاصيل كلمة التوحيد ومستلزماتها».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لا إله إلا الله: تقتضي الإخلاص والتوكل وإخلاص الشكر؛ فهي أفضل الكلام، وأعلىٰ شعب الإيمان، كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**الإيمان بضع وستون** – أو: **سبعون** – **شعبة، أعلاها قول: [لا إله إلا الله]، وأدناها: إماطة**

---

(١) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ١٠٩٠).

الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»، فـ[لا إله إلا الله] هي قطب رحىٰ الإيمان، وإليها يرجع الأمر كله، والكتب المنزلة مجموعة في قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وهي معنىٰ [لا إله إلا الله] و[لا حول ولا قوة إلا بالله]، وهي من معنىٰ: [لا إله إلا الله]، و[الحمد لله] في معناها، و[سبحان الله والله أكبر] من معناها».



أركان الإيمان:

أولًا: الإيمان بالله: أن نؤمن بالله وحده لا شريك له، رب كل شيء ومليكه، وأنه المتصف بصفات الكمال، ونعوت الجلال، وأنه هو إله الحق، وأن ما يُعبد من دونه آلهة باطلة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

وتوحيد الله يكون في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، والآية الجامعة الدالة على تحقيق التوحيد في أنواعه الثلاثة؛ هي قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥]؛ فقوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ أمر بتحقيق توحيد الربوبية، وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ أمر بتحقيق توحيد العبودية، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾، أمر بتحقيق توحيد الأسماء والصفات إثباتًا لها بما تقتضيه من كمال دون تمثيل بمخلوق أو تعطيل لمعانيها الكاملة، فالله لا سمي له، وأسماؤه حسنى وصفاته عليا.

قال شيخنا العلامة المجدّد محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «نؤمن بوحدانيته في ذلك، أي بأنه لا شريك له في ربوبيته ، ولا في ألوهيته، ولا في أسمائه وصفاته؛ قال الله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥]».

---

(١) عقيدة أهل السنة والجماعة (ص٨).

والله عَزَّوَجَلَّ له الأسماء الحسنى، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ونثبتها لله مع ما تتضمنه من صفات إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] .

قال العلَّامة محمد الأمين الشِّنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «معلوم أنَّ السَّمع والبصر من حيث هما سمع وبصر يتَّصف بهما جميع الحيوانات، فكأنَّ الله يشير للخلق ألَّا ينفوا عنه صفة سمعه وبصره، بادِّعاء أنَّ الحوادث تسمع وتبصر، وأنَّ ذلك تشبيه، بل عليهم أن يثبتوا له صفة سمعه وبصره على أساس ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، فالله جل وعلا له صفات لائقة بكماله وجلاله، والمخلوقات لهم صفات مناسبة لحالهم».

ففهم معاني أسماء الله عز وجل وصفاته الواردة في نصوص الوحي من القرآن والسُّنَّة كما أراد الله عَزَّوَجَلَّ؛ صيانة من تحريفات المبتدعين.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «آمنت بالله وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنت برسول الله ﷺ وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله».

وقال العلامة أبو زكريا السلماسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٥٥٠هـ)**[٣]: «اتفق أهل العلم أن أحدًا لم يجمع جمل الإيمان بالله وبرسوله كما جمعه الشافعي في

(١) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصِّفات (ص١١).

(٢) منازل الأئمة الأربعة (ص١٤٦).

(٣) منازل الأئمة الأربعة (ص١٤٦).

قوله الموجز».

وقال العلَّامة محمد الأمين الشِّنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّ ربَّ السَّموات والأرض يستحيل عقلًا أن يصفَ نفسه بما يلزمه محذور، ويلزمه محال، أو يؤدِّي إلى نقص».

وقال الأمين الشِّنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «المسلم إذا سمع صفة وصف بها الله، أوَّل ما يجب عليه أن يعتقد أن تلك الصِّفة بالغة من الجلال والكمال ما يقطع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين؛ فتكون أرض قلبه طيِّبة طاهرة للإيمان بالصِّفات على أساس التَّنزيه، على نحو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]».

فالله إله الحق هو الذي ابتدأ خلق عبيده من العدم، خلقهم ليعبدوه؛ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ثم إلى الله مرجع الخلق جميعًا ليحاسبهم وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ [الأنعام: ٦٢]، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «لأن في الدنيا أربابًا باطلة».

والله عَزَّ وَجَلَّ أحاط بكل شيء علمًا، وقهر كل مخلوق عزةً وحكمًا، ووسع كل شيء رحمة وعلمًا، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ

(١) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصِّفات (ص٣٧).

(٢) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصِّفات (ص٣٩).

(٣) الرد على الزنادقة والجهمية (ص١٨٩).

عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠][1].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنه لا حياة للقلوب، ولا نعيم ولا لذة، ولا سرور، ولا أمان، ولا طمأنينة، إلا بأن تعرف ربها ومعبودها، وفاطرها، بأسمائه وصفاته وأفعاله، ويكون أحب إليها مما سواه، ويكون سعيها في ما يقربها إليه ويدنيها من مرضاته».

وقال ابن القيم أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «فأساس دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم معرفة الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله، ثم يتبع ذلك أصلات عظيمان:

أحدهما: تعريف الطريق الموصلة إليه، وهي شريعته المتضمنة لأمره ونهيه.

الثاني: تعريف السالكين ما لهم بعد الوصول إليه من النعيم الذي لا ينفد، وقرة العين التي لا تنقطع».

والله عَزَّوَجَلَّ ربّى خلقه بالنعم ليعبدوه، ويألهوه محبةً وتعظيمًا وإجلالًا، فيؤدوا حق الله عليهم الذي لا يستحقه غيره، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[4]: «هذا أمر عام لجميع الناس بأمر

(١) لمعة الاعتقاد (ص٣، ٤).

(٢) الصواعق المرسلة (١/ ١٥٠).

(٣) الصواعق المرسلة (١/ ١٥١).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (ص٣٤).

عام وهو العبادة الجامعة لامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه وتصديق خبره، فأمرهم تعالى بما خلقهم له؛ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ».

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ **شارحًا عقيدته**[١]: «أعتقد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فلا أنفي عنه ما وصف به نفسه، ولا أُحرف الكلمَ عن مواضعه، ولا أُلحد في أسمائه وآياته، ولا أكيِّف، ولا أمثِّل صفاته تعالى بصفات خلقه؛ لأنه تعالى لا سميَّ له ولا كفؤ له، ولا ندَّ له، ولا يُقاس بخلقه؛ فإنه سبحانه أعلمُ بنفسه وبغيره، وأصدقُ قيلًا وأحسن حديثًا، فنزَّه نفسه عما وصفه به المخالفون من أهل التكييف والتعطيل؛ فقال: ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢]».

الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ أساسه توحيد الأسماء والصفات، فمن لم يعرف كمال أسماء الله ونعوته ولم يؤمن بها، كيف يتأله لله؟! ومن آمن بالله عَزَّوَجَلَّ وبأسمائه وصفاته، لم يعبد غيره؛ لأنَّه لا أحد يستحق العبادة إلا الله الأحد الصمد.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الإيمان بالصفات وتعرّفها: هو أساس الإسلام، وقاعدة الإيمان، وثمرة شجرة الإحسان؛ فمن جحد الصفات فقد

---

(١) مجموع مؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب (٣/ ٥)، قسم الرسائل الشخصية، رسالته إلى أهل القصيم.

(٢) مدارج السَّالكين (ص٨٨٠).

هدم أساس الإسلام والإيمان وثمرة شجرة الإحسان، فضلًا عن أن يكون من أهل العرفان».

الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ أساسه علم القلب واعتقاده وإراداته وعمله، وإنَّما يرجو الله ويخافه، ويتوكَّل عليه، وينيب إليه؛ من آمن بأسمائه وصفاته.

اعتقاد الموحدين بكمال أسماء الله وصفاته أثار قلوبهم إلىٰ قصد الله بالأعمال الصَّالحة، والنيَّات الخالصة، والحب والتألُّه له، وأوجب صلاح قلوبهم وقيام جوارحهم بعبوديَّة الله وحده.

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ التَّوحيد مبناه علىٰ إثبات تفرد الرَّب بصفات الكمال».

الإيمان بالله هو التَّوحيد العلمي في الاعتقاد بوحدانية الله وكمال أسمائه وصفاته، وقصده بالتَّوحيد العملي؛ فلا يُعبد إلا هو، ويُكفر بكلِّ ما يُعبد من دونه.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [سورة الكافرون: ١-٦]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [سورة الإخلاص: ١-٤].

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنَّ التَّوحيد

(١) توضيح الكافية الشَّافية (ص٩٧).

(٢) توضيح الكافية الشَّافية (ص١١٥)، باختصار يسير.

العملي يتفرع عنه - التوحيد الاعتقادي -، ويقوىٰ بقوَّته، ولأنَّه أكبر البراهين علىٰ توحيد الإلهية ووجوب إفراد الباري بالعبادة.

وهذا النوع مبني علىٰ أصلين عظيمين، أحدهما تنزيه الباري وتقديسه عما لا يليق بجلاله، وما ينافي كماله.

وحاصل هذا النوع يعود إلىٰ تنزيه الله عن مشاركة أحد من المخلوقين لله في شيء من صفات كماله، أو في حق من حقوقه وخصائصه، وإلىٰ حفظ صفات كماله عن أمور ثلاثة: عن تشبيهها بصفات المخلوقين، أو نفيها عن الله، أو نفي بعض معانيها.

فيُعلم أنَّ له الكمال المطلق الذي لا يمكن التعبير عن عظمته وكنهه، وأنَّ له من ذلك الكمال غايته ومنتهاه، وأكمله».

الإيمان بالله هو التَّوحيد العلمي الاعتقادي، والتَّوحيد العملي هو عبادة الله وحده لا شريك له.

ومن التَّوحيد العلمي معرفة نعمة الله بخلق عباده وهدايتهم إلىٰ الإسلام ومعافاتهم وحفظهم، فيوجب ذلك تحقيق التَّوحيد العملي بعبادة الله وذكره وشكره.

الإيمان بالله هو توحيده، وهو توحيده في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته.

وتوحيد الله في ربوبيته هو توحيده بأفعاله؛ فالله وحده هو الذي يحيي ويميت، وينفع ويضر، وهو الذي له ملك كل شيء، وخلق كل شيء، وهو

الذي يُدبِّر الأمر.

وتوحيد الله في أسمائه وصفاته؛ هو إفراده بما ثبت له من الأسماء والصفات بما يليق بكماله من غير تمثيل له بالمخلوقين، قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

وتوحيد الله في ألوهيته هو بإفراده بالعبادة وحده لا شريك له، قال تعالىٰ: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

فالمسلم الذي آمن بالله عَزَّوَجَلَّ وبأسمائه وصفاته، تحقيقه لتوحيد الأسماء والصفات يجعله يُفْرِد الله بالعبودية وحده، ويجعله يصمد إلىٰ الله وحده الذي إليه الأمر كله في الهداية والكفاية والنصر والرزق، فاعتقاد المسلم بتفرد الله بربوبية الملك والخلق والتدبير؛ هو الذي جعله يرغب إلىٰ الله ويقصده وحده لا شريك له.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الجمع الصحيح - الذي عليه أهل الاستقامة - هو جمع توحيد الربوبية وجمع توحيد الإلهية، فيشهد صاحبه قيوميَّة الرب تعالىٰ فوق عرشه، يُدبِّر أمر عباده وحده؛ فلا خالق ولا رازق، ولا مُعطي ولا مانع، ولا مميت ولا محيي، ولا مدبِّر لأمر المملكة - ظاهرًا وباطنًا - غيره؛ فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ولا يجري حادث إلا بمشيئته، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يعزب عنه مثقال ذرَّةٍ في

(١) مدارج السَّالكين (ص٩٨٤).

السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا أحصاها علمه، وأحاطت بها قدرته، ونفذت بها مشيئته، واقتضتها حكمته؛ فهذا جمع توحيد الربوبيَّة.

وأما جمع توحيد الإلهيَّة؛ فهو أن يجمع قلبه وهَمَّه وعزمه على الله، وإرادته وحركاته على أداء حقِّه تعالى، والقيام بعبوديته سبحانه؛ فتجتمع شئون إرادته على مراده الديني الشرعي.

وهذان الجمعان: هما حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فإن العبد يشهد من قوله: ﴿إِيَّاكَ﴾ الذات الجامعة لجميع صفات الكمال، التي لها كل الأسماء الحسنى، ثم يشهد من قوله: ﴿نَعْبُدُ﴾ جميع أنواع العبادة ظاهرًا وباطنًا، قصدًا وقولًا وعملًا، وحالًا واستقبالًا، ثم يشهد من قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ جميع أنواع الاستعانة والتوكُّل والتفويض؛ فيشهد منه جمع الربوبية، ويشهد من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ جمع الإلهية، ويشهد من ﴿إِيَّاكَ﴾ الذات الجامعة لكل الأسماء الحسنى والصفات العلى».

فتحقيق توحيد الأسماء والصفات موجب التأله والعبودية لله وحده لا شريك له، وموجب قصده بما يُدبر أمور خلقه.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]، وقال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١]، وقال سيد الحنفاء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه آزر: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «لا أحد سواه يستحق أن يؤلَّه ويُعبد، ويُصلَّىٰ له ويسجد، ويستحق نهاية الحب مع نهاية الذل؛ لكمال أسمائه وصفاته وأفعاله؛ فهو المطاع وحده على الحقيقة، والمألوه وحده، وله الحكم وحده.

فكلُّ عبودية لغيره باطلة وعناء وضلال، وكلُّ محبة لغيره عذاب لصاحبها، وكلُّ غنًى لغيره فقر وفاقة، وكل عزٍّ بغيره ذلٌّ وصغار، وكل تكثُّر بغيره قلَّة وذلَّة، فكما استحال أن يكون للخلق ربٌّ غيره؛ فكذلك استحال أن يكون لهم إله غيره؛ فهو الذي انتهت إليه الرغبات، وتوجهت نحوه الطلبات. ويستحيل أن يكون معه إله آخر؛ فإن الإله على الحقيقة هو الغني الصمد الكامل في أسمائه وصفاته».

من آمن بأسماء الله وصفاته، وتحقَّق بهذا التَّوحيد؛ قام بالإسلام، والإيمان بالله، والإحسان.

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «متىٰ منَّ الله على العبد بمعرفة صحيحة متلقَّاة من الكتاب والسُّنَّة، وتفقَّه في أسماء الله وصفاته، وتعبَّد لله بها، واجتهد أن يحقِّق مقام الإحسان؛ فيعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنَّه يراه، ولهج بذكر الله تعالىٰ؛ استنار قلبه، وحصل له من لذة المعرفة ومواجيد الإيمان أعظم اللذات، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم».

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص١٣٩).

(٢) توضيح الكافية الشَّافِيَة (ص١٣٠).

توحيد الله عَزَّوَجَلَّ بالمعرفة والإثبات يستلزم قصد الله بالعبودية وحده.

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «توحيد الإلهية وتوحيد العبادة، وهو إفراد الله بالعبادة الظاهرة والباطنة. وحقيقة هذا التوحيد هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشرِّه، والتقرُّب إلىٰ الله بمعرفة ذلك وفهمه واعتقاده؛ فإنه أصل التوحيد وأساسه.

ثم القيام التام بعبودية القلب، وهي قوة الإنابة إلىٰ الله بمحبته وخوفه ورجائه وسائر أعمال القلوب.

ثم القيام بالصلاة فرضها ونفلها، والزكاة، والصدقة، والصيام، والحج والعمرة، والجهاد في سبيل الله بالقول والفعل، وأداء حقوق الله وحقوق عباده الواجبة والمستحبة.

وترك ما يكرهه الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ من المحرَّمات والمكروهات، وإخلاص ذلك كلِّه لله تعالىٰ؛ فكلُّ هذا داخل في عبادة الله وتوحيده، ولا يتم ذلك إلا بتكميلها بالصدق، وهو الجد والاجتهاد في إيقاعها علىٰ أكمل الوجوه وأحسنها، وأن تكون موافقة لمرضاة الله عَزَّوَجَلَّ وما شرعه رسوله ﷺ؛ فهذه الثلاث: الإخلاص والمتابعة والصدق، من اجتمعت له تم له هذا التوحيد. فإن الإخلاص ينفي الشرك الأكبر، وهو صرف نوع من العبادة لغير الله واتخاذ ند مع الله، وكمال الإخلاص ينفي الشرك الأصغر في

---

(١) توضيح الكافية الشَّافِيَة (ص١٣٤).

الألفاظ ووسائل الشرك، والصدق ينفي الكسل والفتور ونقصان العمل، والمتابعة تنفي البدع القولية الاعتقادية والبدع الفعلية؛ فبهذا يتحقق التوحيد.

وكمال هذا بتكميل محبة الله وتقديمها على كل محبة، ومحبة ما يحبه الله، وكراهة ما يكرهه الله من الأشخاص والأعمال والأزمنة والأمكنة».

وحب الله عَزَّوَجَلَّ وموالاته واعتقاد كماله اطمأنت له نفوس الموحِّدين، فانقادت له طوعًا وعبوديَّة، وخوفًا ورغبة ورجاءً؛ فقامت بحق الله الخالص في عبوديَّته وحده لا شريك له.

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ محبوبهم - الموحِّدين - ليس كمثله شيء في كماله؛ فلا يرون كمالًا لهم ولا صلاحًا ولا فلاحًا إلا بمحبَّة ربهم. ومحبته في قلوبهم أحلى من كل شيء، وألذُّ من كل شيء، وأقوى من كل شيء، وبقوة محبته قاموا بعبوديته الظاهرة والباطنة.

وروح العبودية هي المحبة، وهو الذي وضع هذه المحبة في قلوبهم فأحبوه.

وكل من كانت محبته أكمل؛ كانت عبوديته لله أقوى وأتم. يحبون ربهم لذاته، ويحبونه لما قام به من صفات الكمال ونعوت الجلال والجمال، ويحبونه لما يغذوهم به من نعمه الظاهرة والباطنة، وخصوصًا أكبر النعم، وهو نعمة الإسلام الخالص والإيمان الكامل. وهو تعالى يحبهم لكمال إحسانه وسعة بره».

---

(١) توضيح الكافية الشَّافِيَة (ص١٢٥).

والسير إلىٰ الله إنَّما يكون بامتلاء القلب من الإيمان بأسماء الله وصفاته، والتألُّه له بحقائقها ومعانيها، فيقوم الموحِّدون بالسير إلىٰ الله باتِّباع صراطه المستقيم.

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **عن النبي** ﷺ **قال:** قال الله عَزَّوَجَلَّ في الحديث القدسي: «**ما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه، ولا يزال يتقرَّب إليَّ بالنَّوافل حتىٰ أحبه**»، رواه البخاري؛ فحب الإله لعباده المتقرِّبين له بطاعته وعبوديَّته هو الذي حرَّك النُّفوس إلىٰ مرضاته، وحرَّك العزائم إلىٰ مناجاته وقصده وإرادته والإقبال عليه.

وينزل ربُّنا إلىٰ السَّماء الدُّنيا حين يبقىٰ ثلث الليل الآخر، فيقول: «**من يدعوني فأستجيب له، من يستغفرني فأغفر له؟**» متفق عليه، فذلك الذي أيقظ المتهجدين لمناجاة رب العالمين.

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «السير إلىٰ الله هو سير القلوب بالعقائد الصَّحيحة النَّافعة التي تملأ القلب: معرفة، ويقينًا، وإيمانًا، وإخلاصًا، وقوَّة، وطيبًا، وسرورًا.

ومدارها علىٰ إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال، وتسهل علىٰ العبد الطَّاعات وأصناف القربات، وتورث محبة الله واللَّهج بذكره».

الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ هو اعتقاد كمال الخالق ربِّ كل مخلوق، وشهود

(١) توضيح الكَافية الشَّافِيَة (ص١٤٨).

كمال الله في الخلق والأمر والتَّدبير، والكفر بالتألُّه لكل مخلوق مربوب ناقص.

قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ الآلهة موجودة، ولكنَّ عبادتها ودعاءها باطل لا ينفع، والمقصود منها لا يحصل؛ فهو باطل، واعتقاد ألوهيَّتها باطل؛ أي غير مطابق، واتِّصافها بالإلهية في أنفسها باطل، لا بمعنىٰ أنَّه معدوم».

فالذي تتألهه القلوب حقًّا وصدقًا، وتعبده الجوارح؛ هو خالقها وباريها، الذي أعطىٰ كل شيء خلقه ثم هدىٰ، والذي يُدبِّر الأمر، وينصر ويرزق الخلق، ويورثهم الجنة بالعمل له، وهو الذي قد استخلفهم في الدُّنيا لعبوديَّته وحده.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة يونس: ٣١، ٣٢].

فالله عَزَّوَجَلَّ توجَّهت إليه قلوب خلقه؛ لكماله ولاضطرارها إليه، فلكماله أنابت إليه قلوب الموحِّدين، واستعانت به في ضروراتها إلىٰ الهداية والكفاية

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٥١٦).

والولاية، وجلب المنافع ودفع المضار.

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إنَّ كل عبد مضطر إلىٰ الله في كل أموره الدينية والدُّنيويَّة، ليس له غنًىٰ عنه طرفة عين، وإليه يلجأ في مهماته، ويقصده في كل حاجاته.

فإذا انتفت صفات الله علىٰ قول المعطِّلين - كحياة الله، وعلمه، وقدرته، وإرادته، ورحمته، وحكمته - لم يكن عند هذا المنفي عنه هذه الصفات مطالب الخلق، وفزعت الخليقة إلىٰ غيره، وتوجَّهت القلوب لمن يعلم بأحوالها، ويقدر علىٰ مصالحها، ومنافعها، ودفع مضارها، واضطرهم هذا الأمر إلىٰ الشِّرك.

وأما الإثبات لصفات كماله؛ فإنه أصل التَّوحيد، وأوصاف الكمال هي المقتضية لإجابة الدَّعوات، وتحصيل جميع المطلوبات، وبذلك يحصل للقلب الإنابة التامة، والإخلاص الكامل؛ لوجود المقتضىٰ من الداعي والمدعوِّ؛ فالدَّاعي وجود ضرورته التَّامة في كلِّ أموره، والمدعو عنده جميع المطالب، ولديه كل الرَّغائب، وهو الكفيل والوكيل، وهو نعم المولىٰ ونعم النَّصير؛ فالإثبات مستلزم لكمال الإخلاص والتَّوحيد، والنَّفي مستلزم للشِّرك».

نصمد لله وحده؛ لأنَّه الذي تنتهي إليه الرَّغبات، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ

---

(١) توضيح الكَافية الشَّافِيَة (ص١٦٦).

أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [سورة الإخلاص: ١، ٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «من معاني [الصمد]، وهو الذي يفتقر إليه كلُّ شيء، ويستغني عن كلِّ شيء. بل الأشياء مفتقرة من جهة ربوبيته، ومن جهة إلهيته؛ فما لا يكون به لا يكون، وما لا يكون له لا يصلح ولا ينفع ولا يدوم، وهذا تحقيق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]».

ولا نصمد لغير الله، ولا لمن لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فضلًا عن أن يملكه لغيره، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧].



(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٥١٥).

والإيمان بالله يقتضي الموالاة فيه، فمن آمن بالله لم يتَّخذ أعداءه أولياء له، بل إيمانه بالله يستلزم البراءة مما يُعبد من دونه، وممن عبد غيره وأشرك وكفر به.

والإيمان بالله وتوحيده لابد فيه من الولاء لله والبراء من الشرك والمشركين.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨١]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «بيّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن الإيمان بالله والنبي وما أُنزل إليه مستلزم لعدم ولايتهم، فثبوت ولايتهم يوجب عدم الإيمان؛ لأن عدم اللازم يقتضي عدم الملزوم.

وقال سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

فأخبر سبحانه أنه لا يوجد مؤمن يوادّ كافرًا، فمن وادّ الكفار فليس بمؤمن، فالمشابهة الظاهرة مظنة المودة؛ فتكون محرمة».

والتشبه بالكافرين مضاد للبراء منهم وكيف يتشبه المسلمون بالكافرين وقد أخبرنا الله بما تكنُّه صدورهم نحونا؟! قال سبحانه: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٣٣١).

وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

والكفار فرحهم عظيم بتشبه المسلمين بهم، وكلما عظم تشبه المسلمين بهم عظم فرحهم، ولا يرضيهم إلا أن نكون على دينهم، قال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ﴾ [النساء: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾ [البقرة: ١٢٠].

والتشبه بالكافرين يُضعف الدين، ويفسد عقيدة البراء من الكافرين، ويجعل المسلم مجافيًا لدينه متوليًا أعداءه، ساخرًا بقومه، منبهرًا بالكافرين الذين نعتهم الله بأنهم أعداؤه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

والتشبه بالكافرين هو دهليز المروق من الدين والكفر برب العالمين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قوله: ﴿كَٰفِرِينَ﴾، المراد به: الكفر المخرج عن الملة، لكنهم قد لا يستطيعون أن يخرجونا من الإيمان بالكلية، لكن بالتدريج مما يلقونه أمامنا من معوقات كمال الإيمان، حتى ينحل الإيمان شيئًا فشيئًا، ولا يبقى في القلوب شيء، وحينئذ يكون الكفر المحض».

والتشبه بالكافرين يُوقع في الشرك، وقد نص النبي ﷺ على هذا المعنى

---

(١) تفسير سورة آل عمران (١/ ٥٧٢).

بعينه؛ حتى يحفظ المسلمون عقيدتهم وتوحيدهم وإيمانهم، ففي «صحيح مسلم» من حديث جندب بن عبد الله البجلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس، وهو يقول: «**إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل؛ فإن الله قد اتخذني خليلًا، كما اتخذ إبراهيم خليلًا، ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد؛ ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إني أنهاكم عن ذلك**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وصف ﷺ أن الذين كانوا قبلنا كانوا يتخذون قبور الأنبياء والصالحين مساجد، وعقّب هذا الوصف بالأمر بحرف الفاء، أن لا يتخذوا القبور مساجد، وقال إنه ﷺ ينهانا عن ذلك، ففيه دلالة على أن اتخاذ من قبلنا سبب لنهينا، إما مظهر للنهي، وإما موجب للنهي، وذلك يقتضي: أن أعمالهم دلالة وعلامة على أن الله ينهانا عنها، أو أنها علة مقتضية للنهي».

ومن أوضح الأدلة على أن التشبه بالكافرين يُوقع في الشرك: حديث أبي واقد الليثي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين، ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم، يُقال لها: ذات أنواط. فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله! اجعل

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ١٩٨، ١٩٩)، ط: دار الفضيلة.

لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله ﷺ: «**الله أكبر! إنها السنن، قلتم - والذي نفسي بيده - كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ:** ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَـٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، **لتركبن سنن من كان قبلكم**»، رواه مالك، والنسائي، والترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح.

والبراءة من الشرك والكفر والكافرين، وترك موالاتهم وموادتهم والتشبه بهم؛ من أوضح شعائر الإسلام، وهي صفة المؤمنين الذين تحققوا بالإيمان والتوحيد، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «ونظائر هذا في غير موضع من القرآن: يأمر سبحانه بموالاة المؤمنين حقًّا - الذين هم حزبه وجنده - ويُخبر أن هؤلاء لا يوالون الكافرين، ولا يوادونهم».

وظهور هذه العقيدة في شرع الإسلام ووضوحه يعرفه المشركون معرفة ظاهرة، فضلًا عن أهل الإسلام أنفسهم، فقد روىٰ مسلم في صحيحه عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها، ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ النبيَّ ﷺ، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ١١٦).

ٱلْمَحِيضِۖ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فقال رسول الله ﷺ: «**اصنعوا كل شيء إلا النكاح**»، فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا إلَّا خالفنا فيه.

ومخالفة الشرك والكفر والمشركين هو من تحقيق التوحيد ولزوم الدين، ومن أسباب ظهوره وظهور شرائعه؛ فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ، قال: «**لا يزال الدين ظاهرًا ما عجّل الناس الفطر؛ لأن اليهود والنصارىٰ يؤخرون**»، رواه أبو داود.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «وهذا نص في أن ظهور الدين الحاصل بتعجيل الفطر لأجل مخالفة اليهود والنصارىٰ.

وإذا كان مخالفتهم سببًا لظهور الدين، فإنما المقصود بإرسال الرسل أن يظهر دين الله علىٰ الدين كله، فيكون نفس مخالفتهم من أكبر مقاصد البعثة».

ومع كثرة الأدلة من القرآن والسنة الآمرة بالبراء من الكافرين ومخالفتهم، فالعقل يقتضي ذلك، فالتوحيد والصلاة وقراءة القرآن تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر، قال تعالىٰ: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥]، والكفر والأهواء لا تبعث ولا تدعو إلا إلىٰ الأعمال الفاسدة، قال تعالىٰ: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ١٣١).

كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فالكفر بمنزلة مرض القلب، وأشد، ومتى كان القلب مريضًا، لم يصح شيء من الأعضاء صحة مطلقة، وإنما الصلاح: أن لا تُشبه مريض القلب في شيء من أموره، وإن خفي عليك مرض ذلك العضو، لكن يكفيك أن فساد الأصل لا بد أن يؤثر في الفرع».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في شأن أعمال الكافرين**[2]: «إن جميع ما يعملونه - مما ليس من أعمال المسلمين السابقين - إما كفر، وإما معصية، وإما شعار كفر، أو معصية، وإما مظنة للكفر والمعصية، وإما أن يخاف أن يجر إلى معصية، وما أحسب أحدًا ينازع في جميع هذا».

والواجب على المسلمين التأسي والتشبه بخير خلق الله أجمعين، الأسوة الحسنة، المعصوم، المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٢١]، والتشبه بالصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ الذين قال فيهم النبي ﷺ: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم**»، متفق عليه من حديث عمران بن حصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص١٢٥).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص١٦١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «وقد قال تعالى لنبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وذلك يقتضي تبرّؤه منهم في جميع الأشياء. ومن تابع غيره في بعض أموره، فهو منه في ذلك الأمر، لأن قول القائل: أنا من هذا، وهذا مني. أي: أنا من نوعه، وهو من نوعي؛ لأن الشخصين لا يتحدان إلا بالنوع، كما في قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥] وقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لعلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**أنت مني وأنا منك**».

فقول القائل: لست من هذا في شيء. أي: لست مشاركًا له في شيء، أنا متبريء من جميع أموره.

وإذا كان قد برّأ الله رسوله ﷺ من جميع أمورهم، فمن كان متبعًا للرسول ﷺ حقيقة كان متبرئًا من جميع أمورهم، فمن كان متبعًا للرسول ﷺ كان متبرئًا كتبرُّئه، ومن كان موافقًا لهم كان مخالفًا للرسول ﷺ بقدر موافقته لهم، فإن الشخصين المختلفين من كل وجه في دينهما، كلما شابهت أحدهما، خالفت الآخر».

وقد أخبرنا الله عَزَّوَجَلَّ أن أعمال الكافرين ضلال، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٨]، وهذا كافٍ في الزجر عن التشبه بالكافرين، قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «﴿وَأَضَلَّ﴾ الله ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: أبطلها وأشقاهم بسببها، وهذا يشمل أعمالهم التي

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص١١٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص ٧٥٠، ٧٥١).

عملوها ليكيدوا بها الحق وأولياء الله؛ أن الله جعل كيدهم في نحورهم، فلم يُدركوا مما قصدوا شيئًا، وأعمالهم التي يرجون أن يُثابوا عليها، أن الله سيُحبطها عليهم، والسبب في ذلك أنهم اتبعوا الباطل، وهو كل غاية لا يُراد بها وجه الله من عبادة الأصنام والأوثان، والأعمال التي في نصر الباطل لما كانت باطلة؛ كانت الأعمال لأجلها باطلة».

والكفار فرحهم عظيم بتشبه المسلمين بهم، وكلما عظم تشبه المسلمين بهم عظم فرحهم، ولا يرضيهم إلا أن نكون على دينهم، قال تعالىٰ: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ﴾ [النساء: ٨٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾ [البقرة: ١٢٠].

والتشبه بالكافرين يُضعف الدين، ويفسد عقيدة البراء من الكافرين، ويجعل المسلم مجافيًا لدينه متوليًا أعداءه، ساخرًا بقومه، منبهرًا بالكافرين الذين نعتهم الله بأنهم أعداؤه، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

فالواجب علىٰ المسلم تلقِّي هديه من خير البرية، محمد ﷺ، علمًا واعتقادًا وعملًا وسلوكًا، ومجانبة أهواء المغضوب عليهم والضالين.

والموالاة للمؤمنين والبراءة من الكافرين باعثها حب الله والإيمان به، وكلما قوي إيمان العبد قويت محبته للمؤمنين وموالاته لهم، فإن «**أوثق عرىٰ الإيمان الحب في الله والبغض في الله**»، كما قال النبي ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وإنما عبد الله من يرضيه ما يُرضي الله، ويُسخطه ما يُسخط الله، ويُحبُّ ما أحبه الله ورسوله ﷺ، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله ﷺ، ويوالي أولياء الله، ويُعادي أعداء الله تعالىٰ، وهذا هو الذي استكمل الإيمان، كما في الحديث: «**من أحبَّ لله، وأبغض لله، وأعطىٰ لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**»، وقال: «**أوثق عُرىٰ الإيمان: الحُبُّ في الله، والبُغض في الله**»، وفي الصحيح عنه ﷺ: «**ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله ﷺ أحبَّ إليه مما سواهما، ومن كان يُحبُّ المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يُلقىٰ في النار**». فهذا وافق ربَّه فيما يُحبُّهُ وما يكرهه، فكان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأحبَّ المخلوق لله لا لغَرَضٍ آخر، فكان هذا من تمام حُبِّه لله، فإنَّ محبَّة مَحْبُوبِ المحبوب من تمام محبة المحبوب، فإذا أحبَّ أنبياء الله - عليهم السلام - وأولياء الله لأجل قيامهم بمحبوبات الحقِّ، لا لشيء آخر، فقد أحبَّهم لله لا لغيره، وقد قال تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ**﴾ [آل عمران: ٣١]، فإن الرسول ﷺ يأمر بما يُحبُّ الله، وينهىٰ عمَّا يبغضه الله، ويفعل ما يُحبُّه الله، ويُخبر بما يُحبُّ الله التصديق به.

---

(١) العبودية (ص ٨٢، ٨٣).

فمن كان مُحبًّا لله لزم أن يتَّبع الرَّسول ﷺ، فيُصدِّقه فيما أخبر، ويُطيعه فيما أمر، ويتأسَّىٰ به فيما فَعَلَ، ومن فعل هذا فقد فعل ما يُحبُّه الله؛ فيُحبُّه الله».

والبراءة من الشرك والمشركين والكفر والكافرين هو من تجريد التأله لله رب العالمين، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ تحقق القلب بمعنىٰ «لا إله إلا الله»، وصدقه فيها، وإخلاصه بها يقتضي أنْ يرسخَ فيه تألُّهُ الله وحده؛ إجلالًا، وهيبةً، ومخافةً، ومحبَّةً، ورجاءً، وتعظيمًا، وتوكُّلًا، ويمتلئَ بذلك، وينتفيَ عنه تألُّه ما سواه من المخلوقين، ومتىٰ كان كذلك، لم يبقَ فيه محبَّةٌ، ولا إرادةٌ، ولا طلبٌ لغير ما يُريدُهُ الله ويحبُّه ويطلبه، وينتفي بذلك مِنَ القلب جميعُ أهواءِ النُّفوس وإراداتها، ووساوس الشيطان، فمن أحب شيئًا وأطاعه، وأحبَّ عليه وأبغض عليه؛ فهو إلهُهُ، فمن كان لا يحبُّ ولا يبغضُ إلا لله، ولا يُوالي ولا يُعادي إلا له، فالله إلههُ حقًّا، ومن أحبَّ لهواه، وأبغض له، ووالىٰ عليه، وعادىٰ عليه، فإلهه هواه، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، قالَ الحسن: هوَ الذي لا يهوىٰ شيئًا إلا ركبه. وقال قتادة: هوَ الذي كلما هَوِيَ شيئًا ركبه، وكلما اشتهىٰ شيئًا أتاه، لا يَحجزُهُ عن ذلك ورعٌ ولا تقوىٰ».

وهل تغيّرت ملة إبراهيم في جزيرة العرب ووقع الشرك وحُرّم الحلال

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص ٣٩٦).

إلا بسبب التشبه بالكافرين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن عمرو بن لحي هو أول من نصب الأنصاب حول البيت، ويُقال: إنه جلبها من البلقاء، من أرض الشام، متشبهًا بأهل البلقاء، وهو أول من سيّب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمىٰ الحامي، فأخبر النبي ﷺ أنه رآه «**يجر قصبه في النار**»، وهي الأمعاء، ومنه سُمي القصاب بذلك، لأنها تُشبه القصب، ومعلوم أن العرب قبله كانوا علىٰ ملة أبيهم إبراهيم، علىٰ شريعة التوحيد، والحنيفية السمحة، دين أبيهم إبراهيم.

فتشبّهوا بعمرو بن لحي وكان عظيم أهل مكة يومئذ، لأن خزاعة كانوا ولاة البيت قبل قريش، وكان سائر العرب متشبهين بأهل مكة؛ لأن فيها بيت الله، وإليها الحج، ما زالوا مُعظّمين من زمن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فتشبه عمرو بمن رآه في الشام، واستحسن بعقله ما كانوا عليه، ورأىٰ أن في تحريم ما حرّمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي تعظيمًا لله ودينًا، فكان ما فعله أصل الشرك في العرب، أهل دين إبراهيم، وأصل تحريم الحلال، وإنما فعله متشبهًا فيه بغيره من أهل الأرض، فلم يزل الأمر يتزايد ويتفاقم حتىٰ غلب علىٰ أفضل الأرض الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، وتغير دينه الحنيف، إلىٰ أن بعث الله رسوله ﷺ فأحيا ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأقام التوحيد، وحلّل ما كانوا يحرمونه».

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٢٠٩).

فاتباع صراط الله المستقيم، ومخالفة أصحاب الجحيم، هو حقيقة الدِّين، وهكذا كان السابقين الأولين.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «من كانت له خبرة بالسيرة علم يقينًا أن المسلمين على عهده ﷺ ما كانوا يشركونهم –الكفار – في شيء من أمرهم».

وقال[(٢)]: «ثم على هذا جرى عمل المسلمين على عهد الخلفاء الراشدين».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «كلما كثرت المخالفة بينك وبين أصحاب الجحيم، كان أبعد عن أعمال أهل الجحيم».

والنهي عن مشابهة الكافرين، هذا عام في كل ما اختصوا به، وإذا كان من شعارهم، فالنهي أغلظ وأشد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]: «إن الموافقة في جميع العيد موافقة في الكفر، والموافقة في بعض فروعه موافقة في بعض شعب الكفر، بل الأعياد هي من أخص ما تتميز به الشرائع، ومن أظهر ما لها من الشعائر، فالموافقة فيها موافقة في أخص شرائع الكفر، وأظهر شعائره، ولا ريب أن الموافقة في هذا قد تنتهي إلى الكفر في الجملة بشروطه».

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٣٠٢، ٣٠٣).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٣٠٣).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٣٠٠).

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٣١٧).

ومشابهة الكفار في صغير أمورهم يفضي إلىٰ مشابهتهم في شعائرهم وأمورهم الكبيرة؛ فلا ريب في تحريم هذا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إذا كانت المشابهة في القليل ذريعة ووسيلة إلىٰ بعض هذه القبائح، كانت محرمة، فكيف إذا أفضت إلىٰ ما هو كفر بالله؛ من التبرك بالصليب والتعميد في المعمودية، أو قول القائل: المعبود واحد وإن كانت الطرق مختلفة. ونحو ذلك من الأقوال والأفعال التي تتضمن: إما كون الشريعة النصرانية واليهودية المبدلتين المنسوختين موصلة إلىٰ الله، وإما استحسان بعض ما فيها مما يخالف دين الله، أو التدين بذلك، أو غير ذلك مما هو كفر بالله وبرسوله وبالقرآن وبالإسلام بلا خلاف بين الأمة الوسط في ذلك، وأصل ذلك المشابهة والمشاركة.

وبهذا يتبين لك **كمال موقع الشريعة الحنيفية**، وبعض حكمة ما شرعه الله لرسوله ﷺ من **مباينة الكفار ومخالفتهم في عامة أمورهم؛ لتكون المخالفة أحسم لمادة الشر، وأبعد عن الوقوع فيما وقع فيه الناس**».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا علّة النهي عن التشبه بالكفار مطلقًا[٢]: «استدلالنا بأصول الشريعة يوجب النهي عن هذه الذريعة، فكيف

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٣٢٥).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٣٢٥).

وقد رأينا من المنكرات التي أفضت إليها المشابهة ما قد يوجب الخروج من الإسلام بالكلية؟!

وسر هذا الوجه: أن المشابهة تفضي إلىٰ كفر، أو معصية غالبًا، أو تفضي إليهما في الجملة، وليس في هذا المفضي مصلحة، وما أفضىٰ إلىٰ ذلك كان محرمًا، فالمشابهة محرّمة. والمقدمة الثانية لا ريب فيها، فإن استقراء الشريعة في مواردها ومصادرها دال علىٰ أن ما أفضىٰ إلىٰ الكفر - غالبًا - حرم، وما أفضىٰ إليه علىٰ وجه خفي حرم، وما أفضىٰ إليه في الجملة ولا حاجة تدعو إليه حرم، كما قد تكلمنا علىٰ قاعدة الذرائع في غير هذا الكتاب».

وشريعة الإسلام كمالها يغني عن التشبه بأهل الشرائع المنسوخة والمُحرّفة والمبدّلة، وليت الناس أخذوا ما آتاهم الله بقوة من الشريعة الكاملة الناسخة لما سبقها من الشرائع حتىٰ يأخذوا مما لا يجوز من أعمال الضالين والمغضوب عليهم، ولكن ضيّعوا، إلا ما شاء الله.

ومعلوم أن من تشبّه بالكفار ضعف دينه وإيمانه وربما ذهب بالكلية بحسب ما تشبّه بهم فيه، ومن كان هذا شأنه ضعفت رغبته في الأخذ بالشريعة الكاملة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الله شرع علىٰ لسان خاتم

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٣٢٦).

النبيين من الأعمال ما فيه صلاح الخلق على أتم الوجوه، وهو الكمال المذكور في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ [المائدة: ٣] ولهذا أنزل الله هذه الآية في أعظم أعياد الأمة الحنيفية، فإنه لا عيد في النوع أعظم من العيد الذي يجتمع فيه المكان والزمان وهو عيد النحر، ولا عين من أعيان هذا النوع أعظم من يوم كان قد أقامه رسول الله ﷺ بعامة المسلمين، وقد نفى الله تعالى الكفر وأهله. والشرائع هي غذاء القلوب وقوتها كما قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ - ويُروى مرفوعًا: «إن كل آدب يُحب أن تؤتى مأدبته، وإن مأدبة الله هي القرآن».

ومن شأن الجسد إذا كان جائعًا فأخذ من طعام حاجته، استغنى عن طعام آخر، حتى لا يأكله إن أكل منه إلا بكراهة وتجشم، وربما ضره أكله، أو لم ينتفع به، ولم يكن هو المغذي له الذي يقيم بدنه، فالعبد إذا أخذ من غير الأعمال المشروعة بعض حاجته قلّت رغبته في المشروع وانتفاعه به بقدر ما اعتاض من غيره، بخلاف من صرف نهمته وهمَّته إلى المشروع، فإنه تعظم محبته له ومنفعته به، ويتم دينه ويكمل إسلامه».

ومشابهة الكفار في الظاهر تُوقع في المشابهة في الباطن، ناهيك عما يورثه ذلك من محاكاتهم في أخلاقهم وصفاتهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الله تعالى جبل بني آدم -

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٣٢٩، ٣٣٠).

بل سائر المخلوقات - على التفاعل بين الشيئين المتشابهين، وكلما كانت المشابهة أكثر كان التفاعل في الأخلاق والصفات أتم، حتى يؤول الأمر إلى أن لا يتميّز أحدهما عن الآخر إلّا بالعين فقط، ولما كان بين الإنسان وبين الإنسان مشاركة في الجنس الخاص كان التفاعل فيه أشد، ثم بينه وبين سائر الحيوان مشاركة في الجنس المتوسط، فلا بد من نوع تفاعل بقدره، ثم بينه وبين النبات مشاركة في الجنس البعيد مثلًا، فلا بد من نوع ما من المفاعلة.

ولأجل هذا الأصل وقع التأثر والتأثير في بني آدم، واكتساب بعضهم أخلاق بعض بالمعاشرة والمشاكلة، وكذلك الآدمي إذا عاشر نوعًا من الحيوان اكتسب بعض أخلاقه، ولهذا صار الخيلاء والفخر في أهل الإبل، وصارت السكينة في أهل الغنم، وصار الجمّالون والبغّالون فيهم أخلاق مذمومة من أخلاق الجمال والبغال، وكذلك الكلّابون، وصار الحيوان الإنسي فيه بعض أخلاق الناس من المعاشرة والمؤالفة وقلة النفرة.

فالمشابهة والمشاكلة في الأمور الظاهرة توجب مشابهة ومشاكلة في الأمور الباطنة على وجه المسارقة والتدريج الخفي.

وقد رأينا اليهود والنصارى الذين عاشروا المسلمين هم أقل كفرًا من غيرهم[١]، كما رأينا المسلمين الذين أكثروا من معاشرة اليهود والنصارى هم أقل إيمانًا من غيرهم ممن جرّد الإسلام، والمشاركة في الهدي الظاهر

(١) لا يخالطهم بقصد دعوتهم للإسلام إلا من كان قويًّا في دينه وعلمه.

توجب أيضًا مناسبة وائتلافًا وإن بعُد المكان والزمان».

والتشبه بالكافرين قد يكون كفرًا وقد يكون معصية؛ بحسب ما تُشبه بهم فيه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، ولحديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تشبّه بقوم فهو منهم**»، رواه أحمد، وجوّد إسناده شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)].

وقال عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «من بنى بأرض المشركين، وصنع نيروزهم، ومهرجانهم، وتشبّه بهم حتى يموت؛ حُشر معهم يوم القيامة».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «قد يُحمل هذا على التشبه المطلق، فإنه يوجب الكفر، ويقتضي تحريم أبعاض ذلك، وقد **يُحمل على أنه منهم في القدر المشترك الذي شابههم فيه، فإن كان كفرًا، أو معصية، أو شعارًا لها، كان حكمه كذلك**».

والموالاة للكافر قد تكون كفرًا مخرجًا من الملة وقد تكون ذنبًا؛ بحسب نية من والاهم ونوع موالاته، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص١٦٣).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص١٦٤).

(٣) شرح حديث جبريل (ص ٤٠٣، ٤٠٤).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقد يحصل من الرجل نوع من موادتهم لرحم أو حاجة، فيكون ذنبًا ينقص به إيمانه، ولا يكون به كافرًا، كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، لما كاتب المشركين ببعض أخبار النبي ﷺ، وأنزل الله فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾ الآية [الممتحنة: ١].

وكما حصل من سعد بن عبادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما انتصر لابن أُبَيٍّ، نوبة الإفك، فقال لسعد بن معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: كذبت، لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله.

قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: وكان قبل ذلك رجلًا صالحًا، ولكن احتملته الحمية.

ولهذه الشبهة سمى عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حاطبًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ منافقًا، فقال: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق. فقال له: «**إنه قد شهد بدرًا**». فكان عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ متأولًا في تسميته منافقًا للشعبة التي فعلها، وكذلك قول أسيد بن حضير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لسعد بن عبادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: كذبت لعمر الله لنقتلنه، إنما أنت منافق تجادل عن المنافقين. هو من هذا الباب.

وكذلك قول من قال من الصحابة عن مالك بن الدخشن: منافق. إن كان قال ذلك، لما رأى فيه من نوع معاشرة، ومودة للمنافقين.

ولهذا لم يكن المتهمون بالنفاق نوعًا واحدًا، بل فيهم المنافق

المحض، وفيهم من فيه إيمان ونفاق، وفيهم من إيمانه غالب، وفيه شعبة من النفاق، وكان كثير ذنوبهم بحسب ظهور الإيمان، ولما قوي الإيمان - وظهور الإيمان وقوته عام تبوك -؛ صاروا يتعاقبون من النفاق على ما لم يكونوا يتعاقبون عليه قبل ذلك».

وقال شيخ الإسلام أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «والنفاق كالكفر، نفاق دون نفاق ولهذا كثيرًا ما يقال: كفر ينقل من الملة، وكفر لا ينقل، ونفاق أكبر، ونفاق أصغر، كما يقال: الشرك شركان: شرك أكبر وأصغر».

والأمة - ولله الحمد - مجمعة على مقتضى الدليل من الكتاب والسنة من تحريم التشبه بالكافرين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «عامة علماء الإسلام من المتقدمين، والأئمة المتبوعين وأصحابهم في تعليل النهي عن أشياء بمخالفة الكفار، أو مخالفة النصارى، أو مخالفة الأعاجم، وهو أكثر من أن يمكن استقصاؤه، وما من أحد له أدنى نظر في الفقه إلَّا وقد بلغه من ذلك طائفة، وهذا بعد التأمل والنظر يورث علمًا ضروريًّا باتفاق الأئمة على النهي عن موافقة الكفار والأعاجم، والأمر بمخالفتهم».

وقبل كلام الفقهاء إجماع الصحابة السابق، كما جاء في شروط أمير

---

(١) شرح حديث جبريل (ص ٤٠٥).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٢٣٣).

المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ على أهل الذمة من نهيهم عن إظهار شعائرهم وشرائعهم، ونهيهم عن التشبه بالمسلمين.

فالمؤمن ينظر في علو الكافرين وظهورهم في هذه الأيام في ضوء قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران: ١٩٧].

ومهما أوتي الكفار من حذق في تدبير أمورهم، فإن مآلهم إلى الضعف، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٨]، بينما أولياء الله يدبّر أمورهم الله الذي قال حاثًّا على التوكل عليه: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣].

والمبتدع كذلك لا يجوز التشبه به وتجب البراءة من بدعته وردّها ونصيحة المسلمين في ذلك، فإن إقرارها سبب لتغيير الشريعة، والبدع بريد الكفر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن من أصل دروس دين الله وشرائعه وظهور الكفر والمعاصي؛ التشبه بالكافرين، كما أن من أصل كل خير المحافظة على سنن الأنبياء وشرائعهم، ولهذا عظم وقع البدع في الدين، وإن لم يكن فيها تشبُّه بالكفار، فكيف إذا جمعت الوصفين؟».

وقال أيضًا[٢]: «أما مشابهة الكفار فكمشابهة أهل البدع وأشد».

على كل حال: البدع منهي عنها وعن التشبه بأهلها سواء وافقت الكافرين

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٢١٠).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٣١٩).

أم لم توافقهم، فكل من البدعة والكفر منهي عنه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «جميع الأدلة الدالة من الكتاب والسنة والإجماع على قبح البدع، وكراهتها تحريمًا أو تنزيهًا؛ تندرج هذه المشابهات فيها، فيجتمع فيها أنها بدع محدثة، وأنها مشابهة للكافرين، وكل واحد من الوصفين موجب للنهي؛ إذ المشابهة منهي عنها في الجملة ولو كانت في السلف[٢]، والبدع منهي عنها في الجملة، ولو لم يفعلها الكفار، فإذا اجتمع الوصفان صارا علتين مستقلتين في القبح والنهي».

وعند الحديث عن موالاة الكفار والبراءة منهم، لا بد أن يُميّز طالب العلم بين موالاة الكافر ومعاملة الكافر، فمعاملة الكافر وفق قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، لا شيء فيها إذا لم تتضمن محظورًا، فهذا ليس كحبهم وحب ظهور دينهم.

والاستعانة بالكافر حيث تقتضيه الحاجة أو الضرورة لمصلحة الإسلام والمسلمين لا بأس بذلك، فالنبي ﷺ استعان بعمه الكافر أبي طالب في بداية الدعوة عند تسلط كل الأعداء عليه، وأبو بكر الصدّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بمكة دخل في جوار ابن الدغنة وهو كافر، رواه البخاري.

والنبي ﷺ أمر بعض أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، وكان النجاشي

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٢٨٦).

(٢) أي في زمنهم.

نصرانيًّا، ولم يُسلم بعد.

والنبي ﷺ أعانه بنو هاشم وبنو عبد المطلب وأعيان قريش كالمطعم بن عدي في فك الحصار عنه وعن أصحابه في حصار الشعب.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «فحمىٰ الله رسوله بعمِّه أبي طالب، لأنه كان شريفًا مُعظَّمًا في قريش، مُطاعًا في أهله، وأهل مكة لا يتجاسرون علىٰ مكاشفته بشيء من الأذىٰ».

وقال ابن القيم أيضًا(٢): «وكانت قريش في ذلك بين راضٍ وكاره، فسعىٰ في نقض الصحيفة من كان كارهًا لها، وكان القائم بذلك هشام بن عمرو بن الحارث بن حبيب بن نصر بن مالك، مشىٰ في ذلك إلىٰ المطعم بن عدي وجماعة من قريش، فأجابوه إلىٰ ذلك».

وقال تعالىٰ في شأن دفع بعض قوم شعيب الكفرة عنه: ﴿قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

والنبي ﷺ في هجرته إلىٰ المدينة استأجر عبد الله بن أُريقط ليدله علىٰ طريق الهجرة، والهجرة كانت هي اللحظة الحاسمة في ظهور الإسلام وعزته وتأسيس دولته.

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٢).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٣٠).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «في استئجار النبي ﷺ عبد الله بن أريقط الديلي هاديًا في وقت الهجرة وهو كافر دليل على جواز الرجوع إلى الكافر في الطب والكحل والأدوية والكتابة والحساب والعيوب ونحوها، ما لم يكن ولاية تتضمن عدالة، ولا يلزم من مجرد كونه كافرًا أن لا يوثق به في شيء أصلًا، فإنه لا شيء أخطر من الدلالة في الطريق، ولا سيما في مثل طريق الهجرة».

واستعار النبي ﷺ من صفوان بن أمية أدراعه وكان كافرًا يوم حنين، قال ابن القيم في «فوائده»(٢): «إن الإمام له أن يستعير سلاح المشركين وعُدتهم لقتال عدوه، كما استعار رسول الله ﷺ أدراع صفوان، وهو يومئذ مشرك».

وقال الشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «أدركت الأئمة - الفقيه منهم وغير الفقيه - يغزون بأهل الذمة فيقسمون لهم، ويضعون عنهم من جزيتهم».

وسُئل قتادة عن أهل العهد يغزون مع المسلمين؟ قال: لهم ما صالحوا عليه، ما جُعل لهم فهو لهم(٤).

وقال أبو حنيفة الإمام في الاستعانة بالكافر(٥): «يجوز حيث يستقيمون على أوامر ونواهي الإمام».

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٢٠٨)، ط: دار الفكر.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٤٧٩).

(٣) المحلى (٧/ ٣٣٤).

(٤) رواه عبد الرزاق عن معمر سمعت قتادة، المحلى (٧/ ٣٣٤)، إسناده صحيح.

(٥) نيل الأوطار (٧/ ٢٤٤)، ط: دار الكتب العلمية.

وقال محمد بن عيسىٰ بن أصبغ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «رُوي عن مالك أنه أجاز أن يُستعان بهم في القتال إذا كانوا ناحيةً، قال: ولا بأس أن يقوم بمن سالمه من الحربيين علىٰ من لم يُسالمه».

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «وإن كان مشرك يغزو مع المسلمين، وكان معه في الغزو من يطيعه من مسلم أو مشرك، وكانت عليه دلائل الهزيمة والحرص علىٰ غلبة المسلمين وتفريق جماعتهم لم يجز أن يغزو به، وإن غزا به لم يُرضخ له؛ لأن هذا إذا كان في المنافقين مع استتارهم بالإسلام كان في المكتشفين في الشرك مثله فيهم أو أكثر إذا كانت أفعاله كأفعالهم أو أكثر، ومن كان من المشركين علىٰ خلاف هذه الصفة فكانت فيه منفعة للمسلمين بدلالة علىٰ عورة عدو، أو طريق، أو ضيعة، أو نصيحة للمسلمين؛ فلا بأس أن يغزىٰ به، وأحب إليَّ أن لا يُعطىٰ من الفيء شيئًا، ويستأجر إجارة».

وأما بالنسبة لفقه الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذلك، فقد قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «وعن أحمد ما يدل علىٰ جواز الاستعانة به، وكلام الخرقي يدل عليه أيضًا عند الحاجة».

---

(١) الإنجاد في أبواب الجهاد (ص ١٥٣).

(٢) الأم (٤/ ١٦٦)، ط: دار المعرفة.

(٣) المغني (١٣/ ٩٨).

ثم قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «ويُشترط أن يكون من يُستعان به حسن الرأي في المسلمين، فإن كان غير مأمون عليهم لم يجز الاستعانة به؛ لأننا إذا منعنا الاستعانة بمن لا يُؤْمَن من المسلمين، مثل المُخذّل والمُرْجِف، فالكافر أولى».

وأما حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا **أنها قالت:** خرج رسول الله ﷺ قِبَلَ بدر، فلما كان بحَرَّة الوبرة - على مسافة ثلاثة أميال من المدينة -، أدركه رجل قد كان يُذكر منه جُرأة ونجدة، ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه، فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ: جئت لأتبعك وأصيب معك. قال له رسول الله ﷺ: «**تؤمن بالله ورسوله؟**» قال: **لا!**

قال: «**ارجع، فلن أستعين بمشرك**»[(٢)].

فقد أجاب عنه الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **بقوله**[(٣)]: «لعله ردّه رجاء إسلامه، وذلك واسع للإمام أن يرد المشرك فيمنعه الغزو، ويأذن له».

فمعنى كلام الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الأمر في ذلك إلى رأي الإمام، وقيل: إن الاستعانة كانت ممنوعة ثم رُخص فيها. قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]:

(١) المغني (١٣/ ٩٨).

(٢) رواه مسلم كتاب الجهاد، باب كراهية الاستعانة في الغزو بكافر (رقم ١٨١٧).

(٣) الأم (٤/ ١٦٧).

(٤) التلخيص الحبير (٤/ ١٠١).

«وهذا أقربها».

وعند الحديث عن موالاة الكافرين وعن معاملتهم لا بد من التمييز بين مداراة الكافر ومداهنة الكافر، فالمداراة بذل الدنيا من أجل الدين، والمداهنة بذل الدين من أجل الدنيا، وهذا لا يجوز.

قال العلامة المجدّد عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾ [آل عمران: ٢٨] يعني: إلا أن يفعل ذلك المؤمن تُقاةً له من جورهم وسلطانهم، ويخشى شرهم، فيجاملهم ويداريهم من باب المداراة واتقاء الشر، لا من باب المحبة في الباطن، والله يعلم ما في القلوب، ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ٢٩]، فالله يعلم ما في القلوب والضمائر ويعلم من يواليهم عن محبة وقصد، ومن هو ليس كذلك، ويجازيهم على نياتهم.

والموالاة تصنع الحبَّ في القلوب، ثم ينتج عنها موالاة بالنصرة والتأييد والمساعدة على المسلمين. والمعاداة تصنع البغضاء في القلب ثم ينتج عنها ما يجب من مقاطعة ومن جهاد ومن غير ذلك، فالموالاة والمعاداة تكون بالأفعال، وأصل الموالاة الحب، وأصل المعاداة البغضاء.

فالواجب حبُّ المؤمنين وموالاتهم ونصرتهم على أعدائهم، والواجب

---

(١) فوائد التفسير (ص١٥٠، ١٥١).

بغض الكافرين ومعاداتهم، وجهادهم في الله عَزَّوَجَلَّ حسب الطاقة والإمكان، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

وهذا كله يُبيّن لنا وجوب معاداة أعداء الله وبغضهم في الله عَزَّوَجَلَّ، ولو كانوا آباءً أو إخوانًا أو غيرهم من الأقارب، ووجوب محبة أولياء الله وموالاتهم وإن كانوا بعيدين منك نسبًا وقرابة، فالإسلام جمع بين أهله وإن تباعدت أقطارهم وأنسابهم، والكفر يباعد بينهم وإن تقاربت أنسابهم وأوطانهم».

وقال سماحة الإمام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «والتَّولِّي: هو الانضمام إليهم ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ﴾ [المائدة: ٥١] أي: ينضم إليهم ويكون في معسكرهم، أو ينصرهم على المسلمين، وهذه رِدَّةٌ عن الإسلام، ولهذا ذكر العلماء في نواقض الإسلام: مُظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين، فإن نصرهم وأعانهم على المسلمين، فهذا هو التولي. والموالاة أوسع من ذلك.

---

(١) فوائد من التفسير (ص١٥٢، ١٥٣).

فيجب على المؤمن أن يحذر التولي والموالاة للكفار، وأن يكون حَذِرًا من هذه الأشياء، وبعيدًا منها، وأن يوالي المؤمنين، ويحبهم في الله جَلَّ وَعَلَا يرجو بهذا مرضاة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨] ومسألة التُّقاة شيء آخر، مثل مسألة الإكراه، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، فإذا أظهر لهم بعض الموافقة لتوقي شرهم وخطرهم، لا عن حبٍّ لهم، ولا عن موافقة دينهم؛ فهذا شيء آخر غير الموالاة، وذلك من باب التَّقية أو من باب الإكراه.

ومن هذا ما يؤثر عن أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ ذكره البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بعض تراجمه تعليقًا: «إنا لنكْشِرُ في وجوه أقوام وإن قلوبنا تلعنهم»، نكشر أي: نبتسم أو نضحك لهم. وقلوبنا تلعنهم: لبغضهم في الله عَزَّ وَجَلَّ، لكن نتقيهم، إما لسلطانهم، وإما لغير هذا من الأسباب التي توجب اتقاء شرهم، حتى لا يضروا المسلمين؛ ولهذا قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨]، ثم قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]، أي: أن البهرج والشيء الذي ليس له حقيقة لا ينفعكم، فالله يُحذِّركم نفسه أن تظهروا خلاف ما تبطنون، وأن تشاركوا أهل النفاق في إظهار الحق وأنتم على غيره، فالله يعلم كل شيء ولا تخفى عليه خافية سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ

عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٩]، وهذا فيه التحذير من محبة أعداء الله وموالاتهم، والأمر ببغض أعداء الله ومعاداتهم، وأن هذا هو دين الله الذي بعث به رُسُله وأنزل به كتبه؛ ولهذا قال في سورة الممتحنة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة: ٤].

فدل ذلك على أن هذه العداوة وهذه البغضاء أمدُها دخولهم في الإيمان، فإذا دخلوا في الإيمان انتهت هذه العداوة والبغضاء وصاروا من جملة الأولياء والأحباب في الله».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وإنما عبد الله من يرضيه ما يُرضي الله، ويُسخطه ما يُسخط الله، ويُحبُّ ما أحبه الله ورسوله ﷺ، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله ﷺ، ويوالي أولياء الله، ويُعادي أعداء الله تعالى، وهذا هو الذي استكمل الإيمان، كما في الحديث: «**من أحبَّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**»، وقال: «**أوثق عُرى الإيمان: الحُبُّ في الله، والبُغض في الله**»، وفي الصحيح عنه ﷺ: «**ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله ﷺ أحبَّ إليه مما سواهما، ومن كان يُحبُّ المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يُلقى في النار**». فهذا وافق ربَّه

---

(١) العبودية (ص ٨٢، ٨٣).

فيما يُحبُّهُ وما يكرهه، فكان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأحبَّ المخلوق لله لا لغَرَضٍ آخر، فكان هذا من تمام حُبِّه لله، فإنَّ محبَّة مَحْبُوبِ المحبوب من تمام محبة المحبوب، فإذا أحبَّ أنبياء الله - عليهم السلام - وأولياء الله لأجل قيامهم بمحبوبات الحقِّ، لا لشيء آخر، فقد أحبَّهم لله لا لغيره، وقد قال تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فإن الرسول ﷺ يأمر بما يُحبُّ الله، وينهىٰ عمَّا يبغضه الله، ويفعل ما يُحبُّه الله، ويُخبر بما يُحبُّ الله التصديق به.

فمن كان مُحبًّا لله لزم أن يتَّبع الرَّسول ﷺ، فيُصدِّقه فيما أخبر، ويُطيعه فيما أمر، ويتأسَّىٰ به فيما فَعَلَ، ومن فعل هذا فقد فعل ما يُحبُّه الله؛ فيُحبُّه الله».



حنيفيَّة التَّوحيد ملَّة إبراهيم من أوثق عراها الولاء والبراء في الله، وذلك من حقيقة التَّوحيد، فمن تألَّه لله وكفر بما يُعبد من دونه؛ والى أولياء الله، وتبرأ ممَّن عبد غيره.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أمرنا الله أن نتأسَّى بإبراهيم والذين معه؛ إذ تبرَّءوا من المشركين وممَّا يعبدونه من دون الله، وقال الخليل: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ۝٢٧﴾ [الزُّخرُف: ٢٦، ٢٧]، والبراءة ضدُّ الولاية.

وأصل البراءة البغض، وأصل الولاية الحبُّ، وهذا لأنَّ حقيقة التوحيد ألَّا يحبَّ إلَّا الله، ويحبَّ ما يحبُّه الله لله؛ فلا يحبُّ إلا لله، ولا يبغض إلا لله، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥]».

وقال العلامة سليمان بن عبد الله آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنَّ الله افترض على المؤمنين عداوة الكفَّار والمنافقين».

والكفر بما يعبد من دون الله هو من تجريد التوحيد لله وحده، لا شريك له؛ فإنَّ مجرَّد إثبات الألوهية لله لا ينفي الشريك، ومجرَّد نفي الآلهة الباطلة عدم محض لا كمال فيه، وإثبات الألوهية لله وحده لا شريك له،

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٦٥).

(٢) أوثق عرى الإيمان (ص١٠٠).

ونفي الألوهية الباطلة لغيره؛ هو التوحيد والكمال.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «اشتمال كلمة الإسلام - وهي شهادة أن لا إله إلَّا الله - علىٰ النفي والإثبات، فكان في الإتيان بالنفي في صدر هذه الكلمة من تقرير الإثبات، وتحقيق معنىٰ الإلهية، وتجريد التوحيد الذي يُقصد بنفي الإلهية عن كلِّ من ادُّعيت فيه سوىٰ الإله الحقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ».

والأساس الذي تُبنىٰ عليه ملَّة إبراهيم الحنيفية السمحة؛ هو توحيد الله، والموالاة في التوحيد، وذكر خليل الرحمن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الأساس الذي أوجب له البراءة من المشركين وهو شركهم بالله، وعدم تجريدهم التوحيد الخالص له.

قال تعالىٰ: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الممتحنة: ٤].

قال العلَّامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ أصل الأصول كلِّها الذي يترتَّب عليه إعقاد صلة الأرحام ووشائج الأنساب، وغير ذلك.

فإذا عُدم أصل الأصول الذي يُوصل الأرحام بفرع ينتمي إليه؛ لم يكن لذلك الفرع مادَّة من الحقِّ تصله، ولا أسٌّ يبتني ذلك الفرع عليه، وهذا فهو

(١) طريق الهجرتين (١/ ٣٠٨).

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح (٧/ ٣٢٢).

مشير إلىٰ ألَّا يوادَّ المؤمن مشركًا ولا كافرًا، وإن كان ذا نسب منه؛ بنوة، أو أخوة، أو رحم قريبة؛ إذ نسب إبراهيم من آزر أقرب في صلة الأنساب، ومع ذلك لم يعتد بذلك شيئًا.

وفيه أيضًا تنبيه علىٰ أنَّ ذا الرحم إذا كان فاسقًا؛ فإنَّه يتعيَّن أن يشاه المؤمن، وإن كان يشيه علىٰ مقدار فسقه، كما أنَّه يتعيَّن أن يودَّ الرجل الصالح بصلاحه وإن كان لا نسب بينه وبينه».

وإنَّما يوالي الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ والإسلام والمسلمين؛ من كان الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما، ففي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما، ومن كان يحبُّ المرء لا يحبُّه إلَّا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقىٰ في النار**».

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «حلاوة الإيمان المتضمِّنة من اللذة والفرح ما يجده المؤمن الواجد من حلاوة الإيمان؛ تتبع كمال محبَّة العبد لله، وذلك بثلاثة أمور:

تكميل هذه المحبة، وتفريعها، ودفع ضدِّها.

فـ«تكميلها» أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما؛ فإن محبَّة الله ورسوله لا يكتفىٰ فيها بأصل الحبِّ، بل لا بدَّ أن يكون الله ورسوله أحبَّ

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ٢٠٥، ٢٠٦).

إليه ممَّا سواهما، كما تقدَّم.

و«تفريعها» أن يحبَّ المرء لا يحبُّه إلَّا لله.

و«دفع ضدِّها» أن يكره ضدَّ الإيمان أعظم من كراهته الإلقاء في النار».

ولا يزال المسلمون يتوارثون عقيدة الولاء والبراء من توحيد الله من حنيفية خليل الرحمن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فيحقِّقون بذلك توحيدهم لله، ويوالون ويعادون فيه.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزُّخرُف: ٢٦-٢٨].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أي: جعل هذه الموالاة لله، والبراءة من كلِّ معبود سواه؛ كلمةً باقيةً في عقبه، يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض. وهي كلمة «لا إله إلا الله»، وهي التي ورَّثها إمامُ الحنفاء لأتباعه إلىٰ يوم القيامة.

وهي الكلمة التي قامت بها الأرض والسموات، وفطر الله عليها جميع المخلوقات، وعليها أُسِّست الملَّة، ونُصِبت القبلة، وجُرِّدت سيوف الجهاد، وهي محض حقِّ الله علىٰ جميع العباد».

وموالاة الإسلام والمسلمين والبراءة من الشرك والمشركين، هو من

(١) الداء والدواء (ص٤٥٦).

تحقيق توحيد الألوهية؛ فإنَّ المؤمن يتألَّه لله بموالاته ونصرة دينه وموالاة المسلمين، ويتألَّه لله بالبراءة ممَّن كفر وأشرك به.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «العَبْد بِمَعْنى العابد، فَيكون عابدًا لله، لَا يعبد إِلَّا إِيَّاه؛ فيطيع أمره وَأمر رسله، ويوالي أولياءه الْمُؤمنِينَ الْمُتَّقِينَ، ويعادي أعداءه.

وَهَذِه الْعِبَادَة مُتَعَلِّقَة بإلهيَّته؛ وَلِهَذَا كَانَ عنوان التَّوْحِيد «لَا إِلَه إِلَّا الله»، بِخِلَاف من يقرُّ بربوبيَّته وَلَا يعبده، أَو يعبد مَعَه إِلَهًا آخر.

فالإله الَّذِي يألهه الْقَلب بِكَمَال الْحبِّ والتعظيم والإجلال وَالْإِكْرَام وَالْخَوْف والرجاء وَنَحْو ذَلِك. وَهَذِه الْعِبَادَة هِيَ الَّتِي يُحِبُّهَا الله ويرضاها، وَبِهَا وصف المصطفين من عباده، وَبِهَا بعث رسله».

فتوحيد الله يستلزم موالاته وموالاة المؤمنين به الموحِّدين له، ويستلزم البراءة من الشرك والمشركين.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨١].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «بيَّن سبحانه أنَّ الإيمان له لوازم وله أضداد موجودة تستلزم ثبوت لوازمه وانتفاء أضداده، ومن

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٥٧).

(٢) تفسير شيخ الإسلام (٢/ ٥٢٠).

أضداده موادَّة من حادَّ الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ».

وقال النبيُّ ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله، وكَفَر بما يُعبد من دون الله؛ حرم ماله ودمه، وحسابه على الله عَزَّوَجَلَّ».

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لم يجعل مجرَّد التلفُّظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلَّا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ولا دمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يُعْبَدُ من دون الله، فإنْ شكَّ أو توقَّفَ؛ لم يحرم ماله ولا دمه.

فتبيَّن بذلك أنَّه لا بدَّ من اعتقاد وجوب عبادة الله وحده لا شريك له، ومن الإقرار بذلك اعتقادًا ونطقًا، ولا بدَّ من القيام بعبادة الله وحده طاعة لله وانقيادًا، ولا بدَّ من البراءة ممَّا ينافي ذلك عقدًا وقولًا وفعلًا.

ولا يتمُّ ذلك إلَّا بمحبَّة القائمين بتوحيد الله وموالاتهم ونصرتهم، وبغض أهل الكفر والشرك ومعاداتهم، لا تغني في هذا المقام الألفاظ المجرَّدة، ولا الدعاوى الخالية من الحقيقة، بل لا بدَّ أن يتطابق العلم والاعتقاد والقول والعمل؛ فإنَّ هذه الأشياء متلازمة، متى تخلَّف واحد منها تخلَّفت البقيَّة».

ومن موالاة المؤمنين والبراءة من الكافرين؛ هو عدم اتِّخاذ الكافرين

---

(١) القول السديد شرح كتاب التوحيد (ص ٣٢، ٣٣).

ولاة للمؤمنين، فإنَّ هذا مع أنَّه ممنوع شرعًا؛ فإنَّه من أسباب المضارَّة بالمسلمين وأوطانهم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء: ١٤١].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قد عرف أهل الخبرة أنَّ أهل الذمَّة من اليهود والنصارىٰ، والمنافقين؛ يكاتبون أهل دينهم بأخبار المسلمين، وبما يطلعون علىٰ ذلك من أسرارهم، حتىٰ أُخذ جماعة من المسلمين في بلاد التتر، وسُبي، وغير ذلك، بمطالعة أهل الذمَّة لأهل دينهم، ومن الأبيات المشهورة قول بعضهم:

كلُّ العداوات قد تُرجىٰ مودَّتها ... إلَّا عداوة من عاداك في الدِّين

ولهذا وغيره مُنعوا أن يكونوا علىٰ ولاية المسلمين، أو علىٰ مصلحة من يقويهم، أو يفضل عليهم في الخبرة والأمانة من المسلمين، بل استعمال من هو دونهم في الكفاية أنفعُ للمسلمين في دينهم ودنياهم.

والقليل من الحلال يُبارَك فيه، والحرامُ الكثير يذهب، ويمحقه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ».

ولابُدَّ أن يكون عند المسلم فرقان بين البراء من الكافرين والمشركين، وبين البراء من المسلمين فيما يوجب ذلك من مخالفاتهم لأمر الله؛ فإنَّ البراءة من الكافر والمشرك كليَّة، والبراءة من المسلمين تكون فيما خالفوا

(١) تفسير شيخ الإسلام (١/ ٤٩٦).

فيه أمر الله، ولهم من الموالاة بقدر إسلامهم وإيمانهم.

وواجب الموحِّدين معاملة المسلمين بنحو ما حثَّهم عليه النبيُّ ﷺ في قوله: «**المؤمن القوي خير وأحبُّ إلىٰ الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خيرٌ**».

ومعاملة الكافر والانتفاع به دنيويًّا بما لا يضرُّ الإسلام والمسلمين؛ جائزة، خصوصًا من عَهِدَ منه المسلمون الصدق والأمانة.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الانتفاع بآثار الكفَّار والمنافقين في أمور الدنيا؛ فهذا جائز. كما يجوز السكنىٰ في ديارهم، ولبس ثيابهم وسلاحهم، وكما تجوز معاملتهم علىٰ الأرض، كما عامل النبيُّ ﷺ يهود خيبر، وكما استأجر النبيُّ ﷺ هو وأبو بكر لما خرجا من مكَّة مهاجرين «ابنَ أُريقط» - رجلًا من بني الدِّيل - هاديًا خرِّيتًا، والخريت: الماهر بالهداية، وائتمناه علىٰ أنفسهما ودوابِّهما، وواعداه غار ثور صبح ثالثة، وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله ﷺ مسلمهم وكافرهم، وكان يقبل نصحهم. وكل هذا في الصحيحين. وكان أبو طالب ينصر النبي ﷺ ويذبُّ عنه مع شركه، وهذا كثير.

فإنَّ المشركين وأهل الكتاب فيهم المؤتمن، كما قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ﴾ [آل عمران: ٧٥]، ولهذا جاز ائتمان أحدهم علىٰ المال،

(١) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ١١٤).

وجاز أن يستطبَّ المسلم الكافر إذا كان ثقة، نصَّ على ذلك الأئمة كأحمد وغيره؛ إذ ذلك من قبول خبرهم فيما يعلمونه من أمر الدنيا، وائتمان لهم على ذلك، وهو جائز. إذا لم يكن فيه مفسدة راجحة، مثل ولايته على المسلمين وعلوه عليهم ونحو ذلك».

وأمرنا الله بتأسيس الموالاة على الإيمان به؛ لأنَّ هذا هو حقيقة الإيمان «**أن يحبَّ المرء لا يحبه إلا لله**»، وهذه أصدق المؤاخاة والموادَّة وأدومها، وهي النافعة في الدنيا والآخرة، وهي دليل صدق الإيمان، وبها تصلح الأرض ويسعد الخلق.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «من أحبَّ شخصًا لهواه، مثل أن يحبَّه لدنيا يصيبها منه، أو لحاجة يقوم له بها، أو لمال يتأكل به، أو بعصبيَّة فيه، ونحو ذلك من الأشياء؛ فهذه ليست محبَّة لله، بل هذه محبَّة لهوى النفس، وهذه المحبَّة هي التي تُوقع أصحابها في الكفر والفسوق والعصيان.

وما أكثر من يدعي حبَّ مشايخ لله، ولو كان يحبُّهم لله لأطاع الله الذي أحبَّهم لأجله؛ فإنَّ المحبوب لأجل غيره تكون محبَّته تابعة لمحبَّة ذلك الغير، وكيف يحبُّ شخصًا لله من لا يكون محبًّا لله؟!

وكيف يكون محبًّا لله من يكون معرضًا عن رسول الله ﷺ وسبيل الله؟!

(١) الفتاوى العراقية (١/ ٩٩، ١٠٠)، باختصار يسير جدًّا.

وما أكثر من يحبُّ شيوخًا أو ملوكًا أو غيرهم فيتَّخذهم أندادًا يحبُّهم كحبِّ الله!! والفرق بين المحبَّة لله والمحبَّة مع الله ظاهر، فأهل الشرك يتَّخذون ﴿أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وأهل الإيمان يحبُّون الله وما يحبُّه الله».

والموالاة في الله هي التي تنفع في الدنيا والآخرة، فيكتب الله ثواب وحسنات المتوالين فيه، ويبارك في موالاتهم، ويزيد بها إيمانهم، ويقوى بها الإسلام، ويتراحم الخلق بالحبِّ في الله، والبغض في الله.

والموالاة للدنيا، أو لحمية أو عصبية أو جاهلية؛ يمقتها الله، ولا يبارك فيها، وتكون شرًّا على المتوالين لغير الله، وتكون أعمالهم عليهم إثمًا وزورًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ أبا بكر كان يحبُّ النبيَّ ﷺ مخلصًا لله، وأبو طالب عمُّه كان يحبُّه وينصره لهواه، لا لله. فتقبَّل الله عمل أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأنزل فيه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل: ١٧-٢١]، وأمَّا أبو طالب فلم يتقبَّل الله عمله، بل أدخله النار؛ لأنَّه كان مشركًا عاملًا لغير الله. وأبو بكر لم يطلب أجره وجزاءه من الخلق، لا من النبيِّ ﷺ، ولا من غيره؛ بل آمن به، وأحبَّه، وكلأه، وأعانه بنفسه وماله متقرِّبًا بذلك إلى الله، وطالبًا الأجر من الله».

---

(١) الفتاوى العراقية (١/ ١٠٤، ١٠٥).

ونهي الشريعة عن التشبُّه بالكفَّار في لباسهم وهيئاتهم وأخلاقهم وأمورهم؛ لأنَّ تلك الموافقة في الظاهر تؤول إلىٰ الموافقة في الباطن.

وقد أمرنا النبيُّ ﷺ بالتشبُّه بإسماعيل في هديه وسمته وجهاده.

عن سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: خرج رسول الله ﷺ بنفر ينتضلون، فقال: «**ارمُوا بني إسماعيل؛ فإنَّ أباكم كان راميًا**»، رواه البخاري.

وكتب الفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلىٰ عتبة بن فرقد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو بأذربيجان: «إيَّاكم والتَّنَعُّم وزيَّ أهل الشِّرك، ولبوس الحرير»، رواه الشَّيخان[1]، وفي رواية في غير الصَّحيح: «اتَّزروا، وارتدوا، وانتعلوا، وألقوا الخفاف، وعليكم بثياب أبيكم إسماعيل، وعليكم بالشمس؛ فإنَّها حمَّام العرب، وتمعددوا واخشوشنوا».

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ[2]: «هذا تعليم منه للفروسية، وتمرين للبدن علىٰ التبذُّل وعدم الرَّفاهية والتنعُّم، ولزوم زيِّ ولد إسماعيل بن إبراهيم؛ فأمرهم بالاتِّزار، والارتداء، والانتعال، وإلقاء الخفاف؛ لتعتاد الأرجل الحرَّ والبرد، فتتصلَّب وتقوىٰ علىٰ دفع أذاها».

---

(١) رواه البخاري، كتاب اللِّباس، باب لبس الحرير للرِّجال (ص١٠٢٧، ١٠٢٨ – رقم ٥٨٢٨)، ومسلم، كتاب اللِّباس والزِّينة، باب تحريم لبس الحرير وغير ذلك علىٰ الرِّجال (ص٩٢٧ – رقم ٥٤١١).

(٢) الفروسية (ص ١٢٠، ١٢١).

والواجب على كلِّ مسلم أن يتلقَّى هديه عن خير البريَّة نبيِّ الله محمَّد ﷺ، فإنَّ خير الهدي هدي محمَّد ﷺ.

ومن أهمِّ وأوَّل ما وعظ الله به خليله، ونبَّهه عليه؛ هو تأسيس ملَّته على الموالاة في الله، فنهاه الله عن موالاة أبيه وأمره بالبراءة منه لكفره، وزجره عن موالاة الكافرين والمشركين من ذريَّته.

قال تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤].

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «المراد: الظلم الأكبر الذي هو الكفر».

وفي هذا توجيه للأمَّة لعقد آصرة الولاء والأخوَّة على أخوَّة الدين، وآصرة التَّوحيد والإسلام.

قال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «لكن الرابطة الدينيَّة التي قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]؛ هذه تدخل جميع المؤمنين - ولو من غير العرب -، وتخرج من ليس بمؤمن - ولو كان عربيًّا -؛ فهذا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال الله عَزَّوَجَلَّ عنه: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ

---

(١) تفسير سورة البقرة (٢/ ٤٣).

(٢) تفسير سورة البقرة (٢/ ٢٤٥، ٢٤٦).

مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]. وقد حثَّنا الله عَزَّوَجَلَّ على التأسِّي بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، ولمَّا قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ [هود: ٤٥]؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ له: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾ [هود: ٤٦]».

فمن تولَّى الله تولَّاه الله، ومن تولَّى الكفر والكافرين؛ ما له من الله من ولي ولا نصير، قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾؛ أمر بلزوم هديه ووحيه، والموالاة لله باتباعه وموالاة المؤمنين به.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ تحذير من موالاة الكافرين ببيان سوء عاقبة من فعل ذلك، فما له من الله من وليٍّ ولا نصير.

قال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: ««الولي» هو الذي يتولَّى غيره بحفظه، وصيانته، فالمعنى: ما أحد يتولَّى حفظك سوى الله

(١) تفسير سورة البقرة (٢/ ٣١).

عَزَّوَجَلَّ، و«النصير» هو الذي يدفع الشرَّ، أي: ولا أحد يتولَّىٰ نصرك فيدفع عنك الشرَّ سوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ».

وقال شيخنا العثيمين في فوائد الآية[1]: «إنَّ الكفر ملَّة واحدة؛ لقوله تعالىٰ: ﴿مِلَّتَهُمْ﴾، وهو باعتبار مضادَّة الإسلام ملَّة واحدة، أما باعتبار أنواعه؛ فإنَّه ملل: اليهودية ملَّة، والنصرانية ملَّة، والبوذية ملَّة، وهكذا بقية الملل».

وقال العلَّامة محمَّد العثيمين في فوائد الآية أيضًا[2]: «قال تعالىٰ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]؛ لأنَّهم يعتقدون أنَّهم علىٰ ملَّة، ودين، ولكن بيَّن الله تعالىٰ أنَّ هذا ليس بدين، ولا ملَّة؛ بل هوًىٰ، وليسوا علىٰ هدًىٰ؛ إذ لو كانوا علىٰ هدًىٰ لوجب علىٰ اليهود أن يؤمنوا بالمسيح عيسىٰ ابن مريم، ولوجب عليهم جميعًا أن يؤمنوا بمحمَّد ﷺ؛ لكن دينهم هوًىٰ، وليس هدًىٰ.

وهكذا كلُّ إنسان يتبع غير ما جاءت به الرسل - عليهم الصلوات والسلام -، ويتعصَّب له؛ فإنَّ ملَّته هوًىٰ، وليست هدًىٰ».

ومن موالاة الله موالاة شرعه، والتحاكم إليه، وبذلك تأتلف الأمَّة ويجتمع أمرها علىٰ الحقِّ.

---

(١) تفسير سورة البقرة (٢/ ٣٢).

(٢) تفسير سورة البقرة (٣/ ٣٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «على الخلق كلِّهم اتباع محمَّد ﷺ؛ فلا يعبدون إلَّا الله، ويعبدونه بشريعة محمَّد ﷺ لا بغيرها، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝١٩﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩]، ويجتمعون على ذلك ولا يتفرقون؛ كما ثبت في «الصحيح» عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**إنَّ الله يرضى لكم ثلاثًا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرَّقوا، وأن تناصحوا من ولَّاه الله أمركم**»».

ومن تولى عن شرع الله؛ تولى الله عن هدايته وحفظه ونصره.

قال تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

قال شيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «إنَّك إذا اتَّبعت غير شريعة الله؛ فلا أحد يحفظك من الله، ولا أحد ينصرك من دونه - حتى لو كثر الجنود عندك، ولو كثرت الشُّرَط، ولو اشتدَّت القوَّة -؛ لأنَّ النصر والولاية تكون بالهداية باتباع هدى الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، فالأمن

---

(١) الفتاوى العراقية (١/ ١٠٢).

(٢) تفسير سورة البقرة (٢/ ٣٣، ٣٤).

إنَّما يكون بالإيمان، وعدم الظلم».

ولضرورة كلِّ مسلم إلىٰ البراءة من الكفر والشرك والكافرين والمشركين؛ أمرنا الله أن ندعوه أن يجنبنا طرائقهم وأعمالهم وضلالهم في كلِّ صلاة نصلِّيها، وندعوه سبحانه أن يهدينا الصراط المستقيم، ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٧].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «علىٰ المسلم أن يبعد من هذين الشَّبهين غاية البعد، ومن تصوَّر الشَّبَهَيْن والوَصْفين وعلم أحوال الخلق؛ علم ضرورته وفاقته إلىٰ هذا الدعاء الذي ليس للعبد دعاءٌ أنفع منه ولا أوجب منه عليه، وأنَّ حاجته إليه أعظم من حاجته إلىٰ الحياة والنفس؛ لأن غاية ما يقَدَّر بفوتهما موته، وهذا يحصل له بفَوْته شقاوة الأبد؛ فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، آمين، إنه قريب مجيب».

فالتوحيد حقيقته التألُّه لله وحده لا شريك له، وموالاته والمتألِّهين له وحده لا شريك له، والكفر والبراءة مما يُعبد من دون الله والمشركين والكافرين به.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أوَّل الدين وآخره، وباطنه وظاهره، وذُروةُ

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٤٤١).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٥٦٢).

سنامه، وقطب رحاه.

وأمرنا تعالىٰ أن نتأسَّىٰ بإمام هذا التوحيد في نفيه وإثباته، كما قال تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٦٩ - ٨٢].

وإذا تدبَّرت القرآن - من أوَّله إلىٰ آخره - رأيته يدور علىٰ هذا التوحيد، وتقريره، وحقوقه».

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «أصل الْمُوَالَاة هِيَ الْمَحَبَّة، كَمَا

(١) تفسير شيخ الإسلام (٢/ ٤٩٨).

أَنَّ أصل المعاداة البغض؛ فَإِنَّ التحابَّ يُوجب التقارب والاتفاق، والتباغض يُوجب التباعد وَالِاخْتِلَاف.

وَقد قيل: الْمَولى من الْوَلْي وَهُوَ الْقرب، وَهَذَا يَلِي هَذَا؛ أَي: هُوَ يقرب مِنْهُ.

والعدو من العدواء، وَهُوَ الْبعد، وَمِنْه العدوة.

وَالشَّيْء إِذا ولي الشَّيْء ودنا مِنْهُ وَقرب إِلَيْهِ؛ اتَّصل بِهِ، كَمَا أَنَّه إِذا عدى عَنهُ ونأى عَنْهُ وَبعد مِنْهُ؛ كَانَ مَاضِيًا عَنْهُ».

والموالاة تقتضي الجمع؛ فالمؤمنون إخوة، وتجمعهم كلمة التوحيد، فأوثق عرى الإيمان الحبُّ في الله، وأمَّة الإسلام أمَّة واحدة تأتلف على توحيد الله وطاعة أمره ونهيه، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ٩٢﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢﴾ [المؤمنون: ٥٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الموالاة تقتضي التحابَّ وَالْجمع، والمعاداة تقتضي التباغض والتفرُّق، وَالله سُبْحَانَهُ قد ذكر الْمُوَالَاة وَالْجمع بَين الْمُؤمنِينَ، في قوله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]، وَذكر الْعَدَاوَة بَينهم وَبَين الْكُفَّار، فَقَالَ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]».

---

(١) تفسير شيخ الإسلام (٢/ ٥٠٢).

وقال شيخ الإسلام[(١)]: «إنَّه قال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [المائدة: ٥٥]، فجعل موالاتهم كموالاة الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ، وموالاة الله ورسوله لا تتمُّ إلَّا بطاعة أمره.

وكذلك المؤمنون لا تتمُّ موالاتهم إلا بطاعة أمرهم، وهذا لا يكون إلَّا إذا كان أمرهم أمرًا متفقًا، فإن أمر بعضهم بشيء وأمر آخر بضدِّه؛ لم يكن موالاة هذا بأولىٰ من موالاة هذا، فكانت الموالاة في حال النزاع بالردِّ إلىٰ الله والرسول».

وبموالاة المؤمنين بعضهم لبعض يتحقَّق توحيد الله بذلك، ويكونون أمَّةً واحدة، وجسدًا واحدًا، وتقوىٰ شوكتهم؛ ففي الصحيحين من حديث النعمان بن بشير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمىٰ**».

قال العلَّامة ابن هبيرة الحنبليُّ رَحِمَهُٱللَّهُ[(٢)]: «لمَّا كان المؤمنون يرتفدون بالمؤمنين، ويتعاضدون ويتساعدون؛ فتقوىٰ شوكتهم، ويعلو أمرهم؛ كان ذلك مشعرًا بإيمانهم، فإنَّهم علىٰ شكل البنيان الذي كلُّ لبنة منه من حيث إنها تتَّصل بأختها، وأختها بأخرىٰ وهكذا، وكلٌّ من المؤمنين مرتفدٌ به، كل المؤمنين: الكبير والصغير، والعالم والمتعلِّم، والمصحوب والصاحب،

---

(١) تفسير شيخ الإسلام (٢/ ٥٠٢).

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح (٦/ ٣٩٨).

فيكون مَثَلهم كمثل البنيان الذي كلُّ شيء منه نافع لشيء منه».

وسيِّد الحنفاء وإمام الموحِّدين وسيِّد المرسلين ﷺ برَّأه الله من الشرك والمشركين، ومن شبهاتهم، وهكذا يكون الحنفاء الذين يشهدون أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال تعالى لنبيِّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وذلك يقتضي تبرُّؤه منهم في جميع الأشياء.

ومن تابع غيره في بعض أموره، فهو منه في ذلك الأمر؛ لأنَّ قول القائل: أنا من هذا، وهذا مني. أي: أنا من نوعه، وهو من نوعي.

لأنَّ الشخصين لا يتَّحدان إلَّا بالنوع، كما في قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لعليٍّ: «**أنت مني وأنا منك**»، فقول القائل: لستُ من هذا في شيء؛ أي: لستُ مشاركًا له في شيء، بل أنا متبرِّئ من جميع أموره.

وإذا كان الله عَزَّوَجَلَّ قد برَّأ رسوله ﷺ من جميع أمورهم، فمن كان متبعًا للرسول ﷺ حقيقةً؛ كان متبرئًا كتبرُّئه، ومن كان موافقًا لهم كان مخالفًا للرسول ﷺ بقدر موافقته لهم؛ فإنَّ الشخصين المختلفين من كلِّ وجه في دينهما، كلما شابهت أحدهما؛ خالفت الآخر».

وموالاة الله هي سبب الهداية والحفظ والنصر والتمكين والرزق،

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ١١٢).

وسبب تدبير الله لمن تولَّاه بالسلامة من كيد المشركين والكافرين، وسبب لحفظ دين المسلمين وظهوره.

قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَۖ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٤﴾ [محمد: ٤]، ثمَّ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [محمد: ١١].

قال العلَّامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هذا أمر منه تعالىٰ للمؤمنين؛ أن ينصروا الله بالقيام بدينه، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه، والقصد بذلك وجه الله؛ فإنَّهم إذا فعلوا ذلك نصرهم الله وثبَّت أقدامهم، أي: يربط علىٰ قلوبهم بالصبر والطمأنينة والثبات، ويصبِّر أجسامهم علىٰ ذلك، ويعينهم علىٰ أعدائهم؛ فهذا وعدٌ من كريم صادق الوعد: أنَّ الذي ينصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاه، وييسر له أسباب النصر، من الثبات وغيره».

ثم قال العلَّامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فتولَّاهم برحمته، فأخرجهم من الظلمات إلىٰ النور، وتولَّىٰ جزاءهم ونصرهم، ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بالله تعالىٰ، حيث قطعوا عنهم ولاية الله، وسدُّوا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان (ص ٨٣٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان (ص ٨٣٥).

على أنفسهم رحمته؛ ﴿لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ يهديهم إلى سبل السلام، ولا ينجيهم من عذاب الله وعقابه، بل ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧]».

واليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالُّون، فنهي الله لعباده عن مشابهتهم؛ هو من رحمته بالحنفاء المسلمين الموحِّدين، فإنَّ اليهود شدَّدوا على أنفسهم تعنتًا وعنادًا عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ؛ فشدَّد الله عليهم، وجعل عليهم الآصار والأغلال، والنصارى فرَّطوا في عبودية الله وتركوا المشروع، وعبدوا الله بجهلهم ابتداعًا ورهبانية، ومنهم من ترك عبودية الله بسبب عدم صبره على طاعة الله؛ فرضي الله لنا الإسلام دينًا، واصطفانا للوسطية بين تشديد اليهود وتفريط النَّصارى، وجعلنا خير أمَّة أُخرجت للناس؛ فالبراءة من اليهودية والنصرانية والتمسُّك بالحنيفية هو من أسباب خيرية هذه الأمَّة الوسط، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فمشابهة الضالِّين والمغضوب عليهم من أسباب سخط الله وغضبه، ولزوم الإسلام هو من الأخذ بأسباب رحمة الله.

وصفة المؤمنين موالاة بعضهم بعضًا، فالموالاة للمؤمنين والبراءة من المشركين هو تحقيق للإيمان، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ [التوبة: ٧١].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «المؤمن يوالي جميع أهل الإيمان، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال النبيُّ ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا**»، وشبَّك بين أصابعه، وقال: «**مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمَّىٰ**»، وقال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**لا تقاطعوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا**»».

وفي مدارسة عقيدة الولاء والبراء، لابُدَّ من تبيين الفرق بين موالاة الكافر ومعاملته من غير موالاة، ولابُدَّ من تبيين الفرق بين المداراة والمداهنة؛ فأحكام التكفير ليست بالأمر الهيِّن بحيث تُذكر باجتزاء نصوص الوحي.

قال تعالىٰ: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ﴾ [آل عمران: ٢٨].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنَّ التقاة ليست بموالاة، ولكن لمَّا نهاهم عن موالاة الكفَّار؛ اقتضىٰ ذلك معاداتهم والبراءة منهم، ومجاهرتهم بالعداوة في كلِّ حال، إلَّا إذا خافوا من شرِّهم؛ فأباح لهم التَّقِيَّةَ، وليست التَّقِيَّةُ موالاةً لهم».

والحكم علىٰ الأعيان بالتكفير في مسائل موالاة الكافرين من أدقِّ الأمور، وقد أنكر العلماء مسارعة غير المتحقِّقين بالعلم التكفير في ذلك، وظهر في

---

(١) الفتاوىٰ العراقية (١/ ١٠٣، ١٠٤).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٩٤٢).

هذه المسألة عدم جمع المتعالمين لنصوصها وأدلَّتها، ومجازفتهم في التكفير في ذلك.

وقال العلَّامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شأن التكفير بالموالاة والحكم بغير ما أنزل الله[١]: «لا يتكلَّم فيها إلَّا العلماء من ذوي الألباب، ومن رُزق الفهم عن الله، وأوتي الحكمة وفصل الخطاب».

وبيَّن شيخنا العلامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ موالاة الكافر قد تنافي الإيمان كله أو كماله، حيث قال[٢]: «موالاة الكفَّار تكون بمناصرتهم ومعاونتهم على ما هم عليه من الكفر والضَّلال، وموادَّتهم تكون بفعل الأسباب التي تكون بها مودَّتهم، فتجده يوادُّهم؛ أي: يطلب ودَّهم بكلِّ طريق، وهذا - لا شكَّ - ينافي الإيمان كلَّه أو كماله؛ فالواجب على المؤمن معاداة من حادَّ الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ ولو كان أقرب قريب إليه، وبغضه والبعد عنه، ولكن هذا لا يمنع نصيحته ودعوته للحقِّ».

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم

---

(١) الدرر السنية (١/ ٤٦٨).

(٢) شرح ثلاثة الأصول (ص ٣٠)، مطبوع ضمن مجموع الفتاوى، المجلد السادس.

(٣) شرح حديث جبريل (ص ٤٠٣).

﴿بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ [المجادلة: ٢٢]. وقد يحصل من الرجال نوع من موادَّتهم لرحم أو حاجة، فتكون ذنبًا ينقص به إيمانه، ولا يكون به كافرًا؛ كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لمَّا كاتب المشركين ببعض أخبار النبيِّ ﷺ، وأنزل الله فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١] الآية.

وكما حصل لسعد بن عبادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لمَّا انتصر لابن أُبي نوبة الإفك، فقال لسعد بن معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: كذبت، لعمر الله لا تقتله، ولا تقدر على قتله. قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: وكان قبل ذلك رجلًا صالحًا، ولكن احتملته الحميَّة».

والحنفاء يتولَّاهم الله بطاعته، والشيطان يتولى من أطاعه، ومن أطاع الشيطان في شرك وكفر يُخرج من الملَّة؛ كان كافرًا، ومن أطاعه في معصية؛ فاته من ولاية الله بقدر معصيته، ومن تاب تاب الله عليه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ١١٩﴾ [النساء: ١١٩].

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «تولي الشيطان يكون بطاعته، فمن أطاع الشيطان وعصى الرحمن ﴿فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا﴾».

وقال العلَّامة محمد العثيمين أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «كلُّ من عصى الله فإنَّه موالٍ للشيطان، لكن الولاية قد تكون عامَّة، وقد تكون خاصَّة، فإذا أطاع

(١، ٢) تفسير سورة النساء (٢/ ٢٤٤).

الشيطان في الكفر والشِّرك؛ كانت الولاية عامَّة، وإذا أطاعه في معصية من المعاصي؛ كانت خاصَّة.

وليعلم أنَّه يفوت من ولاية الإنسان لربِّه عَزَّوَجَلَّ إذا والى الشيطان بقدر ما والى به الشيطان».

ومن تولَّى الله في الدنيا؛ تولَّاه الله في الدنيا والآخرة، والموالاة في الآخرة هي الأمن التامُّ والسعادة الأبدية والفوز العظيم، قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٤].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «اختلفوا في قراءة: ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾، فمنهم من فتح الواو من ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾، فيكون المعنى: هنالك الموالاة لله، أي: هناك كلُّ أحد مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب؛ كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر: ٨٤]، وكقوله إخبارًا عن فرعون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ٩٠، ٩١]، ومنهم من كسر الواو من ﴿**الوِلاية**﴾، أي: هنالك الحُكْمُ لله الحقِّ».

ومن موالاة الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ التحدُّث بلغة القرآن التي اصطفاها الله لوحيه لخاتمة الرسالات لخير أمَّة أُخرجت للناس.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ١٢٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «سنذكر - إن شاء الله تعالىٰ - بعض ما قاله العلماء، من الأمر بالخطاب العربي، وكراهة مداومة غيره لغير حاجة، واللسان تقارنه أمور أخرىٰ: من العلوم والأخلاق، فإنَّ العادات لها تأثير عظيم فيما يحبُّه الله أو فيما يكرهه؛ فلهذا أيضًا جاءت الشريعة بلزوم عادات السابقين الأوَّلين، في أقوالهم وأعمالهم، وكراهة الخروج عنها إلىٰ غيرها من غير حاجة».

وكان النبيُّ ﷺ يفتتح نهاره ويختم ليله بقراءة سورة التوحيد والبراءة من الشرك في سنة الفجر وفي وتر الليل؛ ليتغذىٰ بحقائق التوحيد، وهكذا حال من اتبعه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «كان النبيُّ ﷺ يقرأ بها - ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ - وبـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ﴾، في سنَّة الفجر وسنَّة المغرب؛ فإنَّ هاتين السورتين سورتا الإخلاص، وقد اشتملتا علىٰ نوعي التَّوحيد، الذي لا نجاة للعبد ولا فلاح إلَّا بهما، وهما توحيد العلم والاعتقاد المتضمِّن تنزيه الله عمَّا لا يليق به من الشرك والكفر والولد والوالد، وأنَّه إله أحد صمد، لم يلد فيكون له فرع، ولم يُولد فيكون له أصل، ولم يكن له كفوًا أحد؛ فيكون له نظير، ومع هذا فهو الصمد؛ الذي اجتمعت له صفات

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص ٢٩٦).

(٢) بدائع الفوائد (١/ ٢٤٣، ٢٤٤).

الكمال كلُّها».

والخوارج يكفِّرون المسلمين، ويبرءون منهم، معاملينهم معاملة الكفار، بالبراءة الكليَّة، قطعوا عن المسلمين رحمة الله، وغلَّبوا وعيده في حقِّ المسلمين بتكفيرهم، وهذا ممَّا اشترك الخوارج والرافضة فيه بتكفير المسلمين.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ردَّ الرافضة النصوص الصحيحة الصريحة المحكمة المعلومة عند خاصِّ الأمَّة وعامَّتها بالضرورة في مدح الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ والثناء عليهم، ورضا الله عنهم، ومغفرته لهم، وتجاوزه عن سيِّئاتهم، ووجوب محبَّة الأمَّة واتباعهم لهم، واستغفارهم لهم، واقتدائهم بهم؛ بالمتشابه من قوله: «**لا ترجعوا بعدي كفَّارًا يضربُ بعضُكم رقابَ بعض**»، ونحوه.

كما ردُّوا المحكم الصريح من أفعالهم وإيمانهم وطاعتهم بالمتشابه من أفعالهم؛ كفعل إخوانهم من الخوارج حين ردُّوا النصوص الصحيحة المحكمة في موالاة المؤمنين ومحبَّتهم وإن ارتكبوا بعضَ الذُّنوب، التي تقع مكفَّرةً بالتوبة النصوح، والاستغفار، والحسنات الماحية، والمصائب المُكفِّرة، ودعاء المسلمين لهم في حياتهم وبعد موتهم، وبالامتحان في البَرْزخ، وفي موقف القيامة، وبشفاعة من يأذن الله له بالشفاعة، وبصدق التوحيد، وبرحمة أرحم الراحمين؛ فهذه عشرة أسباب تمحُو أَثَر الذنوب،

---

(١) إعلام الموقِّعين (٣/ ٢١١ - ٢١٣).

فإن عَجِزت هذه الأسباب عنها؛ فلا بدَّ من دخول النار، ثمَّ يخرجون منها.

فتركوا ذلك كلَّه بالمتشابه من نصوص الوعيد، وردُّوا المحكم من أفعالهم وإيمانهم وطاعتهم بالمتشابه من أفعالهم التي يحتمل أن يكونوا قصدوا بها طاعة الله فاجتهدوا، فأدَّاهم اجتهادهم إلىٰ ذلك فحصلوا فيه علىٰ الأجر المفرد، وكان حظُّ أعدائهم منه تكفيرهم واستحلال دمائهم وأموالهم، وإن لم يكونوا قصدوا ذلك كان غايتهم أن يكونوا قد أذنبوا، ولهم من الحسنات والتوبة وغيرها ما يرفع موجب الذنب.

فاشتركوا هم والرَّافضة في ردِّ المحكم من النصوص وأفعال المؤمنين بالمتشابه منها؛ فكفَّروهم وخَرَجوا عليهم بالسيف يقتلون أهل الإيمان ويَدَعون أهل الأوثان».

والنبيُّ ﷺ في معاملة المسلمين أمرنا أن نأخذ بالمحكم في أفعالهم في الحكم عليهم، فقال: «**من صلَّىٰ صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا؛ فذلك المسلم**»، رواه البخاري.



ثانيًا: الإيمان بالملائكة: فنؤمن أنهم عالم غيبي، مخلوق لله، ليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء[١].

والملائكة خلقهم الله من نور[٢]، وهم مصمتون؛ لا يأكلون ولا يشربون، فمن أجل هذا لم يأكلوا من الطعام الذي قدَّمَه لهم إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «المصمت الصمد أكمل من الآكل الشارب؛ ولهذا كانت الملائكة صُمْدًا لا تأكل ولا تشرب».

والملائكة لا يطيق البشر رؤيتهم في صورتهم الحقيقية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «ولهذا كان البشر يعجزون عن رؤية المَلَك في صورته إلا من أيَّدَهُ الله، كما أيَّدَ نبينا ﷺ[٥]، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام: ٨، ٩]».

والملائكة ليسوا إناثًا كما زعم كفار قريش، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ

---

(١) نبذة في العقيدة الإسلامية، لشيخنا العثيمين (ص ١٩).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة (رقم ٧٤٥٩) عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(٣) الرسالة التدمرية (ص ١٤٢).

(٤) منهاج السنة (٢/ ٣٣٣).

(٥) ومع هذا لم يره إلا مرتين، أقدره الله بما جعل فيه من القوة على رؤية جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]، قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن الكفار يعتقدون أن لله بناتٍ إناثًا، وذلك أن خزاعة وكِنانة كانوا يقولون: الملائكة بنات الله».

والملائكة خلقهم الله لمحض العبادة، ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وللملائكة كعبة يتعبدون فيها وهي البيت المعمور الذي أقسم الله به، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ﴾ [الطور: ٤].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «يتعبدون فيه ويطوفون، كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم كذلك ذاك البيت، هو كعبة أهل السماء السابعة؛ ولهذا وُجد إبراهيم الخليل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مسندًا ظهره إلىٰ البيت المعمور؛ لأنه باني الكعبة الأرضية، والجزاء من جنس العمل، وهو بحيال الكعبة، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها».

والملائكة موكلون بأعمال ووظائف، كما نعتهم الله بقوله: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾، فهم يدبِّرون كثيرًا من أمور العالم العلوي والسُّفلي، من الأمطار، والنبات، والأشجار، والرِّياح، والبحار، والأجنَّة، والحيوانات، والجنة، والنار[٣].

ونؤمن بأنَّ بعض الملائكة أفضل من بعض، وأفضلهم علىٰ الإطلاق جبريل

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٢٥٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٢٧، ٤٢٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص ٩٠٨).

عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو المختص بنزول الوحي[١]، وهو أول من يُفيقُ من الملائكة بعد الصعق إذا تكلَّم رب العزَّة، وهو رفيق النبي ﷺ في إسرائه ومعراجه.

والملائكة المقرَّبون أفضل من غيرهم من الملائكة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «ومعلوم أن حملة العرش ومن حوله من أعظم المقرَّبين من الملائكة، بل قد ذكر من ذكر من المفسِّرين أن الملائكة المقرَّبين هم حملة العرش.

والكَرُوبيُّون من الملائكة مشتقون من كَرَبَ إذا قَرُبَ؛ فالمراد: وصفهم بالقُرب، لا بالكرب الذي هو الشدَّةُ».



---

(١) وميكائيل كان ينزل بالوحي أحيانًا، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لأنه - يعني ميكائيل - أيضًا ينزل على الأنبياء بعض الأحيان، كما قُرن برسول الله ﷺ في ابتداء الأمر، ولكن جبريل أكثر، وهي وظيفته، وميكائيل موكل بالقطر والنبات؛ هذا بالهدى، وهذا بالرزق». تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٤٦).

(٢) السبعينية (ص ٢٣٠).

ثالثًا: الإيمان بكتبه: نؤمن بأن الله أنزل كتبًا إلىٰ رسله، وهي من أسباب هداية الخلق، وإقامة الحجة عليهم، قال تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالىٰ مبينًا امتناع أن يترك الله خلقه بلا كتاب هادٍ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ﴾.

والكتب السماوية كلها نزلت جملة واحدة، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةًۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]، والقرآن كان ابتداء نزوله في شهر رمضان، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ [الدخان: ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، والنزول المفرّق للقرآن علىٰ النبي ﷺ حصلت به حِكم عظيمة، كتثبيت فؤاد النبي ﷺ وتسليته، وإظهار منزلته عند الله، وحفاوة الله به بتعاهد نزول القرآن عليه، والتدرج في الأحكام والتشريع، وغيره.

ومع هذا فقد نزل القرآن جملةً واحدةً أولًا إلىٰ السماء الدُّنيا إلىٰ بيت العزة[1]، فحصل للقرآن ما لم يحصل لغيره من الكتب السماوية.

قال الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «والسرُّ في إنزال

---

(١) رواه النسائي - تفسير النسائي (٢/ ١٣١ - رقم ٣٩٢) عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا موقوفًا عليه، وصححه الحافظ ابن حجر في الفتح (٩/ ٤).

(٢) مجالس في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ [آل عمران: ١٦٤]، (ص ٢٦٢).

القرآن جُملة واحدة إلىٰ سماء الدنيا، ثم نزل علىٰ النبي ﷺ مفرَّقًا، أن الكتب المنزَّلة قبل نزول القرآن أُنزلت إلىٰ الأرض جملة واحدة، فحصل للنبي ﷺ ما حصل للأنبياء الذين أَنزل الله عليهم كتبه جملة واحدة، فأُنزل القرآن جُملة واحدة، ووُضع في بيت العزة من سماء الدنيا، ثم زاده الله علىٰ الأنبياء بنزول القرآن مُفرّقًا بعد نزوله جُملة، فكان نزول القرآن مرتين».

ولذلك تجد الله يُخبرُ عن القرآن بلفظ «نزَّل»؛ لأنه نزل مفرَّقًا، ويُخبر عن سائر الكتب السماوية بلفظ «أنزل»؛ لدلالة الوزن علىٰ الفعل مرَّةً، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾ [النساء: ١٣٦].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قال في القرآن «نزَّل»؛ لأنه نزل مفرَّقًا منجَّمًا علىٰ الوقائع، بحسب ما يحتاج العباد إليه في معادهم ومعاشهم، وأمَّا الكتب المتقدمة فكانت تتنزل جملة واحدة؛ ولهذا قال: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾ [النساء: ١٣٦]».

ومن الإيمان بالكتب: أن نُؤمن بأن القرآن مهيمن علىٰ ما سبقه من الكُتُب، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ [المائدة: ٤٨]، ومعنىٰ ذلك: أن القرآن قاضٍ وناسخٌ لما سبقه من الكتب حيث لم توافقه.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٣٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «المهيمن: الشاهد المؤتمن الحاكم، يشهد بما فيها من الحقِّ ويُبيّن ما حُرِّف فيها، ويحكم بإقرار ما أقرَّه الله من أحكامها، وينسخ ما نسخه الله منها، وهو مؤتمن في ذلك عليها».

والكتب السماوية السابقة أصابها التحريف والتبديل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ [المائدة: ١٥]، ولم يكتب الله الحفظ إلا للقرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ولذلك يجب على الخلق كافة تلقي دينهم من الكتاب المحفوظ من التحريف والنقص والزيادة: القرآن.

القرآن هدًى للنَّاس؛ لأنَّ فيه بيان كل شيء، جاء مفصَّلًا من العليم الحكيم؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النحل: ٨٩].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «إنَّ القرآن اشتمل على كلِّ علم نافع، من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وحكم كلِّ حلال وحرام، وما الناس إليه

(١) الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح (١/ ٢٩٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٨٥٤).

محتاجون في أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم ومعادهم».

القرآن مبارك، تلاوته ذكر، والاهتداء به حياة، والأخذ به سعادة في الدُّنيا والآخرة، ونجاة من الشقاء، قال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «كتابه مبارك، قال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ [ص: ٢٩]، وهو أحق أن يُسمَّىٰ مباركًا من كل شيء؛ لكثرة خيره ومنافعه، ووجوه البركة فيه».

وقال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «إنَّ هذا الكتاب مبارك، أي: كثير البركات والخيرات، فمن تعلَّمه وعمل به؛ غمرته الخيرات في الدنيا والآخرة».

وقال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [سورة طه: ١٢٣، ١٢٤].

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: تكفل الله لمن قرأ القرآن، وعمل بما فيه؛ أن لا يضلَّ في الدنيا، ولا يشقىٰ في الآخرة[٣].

وليس شيء أفرح للمؤمنين، وأشرح لصدورهم، وأهدىٰ لبصائرهم، وأهنأ لعيشهم، وأقوم لعقائدهم وأعمالهم من القرآن.

---

(١) جلاء الأفهام (ص٤٣٢).

(٢) العذب النمير (٢/ ٨٧١).

(٣) بدائع التفسير (٢/ ١٩١).

قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٧]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ أرفع درجات القلوب فرحها التام بما جاء به الرسول ﷺ، وابتهاجها وسرورها؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨] الآية؛ ففضل الله ورحمته القرآن والإيمان، من فرح به فقد فرح بأعظم مفروح به».

القرآن يهدي للتي هي أقوم في: العقائد، والعبادات، والأحكام، والسياسة، والأخلاق، والمعاملات، ومعاش الدنيا والآخرة، وكل ما يحتاجه الناس للاهتداء به.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

قال العلامة عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾، وأمثل، من توحيد الله وطاعته، وتصديق رسله، والعمل بالمعروف، ومكارم الأخلاق».

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «من اهتدىٰ بما يدعو

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٦/ ٤٩).

(٢) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ١٣٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص٤٧٧).

إليه القرآن؛ كان أكمل الناس وأقومهم، وأهداهم في جميع أموره».

بقراءة القرآن مع التدبُّر، وبالأخذ به علمًا واعتقادًا وعملًا؛ تستنير البصائر إلىٰ ما يصلح المجتمعات والأفراد.

قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إذا تدبَّر معانيه عرف منها العقائد التي هي الحقُّ، وعرف أصول الحلال والحرام، ومكارم الأخلاق، وأهل الجنة وأهل النار، وما يصير إليه الإنسان بعد الموت، وما يسبب له النعيم الأبدي، وما يسبب له العذاب الأبدي، فكله خيرات وبركات؛ لأنَّه نور ينير الطريق التي تميِّز بين الحسن من القبيح، والنَّافع من الضَّار، والباطل من الحقِّ؛ فهو كله خيرات».

ومن آمن بالقرآن وحيًا من الله، وكلامه وشرعه، وخطابه إلىٰ خلقه فيما يجب عليهم اعتقاده والعمل به ليفوزوا بالجنة؛ أقبل علىٰ تفهُّم معانيه والعمل بما فيه.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «من تمام الإيمان به الإقبال علىٰ معرفة معانيه، والعمل بكلِّ ما دلَّ عليه، بالتصديق بأخباره، وامتثال

(١) العذب النمير (٢/ ٨٧١).

(٢) فتح الرَّحيم الملك العلَّام في علم العقائد والتَّوحيد والأخلاق والأحكام (ص٦٨).

أوامره، واجتناب نواهيه».

فالأمَّة ينصرها الله ويتولاها وتهتدي بالتمسُّك بالقرآن، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ۝١٧٠﴾ [الأعراف: ١٧٠]، وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣].

وقال النبيُّ ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، كتاب الله»، رواه مسلم.

قال العلامة عبد الرحمن السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: يتمسَّكون به علمًا وعملًا، فيعلمون ما فيه من الأحكام والأخبار التي علمها أشرف العلوم.

ويعملون بما فيها من الأوامر التي هي قرَّة العيون، وسرور القلوب، وأفراح الأرواح، وصلاح الدُّنيا والآخرة».

وحجيَّة خطاب الله في القرآن على الكافرين محتواه؛ فإنَّه دالٌّ على أنَّه من عند الله، صدق في الأخبار وعدل في الأحكام، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، وهو برهان على صحة نبوَّة رسول رب العالمين؛ لأنَّه ﴿جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧]، فمن أجل هذا قال ورقة بن نوفل: هذا النَّاموس الذي كان

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان (ص٣١٧).

ينزل على موسى. وقال النَّجاشي بعد تلاوة الصَّحابة لآيات القرآن في عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «إنَّ هذا، والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة»[1].

وكلُّ من تدبَّر القرآن بعدل وإنصاف؛ دلَّه على ألوهية المتكلِّم به، ورسالة مُبلِّغه، قال تعالى عن المنصفين من أهل الكتاب: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة المائدة: ٨٢، ٨٣].

القرآن آية ومعجزة، ليس في استطاعة أحد من الخلق أن يأتي بمثله، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

القرآن كلام ربِّ العالمين، وحُجَّة الله على خلقه أجمعين.

قال الحافظ البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «أعجز الخلق عن الإتيان بمثله، أو مثل سورة من مثله، وأبقاه في أمَّته إلى قيام السَّاعة؛ ليكون حُجَّة على من جاء».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «سُمِّيت آيات القرآن آيات، وقيل: إنَّها آيات الله، كقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٢]؛ لأنَّها علامات ودلالات على الله وعلى ما أراد، فهي تدلُّ على

---

(١) الدُّرَر في اختصار المَغَازي والسِّيَر (ص١٣٦، ١٣٧).

(٢) شرح السنة (١٣/ ٢٨٥).

(٣) النبوات (٢/ ٦٧١).

ما أخبر به، وعلى ما أمر به ونهى عنه، وتدلُّ أيضًا على أنَّ الرَّسول ﷺ صادق؛ إذ كانت مما لا يستطيع الإنس والجن أن يأتوا بمثلها، وقد تحداهم بذلك».

فالنبيُّ محمَّد ﷺ بعثه الله عَزَّوَجَلَّ إلى النَّاس كافَّة، وخاطب الله الخلق جميعًا إلى يوم القيامة بوحيه القرآن؛ هداية للخلق، وحجَّة عليهم.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يقول تعالى لنبيِّه ورسوله محمَّد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وهذا خطاب للأحمر والأسود، والعربي والعجمي، ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: جميعكم، وهذا من شرفه وعظمته أنَّه خاتم النبيين، وأنَّه مبعوث إلى الناس كافة؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ﴾ [هود: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ﴾ [آل عمران: ٢٠]، والآيات في هذا كثيرة، كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر، وهو معلوم من دين

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٨٩).

الإسلام ضرورة؛ أنه صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلىٰ الناس كلهم».

القرآن كلام رب العالمين، ليس بقول شاعر ولا كاهن، وليس في استطاعة مخلوق أن يقول نظيره، بلاغته إعجاز، ومعانيه محكمة، وله سلطان علىٰ القلوب دالٌّ علىٰ عظمة من تكلَّم به.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [سورة الشعراء: ١٩٢- ١٩٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «ما من كلام تكلَّم به الناس، وإن كان في أعلىٰ طبقات الكلام لفظًا ومعنًى، إلَّا وقد قال الناس نظيره، وما يشبهه ويقاربه، سواء كان شعرًا، أو خطابة، أو كلامًا في العلوم والحكم والاستدلال، والوعظ، والرسائل، وغير ذلك، وما وُجد من ذلك شيء إلَّا ووُجد ما يشبهه ويقاربه.

والقرآن ممَّا يعلم النَّاس - عربهم وعجمهم - أنَّه لم يوجد له نظير، مع حرص العرب وغير العرب علىٰ معارضته؛ فلفظه آية، ونظمه آية، وإخباره بالغيوب آية، وأمره ونهيه آية، ووعده ووعيده آية، وجلالته وعظمته وسلطانه علىٰ القلوب آية، وإذا تُرجم بغير العربي كانت معانيه آية، كل ذلك لا يوجد له نظير».

القرآن فرقان، من أخذ به علىٰ مراد الله عَزَّوَجَلَّ عرف الحق ونصره، قال

---

(١) النبوات (١/ ٥١٦، ٥١٧).

تعالىٰ: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ [الشورىٰ: ٢٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الفرقان متضمِّن للنَّجاة، والنَّصر، والعلم، والنُّور الفارق بين الحقِّ والباطل، وتكفير السيئات، ومغفرة الذنوب».

القرآن يسَّره الله للفهم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر: ١٧]، وهذا فيه حثٌّ إلهي علىٰ طلب معانيه وتفهمه والاهتداء والعمل به.

وآيات القرآن ألفاظ معلومة مفهومة؛ فهو وحي ربِّ العالمين، بلسان عربي مبين، ألفاظه يسيرة للفهم، إذا تُليت علىٰ الناس فهموها، وأورثهم سماعه خشوعًا، وخضعت لسلطانه قلوبهم، وكان سببًا لتلقِّيهم عقائده وأحكامه بالإيمان والعمل، وأخباره بالتَّصديق.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «اعلم أنَّ النُّصوص الشَّرعيَّة من الكتاب والسنَّة، تأتي مُركَّبةً صريحةً في معانيها، لا تحتمل غيرها بوجه، هذا حالها في نفسها، وقد اتفق علىٰ هذا جميع أئمة المسلمين، الذين عرفوا مقاصد الشَّارع في مصادره وموارده».

وبيَّن العلامة السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن من قصر فهمه لمعاني الوحي، فإنَّما هو بسبب عدم إقباله التام علىٰ كلام الله وعدم اعتنائه به[٣].

---

(١) التبيان في أيمان القرآن (ص٩٠).

(٢) توضيح الكافية الشَّافية (ص٧٩).

(٣) توضيح الكافية الشَّافية (ص٨٠).

والقرآن آمن به الموحِّدون، وهو أجلُّ في قلوبهم وأعظم في اعتقادهم أن يقدموا عليه قول مخلوق، قال تعالىٰ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١].

قال العلامة المجدِّد عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أعلىٰ مراتب العلم واليقين مدلول كلام الله عَزَّوَجَلَّ، وكلام رسوله ﷺ، وأنَّه مشتمل علىٰ البراهين القاطعة والمسائل النَّافعة، ويبرءون إلىٰ الله من تقديم غيرها عليها، وهي أعظم في صدورهم وأجلُّ في نفوسهم من أن يُقدّم عليها معقول أو رأي أو قياس أو قول أحد من النَّاس كائنًا من كان».



(١) توضيح الكافية الشَّافية (ص١٠٠).

رابعًا: الإيمان بالرسل: الرِّسالة اصطفاء كما قال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾ [الحجُّ: ٧٥]، وليست اختيارًا كما يقوله الملاحدة والزَّنادقة من غلاة الصُّوفيَّة ومن ضاهاهم.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]:

«ويكفي في فضلهم وشرفهم أن الله اختصَّهم بوحيه، وجعلهم أمناء علىٰ رسالته، وواسطته بينه وبين عباده، وخصَّهم بأنواع كراماته، فمنهم من اتَّخذه خليلًا، ومنهم من كلمه تكليمًا، ومنهم من رفعه مكانًا عليًا علىٰ سائرهم درجات، ولم يجعل لعباده طريقًا للوصول إليه إلَّا من طريقهم، ولا دخولًا إلىٰ جنَّته إلَّا خلفهم، ولم يكرم أحدًا منهم بكرامة إلَّا علىٰ أيديهم، فهم أقرب الخلق إليه وسيلةً، وأرفعهم عنده درجةً، وأحبُّهم إليه، وأكرمهم عليه.

وبالجملة فخير الدُّنيا والآخرة إنَّما ناله العباد علىٰ أيديهم، وبهم عرف الله، وبهم عبد وأطيع، وبهم حصلت محابُّه تعالىٰ في الأرض... ».

وكما أنَّ الرِّسالة والنُّبوَّة اصطفاء، فإن هذا الاصطفاء خاص أيضًا، فهو اصطفاء خاص بالإنس، والجنُّ ليس فيهم رسل، إنَّما فيهم منذرون، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «واختلفوا: هل يكون في الجنِّ رسل؟

---

(١) بدائع التفسير (٣/ ٣٤٣).

(٢) النبوات (٢/ ١٠٠٤، ١٠٠٥).

والأكثرون على أنَّه لا رسل فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ [يوسف: ١٠٩]».

وعن الحسن البصريِّ قال[١]: «لم يبعث الله نبيًّا من أهل البادية، ولا من الجنِّ، ولا من النِّساء».

ثمَّ هذا الاصطفاء في الإنس فيه اصطفاء أخصُّ منه، وهو اصطفاء في الرِّجال دون النِّساء، فلم يرسل الله إلَّا الرِّجال، ولم تنبَّأ امرأة قطُّ.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ [الأنبياء: ٧].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «أي جميع الرُّسل الَّذين تقدَّموا كانوا رجالًا من البشر».

وقال الشِّنقيطيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «يفهم من هذه الآيات أنَّ الله لم يرسل امرأةً قطُّ».

وقال العلامة عبد الرَّحمن السَّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «وفي هذه الآية دليل على أن النِّساء ليس منهنَّ نبيَّة، لا مريم ولا غيرها؛ لقوله: ﴿إِلَّا رِجَالٗا﴾».

وقد زلَّ بعض الأكابر في هذا الباب، وتوهَّموا نبوَّة مريم عليها السَّلام وغيرها.

---

(١) النبوات (٢/ ١٠٠٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ١٧٤).

(٣) أضواء البيان (٣/ ٢٥٠).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٢٦٩).

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «والصَّحيح أن مريم نبيَّة؛ لأنَّ الله تعالىٰ أوحىٰ إليها بواسطة الملك كما أوحىٰ إلىٰ سائر النَّبيِّين».

وكأنَّ البخاريَّ جنح إلىٰ هذا، فقد ذكر في كتاب الأنبياء باب[٢]:

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٢-٤٤].

والصَّواب أنَّ هذا الاصطفاء لمريم هو الاختيار للطَّاعة، ولأن تلد من غير فحل، وليس المراد اصطفاء رسالة ونبوَّة. وأمَّا الوحي المذكور عنها فهو **إعلام خاص**، وليس هو وحي رسالة، وهذا الإعلام حاصل حتَّىٰ للنَّحل، قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النَّحل: ٦٨].

وتعلَّق البعض بحديث: «كمل من الرِّجال كثير، ولم يكمل من النِّساء إلَّا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة علىٰ النِّساء كفضل الثَّريد علىٰ سائر الطَّعام»[٣]. فهذا الكمال علىٰ جنسها من النِّساء فقط، كما هو صريح الحديث.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٨٣).

(٢) رقم (٤٥)، فتح الباري (٦/ ٤٧٠).

(٣) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء (ص٥٧٣- رقم ٣٤١١)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا (ص١٠٦٩- رقم ٦٢٧٢) من حديث أبي موسىٰ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وكما أن الرِّسالة اصطفاء، وهذا الاصطفاء خاص بالرِّجال كما سبق، فهناك اصطفاء خاص لبعض الرُّسل على بعض.

فخاصَّة المصطفين أولو العزم من الرُّسل، وخاصَّة الخاصَّة سيِّد ولد آدم خاتم النَّبيِّين خليل الرَّحمن نبيُّنا محمَّد ﷺ.

قال تعالىٰ: ﴿**تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ**﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وقال تعالىٰ: ﴿**وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا**﴾ [الإسراء: ٥٥].

فهذه الآيات صريحة في تفضيل الله لبعض الأنبياء على بعض، واختصَّ الله من بين الأنبياء أولي العزم من الرُّسل، وهم: نبيُّنا محمَّد ﷺ، ونوح، وإبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ. وقد ورد ذكرهم في قوله تعالىٰ: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا**﴾ [الأحزاب: ٧]، وهذه الآية تدلُّ علىٰ تفضيلهم علىٰ غيرهم؛ لأنَّ الله ذكر أخذ الميثاق على النَّبيِّين عامَّةً ثمَّ خصَّ بالذِّكر من بينهم أولي العزم من الرُّسل، فعطف الخاصِّ على العامِّ دليل علىٰ مزيَّة لهم دون سائر أفراد العامِّ.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١):

«**وذكر الخاصِّ مع العامِّ يكون لأسباب متنوِّعة:** تارةً لكونه له خاصِّيَّة

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٠/ ١٧٥).

ليست لسائر أفراد العامِّ، كما في نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ».

وقد بيّن العلامة عبد الرَّحمن السَّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ العزم الَّذي اختصَّ الله به هؤلاء النَّبيِّين الخمسة، فقال[1]: «العزم الَّذي مدح الله به خيار خلقه كقوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] الآية - هو قوَّة الإرادة وجزمها علىٰ الاستمرار علىٰ أمر الله، والهمَّة الَّتي لا تني ولا تفتر في طلب رضوان الله، وحسن معاملته، وتوطين النَّفس علىٰ عدم التَّقصير في شيء من حقوق الله، ولذلك لام الله آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعدم استمراره علىٰ الأمر، وحصول الاغترار منه لعدوِّه بأكل الشَّجرة الَّتي عهد الله له بالامتناع من أكلها، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

فحصول الفتور وفلتات التَّقصير مناف كمال العزم، ولهذا لم يكن هذا الوصف إلَّا لمن بلغوا الدَّرجة العالية في الفضائل».

ومن الأدلَّة علىٰ تفضيلهم علىٰ غيرهم هو أمر الله لنبيِّنا محمَّد ﷺ بالاقتداء بهم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وكذلك وصفهم بهذا الوصف: ﴿أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ﴾ دون غيرهم يدلُّ علىٰ اختصاصهم به دون غيرهم.

وأفضل أولي العزم نبيُّنا محمَّد ﷺ، ثمَّ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

---

(١) المواهب الربانية من الآيات، القرآنية ص(١٩، ٢٠).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١):

«وأمَّا قصَّة نوح، وإبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ، وغيرهم صلوات الله عليهم - فتلك أعظم، والواقع فيها من الجانبين، فما فعلته الأنبياء من الدَّعوة إلىٰ توحيد الله وعبادته، ودينه وإظهار آياته، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، ومجاهدة المكذِّبين لهم، والصَّبر علىٰ أذاهم - هو أعظم عند الله، **ولهذا كانوا أفضل من يوسف** صلوات الله عليهم أجمعين، وما صبروا عليه وعنه أعظم من الَّذي صبر يوسف عليه وعنه، وعبادتهم لله، وطاعتهم وتقواهم وصبرهم بما فعلوه - أعظم من طاعة يوسف وعبادته وتقواه، أولئك أولو العزم الَّذين خصَّهم الله بالذِّكر في قوله: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ**﴾ [البقرة: ٦٣]، وقال تعالىٰ: ﴿**۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ**﴾ [الشُّورىٰ: ١٣]، وهم يوم القيامة الَّذين تطلب منهم الأمم الشَّفاعة، وبهم أمر خاتم الرُّسل أن يقتدي في الصَّبر، فقيل له: ﴿**فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ**﴾ [الأحقاف: ٣٥]».

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «وأعلاهم منزلةً أولو العزم منهم، المذكورون في قوله تعالىٰ: ﴿**۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ**

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٧/ ٣٢).

(٢) بدائع التفسير (٣/ ٣٤٣).

وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ﴾.

وهؤلاء هم الطَّبقة العليا من الخلائق، وعليهم تدور الشَّفاعة حتَّىٰ يردُّوها إلىٰ خاتمهم وأفضلهم ﷺ».

وقد وردت نصوص تدلُّ علىٰ فضيلة مخصوصة لبعض النَّبيِّين دون بعض، وفضلهم لا شكَّ أنَّه دون فضل أولي العزم من الرُّسل.

فإدريس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **قال الله في شأنه:** ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]، ويحيىٰ كذلك قال الله في شأنه: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧]، قال العلامة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «يحتمل أن المعنىٰ: لم نجعل له من قبل مثيلًا ومساميًا، فيكون ذلك بشارةً بكماله، واتِّصافه بالصِّفات الحميدة، وأنَّه فاق من قبله، ولكن علىٰ هذا الاحتمال، هذا العموم لا بد أن يكون مخصوصًا بإبراهيم وموسىٰ ونوح عليهم السَّلام ونحوهم، ممَّن هو أفضل من يحيىٰ قطعًا».

وكذلك سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فإنَّه كان ملكًا نبيًّا، قد أجاب الله دعاءه وآتاه ملكًا ما كان لأحد من بعده: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥].

قال العلامة عبد الرَّحمن السَّعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنَّ سليمان كان ملكًا نبيًّا، مباحًا له أن يفعل ما يريد، ولكنَّه لكماله لا يريد إلَّا الخير والعدل،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص(٤٩٠).

(٢) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، ص(١٩٩).

وهذا بخلاف النَّبيِّ العبد، فإنَّه لا يكون له إرادة مستقلَّة، بل إرادته تابعة لمراد الله منه، فلا يفعل ولا يترك إلَّا تبعًا للأمر، كحال نبيِّنا محمَّد ﷺ».

وقد يختصُّ بعض الأنبياء بشيء دون نبيِّنا محمَّد ﷺ كما اختصَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنَّه أوَّل من يكسى يوم القيامة من حلل الجنَّة، وهذا لا يدلُّ على أنَّه أفضل من نبيِّنا محمَّد ﷺ، **فإنَّ الفضيلة بنوع لا تستلزم الفضيلة مطلقًا**، والعبرة بمجموع الفضائل.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ[1]:

«فالمفضول قد يختصُّ بأمر، ولا يلزم أن يكون أفضل من الفاضل. ودليل ذلك أنَّ أزواجه - يعني: نبيَّنا محمَّد ﷺ - هم ممَّن يصلَّى عليه، كما ثبت ذلك في الصَّحيحين، فقد ثبت باتِّفاق النَّاس كلِّهم أن الأنبياء أفضل منهنَّ».

وهنا سؤال مشهور، وهو أنَّه إذا كان نبيُّنا محمَّد ﷺ أفضل الرُّسل، فلم قيل في تحيَّات الصَّلاة: كما صلَّيت على إبراهيم. والمشبَّه دون المشبَّه به؟

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ[2]:

«وقد أجيب عن ذلك بأجوبة، منها: أن يقال: إن آل إبراهيم فيهم الأنبياء، ومحمَّد فيهم، قال ابن عبَّاس: محمَّد من آل إبراهيم. فمجموع آل إبراهيم بمحمَّد أفضل من آل محمَّد، ومحمَّد قد دخل في الصَّلاة على آل إبراهيم، فيأخذ أهل بيته ما يليق بهم، ويبقى سائر ذلك لمحمَّد ﷺ، فيكون

(١) منهاج السنة (٧/ ٧٨).

(٢) منهاج السنة (٧/ ٢٤٨، ٢٤٩).

قد طلب له من الصَّلاة ما جعل للأنبياء من آل إبراهيم، والَّذي يأخذه الفاضل من أهل بيته دونه لا يكون مثل ما يحصل للنَّبيِّ، فتعظم الصَّلاة عليه بهذا الاعتبار، ﷺ، وقيل: إن التَّشبيه في الأصل لا في القدر».

وشيخنا العلَّامة محمَّد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: إن الكاف في قوله: «**كما صليت علىٰ إبراهيم**» للتَّعليل، وليست للتَّشبيه.

أمَّا قوله تعالىٰ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، أي: في الإيمان بهم جميعًا، فلا يصحُّ إيمان عبد بالإيمان ببعض الرُّسل دون بعض، وهذا شأن الكافرين، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النِّساء: ١٥٠، ١٥١].

ولذلك جعل الله من كفر بنبيٍّ واحد أو رسول واحد كمن كفر بجميع المرسلين عليهم السَّلام، قال تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشُّعراء: ١٠٥]، مع أن نوحًا أوَّل رسول، لكنَّ التَّكذيب برسول واحد كالتَّكذيب بسائر الرُّسل.

وقد وردت نصوص في النَّهي عن التَّفضيل بين الأنبياء:

(١) عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **أن رسول الله** ﷺ **قال: «لا تفضِّلوا بين أنبياء الله»**(١).

---

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصَّافَّات: ١٣٩] (ص٥٧٤ – رقم ٣٤١٤)، ورواه مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل =

(٢) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تفضِّلوني على موسىٰ، فإن النَّاس يصعقون يوم القيامة، فأكون أوَّل من يفيق، فأجد موسىٰ باطشًا بساق العرش، فلا أدري هل أفاق قبلي أو كان ممَّن استثنىٰ الله»[١].

(٣) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال[٢]: جاء رجل إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا خير البريَّة! فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك إبراهيم** عَلَيْهِ السَّلَامُ».

وقد أجاب العلماء عن هذا النَّهي بأجوبة[٣]:

(١) قطعًا للجدال والخصام في الأنبياء، فيكون مخصوصًا بمثل ذلك.

(٢) النَّهي عن التَّفضيل إنَّما هو بمجرَّد الأهواء والعصبيَّة.

(٣) ألا يفضل بينهم تفضيلًا يؤدِّي إلىٰ تنقص بعضهم أو الغضِّ منه.

(٤) أنَّه ﷺ نهىٰ عن ذلك علىٰ طريق التَّواضع ونفي التَّكبُّر والعجب.

وأفضل الأنبياء - عليهم السَّلام - نبيُّنا محمَّد ﷺ، فهو سيِّد ولد آدم، وهو إمام الأنبياء في الإسراء، وهو حامل لواء الحمد، وأوَّل من يشفع في الجنَّة، وهو الَّذي بعث إلىٰ النَّاس كافَّةً، وهو أكثر النَّاس تابعًا يوم القيامة، =

موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ (ص١٠٤٣- رقم ٦١٥١).

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (ص٥٧٤- رقم ٣٤١٤)، ورواه مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ (ص١٠٤٣- رقم ٦١٥١).

(٢) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ (ص١٠٤٠ - رقم ٦١٣٨).

(٣) الشفا للقاضي عياض (١/ ٣٠٧، ٣٠٨)، وفتح البيان لصديق حسن خان (١/ ٤١٧).

وهو خاتم الأنبياء، وهو خليل الرَّحمن، وهو صاحب الكوثر، والحوض المورود...

وإذا تقرَّر هذا من أنَّ رسل الله أفضل الخلق عليهم السَّلام، فاعلم أنَّ هناك طائفةً من غلاة الصُّوفيَّة تزعم أنَّ أولياءهم أفضل من أنبياء الله، وأنَّ ولايتهم أكمل من الرِّسالة، وينشدون:

مقـــام النُّبـــوَّة في بـــرزخ فويـــق الرَّســـول ودون الـــولي

وسبب تفضيل هؤلاء - حسب زعمهم - أن الوليَّ يتلقَّى الوحي بلا واسطة، وأنَّه يتلقَّاه بما يفيضه عليه عقله، بخلاف الرُّسل، فإنَّهم يتلقَّون الوحي بالواسطة، وأنَّ النَّاس ما زالوا محتاجين مفتقرين ومنتفعين من الأولياء بخلاف الرُّسل الَّذين ماتوا وقبضوا.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]:

«**وآخرون يدعون ما هو عندهم أعلىٰ من النُّبوَّة**: إمَّا ختم الولاية عند من يزعم أن الولاية أفضل من النُّبوَّة، كمذهب صاحب «الفصوص» ابن عربيٍّ وأمثاله، وإمَّا دعوىٰ الفلسفة والحكمة الَّتي هي في زعم كثير منهم أعلىٰ من النُّبوَّة.

وهؤلاء الملاحدة نوعان: نوع يزعم أنَّه نزل عليه، كما يدَّعي ذلك من يدَّعيه من ملاحدة أهل النُّسك والتَّصوُّف.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٢٠٨، ٢٠٩).

ثمَّ من هؤلاء من يقول: ألقي إليَّ، أوحي إليَّ، ولا يسمِّي الموحي.

وقوم يزعمون أنَّهم يقولون ذلك بعقلهم ورأيهم.

وقد جمع الله هؤلاء في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، فذكر سبحانه من يفتري الكذب على الله، ومن يقول إنَّه يوحى إليه، ومن يزعم أنَّه يقول كلامًا مثل الكلام الَّذي أنزل الله.

وهذا الأصل هو ممَّا يعلم بالضَّرورة من دين الرُّسل من حيث الجملة: يعلم أنَّ الله إذا أرسل رسولًا، فإنَّما يقول ما يناقض كلامه ويعارضه من هو كافر، فكيف بمن يقدِّم كلامه على كلام الرَّسول؟!

وأمَّا المؤمنون بما جاء به، فلا يتصوَّر أن يقدِّموا أقوالهم على قوله، بل قد أدَّبهم الله بقوله: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]».

بل إنَّ الغزاليَّ قد صرَّح بأنَّ قتل من ادَّعى أنَّ رتبة الولاية أعلى من رتبة النُّبوَّة - أحبُّ إليه من قتل مائة كافر؛ لأنَّ ضرر هذا في الدِّين أعظم»[(١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «وكلُّ من جعل غير الرَّسول بمنزلة الرَّسول في خصائص الرِّسالة - فهو مضاه لمن جعل معه رسولًا آخر كمسيلمة ونحوه، وإن افترقا في بعض الوجوه، ثمَّ يكون هؤلاء شرًّا إذا فضلوا متبوعهم على الرَّسول، وقد يكون أتباع مسيلمة شرًّا إذا كان متبوع

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ١٧٣).

(٢) السبعينية ص(٥٠٨).

هؤلاء مؤمنًا بالله ورسوله، ولم يفضِّلوه علىٰ الرَّسول».

وخالفت الأشاعرة أهل السُّنَّة في النُّبوَّة، وقول الأشاعرة في النُّبوَّة متفرِّع عن أصلهم في أفعال الله، فلمَّا نفوا الحكم والأسباب في أفعال الله، وجعلوها متعلِّقةً بمحض المشيئة، وجوَّزوا فعل كلِّ ممكن، كما هو قول الجهم بن صفوان، والأشعريِّ ومن وافقه، فهؤلاء جوَّزوا بعثة كلِّ مكلَّف، والنُّبوَّة عندهم مجرَّد إعلام النَّبيِّ بما أوحاه الله إليه، والرِّسالة مجرَّد أمره بتبليغ ما أوحاه إليه، وليست النُّبوَّة عندهم صفةً ثبوتيَّةً، ولا مستلزمةً لصفة يختصُّ بها، بل هي من الصِّفات الإضافيَّة، كما يقولون مثل ذلك في الأحكام الشَّرعيَّة[١].

ولما كان العقل قائد الأشاعرة في العقيدة، فلذلك يصدر من أئمَّتهم من منكرات العقائد ما يكون كفرًا محضًا أحيانًا، وإن لم يكن ذلك المنكر قول جميعهم، لكن المقصود بيان أنَّ أئمَّتهم لا يأتمُّون بسلف، بل ينتحلون خلاصة عقولهم، وإن كانت كفرًا.

فهذا إمام الأشاعرة في زمانه أبو بكر بن فورك قال: «إنَّ نبيَّنا محمَّدًا ﷺ ليس هو رسول اليوم، لكنَّه كان رسول الله»[٢].

ومن أجل ذلك سعىٰ السُّلطان محمود بن سبكتكين في قتله[٣].

---

(١) منهاج السنة (٢/ ٤١٤).

(٢) طبقات الفقهاء الشافعية لابن الصلاح اختصار المزي (١/ ١٣٨).

(٣) طبقات الفقهاء الشافعية لابن الصلاح اختصار المزي (١/ ١٣٧)، سير أعلام النبلاء (١٧/ ٢١٦).

ونبيُّنا محمَّد ﷺ ختمت به النُّبوَّة، كما قال تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**لا نبيَّ بعدي**»[(١)]، قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «ولهذا ختم الله به ديوان النُّبوَّة، فلم يجعل بعده رسولًا؛ لاستغناء الأمَّة به عمَّن سواه».

ونبيُّنا ﷺ بُعث على فترة من الرُّسل، بعد دروس آثار النُّبوَّة كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «هذه الفترة الَّتي كانت بين المسيح وبين محمَّد - صلوات الله عليهما وسلامه -، وهي فيما ذكره غير واحد من العلماء، كسلمان الفارسيِّ وغيره - كانت ستَّمائة سنة، وقد قيل: ستُّمائة سنة شمسيَّة. وهي ستُّمائة وعشرون أو ثماني عشرة هلاليَّة، وذلك أن كلَّ مائة سنة شمسيَّة تكون مائةً وثلاث سنين هلاليَّة، كما قال تعالى: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾ [الكهف: ٢٥].

وهذه التِّسع وبعض العاشرة، والتَّاريخ قد تحسب فيه التَّامَّة، وتحسب

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل (ص٥٨١- رقم ٣٤٥٥)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب: وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول (ص٨٢٧ – رقم ٤٧٧٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١٥٦).

(٣) الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح (١/ ٢١١).

فيه النَّاقصة، فمن قال عشرين حسب النَّاقصة، ومن قال ثماني عشرة حسب التَّامَّة فقط».

ومعرفة مقدار هذه الفترة ينفع في التَّمييز بين الصَّالحين والنَّبيِّين فيمن يذكر منهم في هذه الفترة، كالحال بالنِّسبة لدانيال.

قال يونس بن بكير، عن محمَّد بن إسحاق، عن أبي خلدة خالد بن دينار: حدَّثنا أبو العالية قال: لمَّا افتتحنا تستر وجدنا في مال بيت الهرمزان سريرًا، عليه رجل ميِّت، عند رأسه مصحف، فأخذنا المصحف، فحملناه إلىٰ عمر بن الخطَّاب، فدعا له كعبًا فنسخه بالعربيَّة، فأنا أوَّل رجل من العرب قرأه، قرأته مثلما أقرأ القرآن هذا.

فقلت لأبي العالية: ما كان فيه؟ قال: سيركم وأموركم ولحون كلامكم، وما هو كائن بعد. قلت: فما صنعتم بالرَّجل؟

قال: حفرنا بالنَّهار ثلاثة عشر قبرًا متفرِّقةً، فلمَّا كان باللَّيل دفنَّاه، وسوَّينا القبور كلها؛ لنعمِّيه علىٰ النَّاس، فلا ينبشونه.

قلت: فما يرجون منه؟ قال: كانت السَّماء إذا حبست عنهم، برزوا بسريره، فيمطرون.

قلت: من كنتم تظنُّون الرَّجل؟ قال: رجل يقال له: دانيال. **قلت: منذ كم وجدتموه قد مات؟ قال: منذ ثلثمائة سنة**. قلت: ما تغيَّر منه شيء؟ قال: لا، إلَّا شعرات من قفاه، إنَّ لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها السِّباع»[1].

---

(١) البداية والنهاية (٢/ ٣٧٧).

قال الحافظ ابن كثير[١]: «وهذا إسناد صحيح إلىٰ أبي العالية، ولكن إن كان تاريخ وفاته محفوظًا من ثلاثمائة سنة، فليس بنبيٍّ، بل هو رجل صالح؛ لأنَّ عيسىٰ بن مريم ليس بينه وبين رسول الله ﷺ نبي بنصِّ الحديث الَّذي في البخاريِّ، والفترة الَّتي كانت بينهما أربعمائة، وقيل: ستُّمائة. وقيل: ستُّمائة وعشرون. وقد يكون تاريخ وفاته من ثمانمائة سنة، وهو قريب من وقت دانيال، إن كان كونه دانيال هو المطابق لما في نفس الأمر، فإنَّه قد يكون رجلًا آخر، إمَّا من الأنبياء أو الصَّالحين، ولكن قربت الظُّنون أنَّه دانيال؛ لأنَّ دانيال كان قد أخذه ملك الفرس، فأقام عنده مسجونًا».

والإيمان بالرُّسل يقتضي الإيمان بعصمتهم، والعصمة لهم خالصة من دون النَّاس، خلافًا للرَّافضة الَّذين ادَّعوا العصمة لأئمَّتهم، وغلوا فيهم غلوَّ النَّصارىٰ[٢].

وعصمة الأنبياء إنَّما هو فيما يخبرون به عن الله سبحانه، وفي تبليغ رسالاته باتِّفاق الأمَّة، وهم معصومون من **الإقرار** علىٰ الذُّنوب مطلقًا، وهذا لا ينافي التَّأسِّي بهم؛ لأنَّ التَّأسِّي بهم إنَّما هو مشروع فيما أقرُّوا عليه دون ما نهوا عنه ورجعوا عنه. أمَّا ما احتجَّ به نفاة الذُّنوب عن الأنبياء مطلقًا، من أن الذُّنوب تنافي الكمال، أو أنَّها ممَّن عظمت عليه النِّعمة أقبح،

---

(١) البداية والنهاية (٢/ ٣٧٧).

(٢) انظر منهاج السنة (٦/ ١٨٩-١٩١).

أو أنَّها توجب التَّنفير، أو نحو ذلك من الحجج العقليَّة، **فهذا إنَّما يكون مع البقاء علىٰ ذلك، وعدم الرُّجوع**، وإلَّا فالتَّوبة الَّتي يقبلها الله يرفع بها صاحبها إلىٰ أعظم ممَّا كان عليه، كما قال بعض السَّلف: كان داود عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد التَّوبة خيرًا منه قبل الخطيئة. **وقال آخر**: لو لم تكن التَّوبة أحبَّ الأشياء إليه لما ابتلي بالذَّنب أكرم الخلق عليه، والله تعالىٰ لم يذكر في القرآن شيئًا من ذلك عن نبيٍّ من الأنبياء إلَّا مقرونًا بالتَّوبة والاستغفار، كقول آدم وزوجته: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ**﴾ [الأعراف: ٢٣]، **والاعتبار بكمال النِّهاية لا بما جرىٰ** في البداية، والأعمال بخواتيمها[١].

فهذا هو التَّحقيق فيما يتعلَّق بعصمة الأنبياء، وإيَّاك أن تلمَّ بشيء من أقوال أهل البدع، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «والقائلون بعصمة الأنبياء من التَّوبة من الذُّنوب ليس لهم حجَّة من كتاب الله وسنَّة رسوله، ولا لهم إمام من سلف الأمَّة وأئمَّتها، **وإنَّما مبدأ قولهم من أهل الأهواء، كالرَّوافض والمعتزلة، وحجَّتهم آراء ضعيفة** من جنس قول الَّذين في قلوبهم مرض، والقاسية قلوبهم الَّذين قال الله فيهم: ﴿**لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى**

(١) تهذيب لكلام شيخ الإسلام في الفتاوىٰ (١٠/ ٢٨٩ - ٢٩٩).

(٢) جامع الرسائل (١/ ٢٦٧) تحقيق: محمد رشاد سالم.

شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [الحجُّ: ٥٣]».

وأمَّا ما يتعلَّق بأعمالهم قبل البعثة، فهل يمكن تصوُّر أو إمكان وقوع ما ينافي التَّوحيد قبل البعثة؟!

هناك آيات ضلَّت فيها أفهام وزلَّت فيها أقدام، توهَّم بعض العلماء شيئًا من ذلك.

من ذلك قوله تعالىٰ عن شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ **قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا** ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وقوله تعالىٰ عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿**فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى**﴾ [الأنعام: ٧٦].

وفي دفع إشكالها، قال العلامة محمَّد الأمين الشِّنقيطيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «أكثر العلماء يقولون: إنَّ الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - معادن وحي، ومحلُّ الخير، والله يقول: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وفي القراءة الأخرىٰ: (حيث يجعل رسالاته) فلا يكفرون بالله؛ **لأنَّ فطرتهم الَّتي ولدوا عليها لا يبدِّلها الله بالكفر؛ لمكانتهم عنده،** فبعض العلماء يقول: لو فرضنا أنَّهم وقع منهم بعض الشِّرك وأنابوا إلىٰ الله، فإنَّهم يصيرون إلىٰ مثل حالهم قبله، وصار كأنَّه لم يكن.

وأكثر الأصوليِّين وعلماء التَّفسير أنَّ شعيبًا لم يكن كافرًا يومًا ما، ويجاب عن ظاهر الآية بجوابين:

---

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير (٣/ ١٤١٧، ١٤١٨).

أحدهما: أن العرب تطلق لفظة (عاد) إطلاقين:

أحدهما: عاد إلىٰ أمر كان فيه سابقًا.

والثَّاني: تقول العرب: «عاد كذا وكذا»، بمعنىٰ: «صار» إلىٰ كذا من جديد. ومنه قولهم: عاد الطِّين خزفًا، وعاد الخمر خلًّا. ولا شكَّ أن هذا الاستعمال موجود في (عاد)؛ تقول العرب: عاد رجلًا فلان، أي: صار إلىٰ الرُّجولة، ولم يتقدَّمه وصف مماثل قبلها، ومنه بهذا المعنىٰ قول الشَّاعر:

وربَّيته حتَّىٰ إذا ما تركته ... أخا القوم واستغنىٰ عن المسح

وبالمحض حتَّىٰ عاد جعدًا ... إذا قام ساوىٰ غارب الفحل

قالوا: معناه: صار جعدًا[1].

الوجه الثَّاني - وبه قال غير واحد -: أن نبيَّ الله شعيبًا كان معه جماعة من قومه آمنوا به، فالَّذين آمنوا به من قومه كانوا كفَّارًا علىٰ ملَّة قومهم، وهم عدد كثير، وهو رجل واحد، فعبَّر باسم العدد الكثير وغلبوه علىٰ ذلك، والتزم معهم شعيب في هذا الخطاب تغليبًا لقومه الأكثرين[2].

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما ذكروه لا يشهد لمعنىٰ الآية، فإن لفظها: ﴿أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ [الأعراف: ٨٨] وقول شعيب: ﴿قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم﴾ [الأعراف: ٨٩]». تفسير آيات أشكلت (١/ ١٧٣).

(٢) ذكر وجه ثالث في معنىٰ العود، ذكره ابن عطية، وهو العود إلىٰ ترك الأمر والنهي والدعوة إلىٰ الإيمان كما كانوا قبل أن يرسلوا. واعترض شيخ الإسلام علىٰ هذا بأن العود حينئذ يكون للرسل خاصة. تفسير آيات أشكلت (١/ ١٦٨).

وظاهر كلام ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف - يفيد ذهابه إلىٰ أن شعيبًا كان معهم - سابقًا - علىٰ ملَّتهم، وكذلك قال صريحًا عن إبراهيم في قوله: ﴿**فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ**﴾ [الأنعام: ٧٦]، فنقل ابن جرير عن ابن عبَّاس: أن إبراهيم كان يظنُّ ربوبيَّة الكوكب في ذلك الزَّمن.

ونحن نقول: إن قوله في الخليل إبراهيم غلط محض، لا شكَّ فيه، **وإن نسبه إلىٰ ابن عبَّاس**؛ لأنَّ الآيات القرآنيَّة صرَّحت بأنَّ إبراهيم لم يكن من المشركين، **ونفت عنه الشِّرك في الكون الماضي، والكون الماضي يستغرق كلَّ الزَّمن**، كقوله: ﴿**مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ**﴾ [آل عمران: ٦٧]. قوله: ﴿**وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ**﴾ نفي الشِّرك عن إبراهيم في الكون الماضي، والكون الماضي مستغرق، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [النَّحل: ١٢٠]، ونحو ذلك من الآيات، فنفي هذا عن إبراهيم صريح، ونفيه عن شعيب لم يقم دليل عليه في الصَّراحة كإبراهيم».

وأمَّا وقوع ما ينافي التَّوحيد منهم بعد البعثة فهذا ممتنع، وهو يضادُّ ما بعثوا به من تحقيق التَّوحيد!

وكذلك الحال بالنِّسبة لآدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فإنَّ بعض العلماء يرىٰ أنَّ قوله تعالىٰ: ﴿**فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ**﴾ [الأعراف: ١٩٠] في آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، بل إنَّ العلامة سليمان بن عبد الله آل الشَّيخ يرىٰ أن نسبة

ذلك إلىٰ غير آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من أقوال وتفاسير المبتدعة، حيث قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «والعجب ممَّن يكذِّب بهذه القصَّة، وينسىٰ ما جرىٰ أوَّل مرَّة، ويكابر بالتَّفاسير المبتدعة، ويترك تفاسير السَّلف وأقوالهم. وليس المحذور في هذه القصَّة بأعظم من المحذور في المرَّة الأولىٰ».

ولعلَّ ممَّا يساعد العلامة سليمان بن عبد الله آل الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ اعتبار تفسير القصَّة في غير آدم وحوَّاء من التَّفاسير المبتدعة - الإجماع الَّذي حكاه شيخ المفسِّرين ابن جرير الطَّبريُّ حيث قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «وأولىٰ القولين بالصَّواب قول من قال: عنىٰ بقوله: ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ ﴾ في الاسم لا في العبادة، وأنَّ المعنيَّ بذلك آدم وحوَّاء؛ لإجماع الحجَّة من أهل التَّأويل علىٰ ذلك».

ولكن لا بدَّ هنا من ملاحظة اصطلاح الطَّبريِّ في «الإجماع» فإنَّه يريد به الأكثر وليس عدم وجود المخالف، بدليل حكايته للأقوال الأخرىٰ من مقالات كبار أئمَّة السَّلف، كالحسن البصريِّ، الَّذي اختاره الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال[(٣)]: «وأمَّا نحن فعلىٰ مذهب الحسن البصريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا، وأنَّه ليس المراد من هذا السِّياق آدم وحوَّاء، وإنَّما المراد من ذلك المشركون من ذرِّيَّته؛ ولهذا قال الله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[الأعراف: ١٩٠]».

---

(١) تيسير العزيز الحميد، ص(٦٣٠).

(٢) جامع البيان عن تأويل القرآن (١٠/ ٦٢٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٢٨).

ثمَّ قال[١]: «فذكر آدم وحوَّاء أوَّلًا كالتَّوطئة لما بعدهما من الوالدين، وهو كالاستطراد من ذكر الشَّخص إلىٰ الجنس، كقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]، ومعلوم أنَّ المصابيح هي النُّجوم الَّتي زيِّنت بها السَّماء وليست هي الَّتي يرىٰ بها، وإنَّما هذا استطراد من شخص المصابيح إلىٰ جنسها، ولهذا نظائر في القرآن».

ووالدنا العلامة الجهبذ محمَّد الصَّالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ حقَّق الأمر، وفصل الخطاب في ذلك بما يدلُّ علىٰ رسوخه وإمامته حيث قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «وهذه القصَّة باطلة من وجوه:

الوجه الأوَّل: أنَّه ليس في ذلك خبر صحيح عن النَّبيِّ ﷺ، وهذا من الأخبار الَّتي لا تتلقَّىٰ إلَّا بالوحي، وقد قال ابن حزم عن هذه القصَّة: إنَّها رواية خرافة مكذوبة موضوعة.

الوجه الثَّاني: أنَّه لو كانت هذه القصَّة في آدم وحوَّاء، لكان حالهما إمَّا أن يتوبا من الشِّرك أو يموتا عليه، فإن قلنا: ماتا عليه،

فمن جوَّز موت أحد من الأنبياء علىٰ الشِّرك فقد أعظم الفرية، وإن كانا تابا من الشِّرك فلا يليق بحكمة الله وعدله ورحمته أن يذكر خطأهما، ولا يذكر توبتهما منه، فيمتنع غاية الامتناع أن يذكر الله الخطيئة من آدم وحوَّاء

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٢٨).

(٢) القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد (٣/ ٦٧، ٦٨)، باختصار يسير.

وقد تابا، ولم يذكر توبتهما، والله تعالىٰ إذا ذكر خطيئة بعض أنبيائه ورسله ذكر توبتهم منها.

الوجه الثَّالث: أن الأنبياء معصومون من الشِّرك باتِّفاق العلماء.

الوجه الرَّابع: أنَّه ثبت في حديث الشَّفاعة أنَّ النَّاس يأتون إلىٰ آدم يطلبون منه الشَّفاعة فيعتذر بأكله من الشَّجرة وهو معصية، ولو وقع منه الشِّرك لكان اعتذاره به أعظم وأولىٰ وأحرىٰ.

الوجه الخامس: أن في هذه القصَّة أنَّ الشَّيطان جاء إليهما، وقال: «أنا صاحبكما الَّذي أخرجتكما من الجنَّة»، وهذا لا يقوله من يريد الإغواء، بل هذا وسيلة إلىٰ ردِّ كلامه، فيأتي بشيء يقرب من قبول قوله، فإذا قال: «أنا صاحبكما الَّذي أخرجتكما من الجنَّة»، سيعلمان علم اليقين أنَّه عذر لهما فلا يقبلان منه صرفًا ولا عدلًا.

الوجه السَّادس: أن في قوله في هذه القصَّة: «لأجعلنَّ له قرني إيَّل»، إمَّا أن يصدِّقا أنَّ ذلك ممكن في حقِّه، وهذا شرك في الرُّبوبيَّة؛ لأنَّه لا خالق إلَّا الله، أو لا يصدِّقا، فلا يمكن أن يقبلا قوله وهما يعلمان أن ذلك غير ممكن في حقِّه.

الوجه السَّابع: قوله تعالىٰ: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠] بضمير الجمع، ولو كان آدم وحوَّاء لقال: عمَّا يشركان.

فهذه الوجوه تدلُّ علىٰ أنَّ هذه القصَّة باطلة من أساسها، وأنَّه لا يجوز أن يعتقد في آدم وحوَّاء أن يقع منهما شرك بأيِّ حال من الأحوال، والأنبياء منزَّهون عن الشِّرك مبرَّءون منه باتِّفاق أهل العلم، وعلىٰ هذا فيكون تفسير

الآية كما أسلفنا أنَّها عائدة إلىٰ بني آدم الَّذين أشركوا شركًا حقيقيًا، فإن منهم مشركًا، ومنهم موحِّدًا».

وقال العلامة عبد الرَّحمن القاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال ابن القيم: النَّفس الواحدة، وزوجها آدم وحوَّاء، واللَّذان ﴿**جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ**﴾: المشركون من أولادهما. ولا يلتفت إلىٰ غير ذلك ممَّا قيل: «إن آدم وحوَّاء كانا لا يعيش لهما ولد، فأتاهما إبليس، فقال: إن أحببتما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحارث. ففعلا»، فإن الله سبحانه اجتباه وهداه، فلم يكن ليشرك به بعد ذلك».

وأوَّل المرسلين هو نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأوَّل النَّبيِّين هو آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد قامت الأدلَّة علىٰ التَّفريق بين النَّبيِّ والرَّسول، قال تعالىٰ: ﴿**وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ**﴾ [الحجُّ: ٥٢]. وفي حديث البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لمَّا علَّمه النَّبيُّ ﷺ ما يدعو به إذا أتىٰ مضجعه، فإن البراء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لمَّا ردَّد علىٰ النَّبيِّ ﷺ الدُّعاء، وبلغ: «**اللَّهمَّ آمنت بكتابك الَّذي أنزلت**» قلت: «ورسولك». قال النَّبيُّ ﷺ: «**لا، ونبيِّك الَّذي أرسلت**»[2].

قال الخطَّابيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]:

«**فلو قال (وبرسولك) ثمَّ أتبعه بقول:** (الَّذي أرسلت) لصار البيان معادًا

---

(١) حاشية كتاب التوحيد، ص(٣٣٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب فضل من بات علىٰ الوضوء (ص٤٥ - رقم ٢٤٧).

(٣) أعلام الحديث (١/ ٢٩٨).

مكرَّرًا، فقال: «**ونبيِّك الَّذي أرسلت**»، إذ قد كان نبيًّا قبل أن يكون رسولًا؛ ليجمع له الثَّناء بالاسمين معًا، وليكون تعديدًا للنِّعمة في الحالين وتعظيمًا للمنَّة على الوجهين».

وقد خاض العلماء في ذكر الفرق بين النَّبيِّ والرَّسول، فقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]:

«والمقصود هنا الكلام على النُّبوَّة، فالنَّبيُّ هو الَّذي ينبئه الله، وهو ينبئ بما أنبأ الله[٢] به، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله؛ ليبلِّغه رسالةً من الله إليه فهو رسول، وأمَّا إذا كان يعمل بالشَّريعة قبله، ولم يرسل هو إلى أحد يبلِّغه عن الله رسالةً فهو نبي، وليس برسول، قال تعالى: ﴿**وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ**﴾ [الحجُّ: ٥٢]، وقوله: ﴿**مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ**﴾ فذكر إرسالًا يعمُّ النَّوعين، وقد خصَّ أحدهما بأنَّه رسول، فإن هذا هو الرَّسول المطلق الَّذي أمره بتبليغ رسالته إلى من خالف الله، كنوح».

---

(١) النبوات ص(٢٥٥).

(٢) توهم بعض طلبة العلم أن معنى تعريف شيخ الإسلام للنبي: أنه يأخذ بشريعة من قبله ولا يبلغها، ثم ردوا على شيخ الإسلام تعريفه بأن تبليغ العلم والشرع مأمور به العلماء فضلًا عن النبيين، وهذا سوء فهم لكلام شيخ الإسلام؛ فإنه أراد أنه ليس له شريعة جديدة يؤمر بتبليغها، وإنما هو مجدد لشريعة من قبله.

وقال **رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا**[(١)]:

«وليس من شرط الرَّسول أن يأتي بشريعة جديدة؛ فإن يوسف كان رسولًا، وكان على ملَّة إبراهيم، وداود وسليمان كانا رسولين وكانا على شريعة التَّوراة، قال تعالى عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ﴾ [غافر: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النِّساء: ١٦٣]».

وقال شيخنا العلامة محمَّد الصَّالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ شارحًا كلام شيخ الإسلام[(٢)]: «والَّذي يفهم من كلام شيخ الإسلام في «النُّبوَّات» أنَّه يرى أن النَّبيَّ مرسل مكلَّف بتبليغ، لكن ليس له شرع جديد، إنَّما شرعه شرع من قبله. ولعلَّ قوله هذا يؤيِّده قوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. أي: يتوارث.

وأنَّ الفرق بين النَّبيِّ والرَّسول: أن النَّبيَّ من أرسل بشرع من قبله، أي: أوحي إليه بهذا الشَّرع، وأن الرَّسول من أوحي إليه بشرع جديد، وأمر بتبليغه.

---

(١) النبوات ص(٢٥٧).

(٢) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام (١/ ١١١).

فيكون الأنبياء في بني إسرائيل بمنزلة العلماء في هذه الأمَّة، فعلماء هذه الأمَّة علموا شرع النَّبيِّ ﷺ، وأولئك أوحي إليهم بشرع من قبلهم»[١].

وأمَّا وجه الجمع بين كون آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نبيًّا، وأنَّ نوحًا أوَّل رسول في ضوء ما تقدَّم من التَّفريق بين النَّبيِّ والرَّسول، فقد قال العلامة محمَّد الأمين الشِّنقيطيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «والظَّاهر أنَّه لا طريق للجمع إلَّا من وجهين:

الأوَّل: أنَّ آدم أرسل لزوجه وذرِّيَّته في الجنَّة، ونوحًا أوَّل رسول أرسل في الأرض، ويدلُّ لهذا الجمع ما ثبت في الصَّحيحين وغيرهما، ويقول: «**ولكن ائتوا نوحًا؛ فإنَّه أوَّل رسول بعثه الله إلىٰ أهل الأرض**».

لو لم يرد به الاحتراز عن رسول بعث لغير أهل الأرض - لكان ذلك الكلام حشوًا، بل يفهم من مفهوم مخالفته ما ذكرنا.

الوجه الثَّاني: أن آدم أرسل إلىٰ ذرِّيَّته وهم علىٰ الفطرة، لم يصدر منهم كفر فأطاعوه، **ونوحًا هو أوَّل رسول أرسل لقوم كافرين ينهاهم عن الإشراك** بالله تعالىٰ، ويأمرهم بإخلاص العبادة له وحده، ويدلُّ لهذا الوجه قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [يونس: ١٩] الآية».

وأمَّا عدد الأنبياء فقد ورد أنَّهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبيٍّ[٣]،

---

(١) لكن شيخنا محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ استدرك وقال: «ولكنه ينتقض بآدم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فإن آدم نبي ولم يكن تابعًا لشريعة سابقة، والقول إذا انتقض صار ضعيفًا». تفسير سورة «ص» ص(٧٠).

(٢) أضواء البيان (١/ ١٩٥).

(٣) رواه أحمد (٥/ ٢٦٥)، والحاكم في كتاب التفسير، باب من سورة البقرة (٢/ ٢٦٢)، والطبراني في =

وقد ورد ما يخالفه، وهو أنَّهم ثمانية آلاف، أربعة آلاف إلىٰ بني إسرائيل، وأربعة آلاف إلىٰ سائر النَّاس، ولا يصحُّ[1].

والإيمان بالرُّسل يقتضي الإيمان بمن علمنا اسمه منهم، قال والدنا العلامة محمَّد الصَّالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «ممَّا يتضمَّنه الإيمان بالرُّسل: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم». ثمَّ قال[3]: «وأمَّا من لم نعلم اسمه منهم فنؤمن به إجمالًا، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن

=

الكبير (٨/ ١١٣٩–رقم ٧٥٤٥)، وفي الأوسط (١/ ٢٥٦–رقم ٤٠٥) من حديث أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال الحاكم: هذا حديث علىٰ شرط مسلم. ورمز له الذهبي في التلخيص بذلك (م).

وورد من حديث أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، رواه الحاكم (٢/ ٥٩٧)، وقال ابن عدي في الكامل في الضعفاء (٧/ ٢٦٩٩): «هذا حديث منكر».

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢١٠): رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

(١) رواه أبو يعلىٰ الموصلي في مسنده (٧/ ١٣١– رقم ٤٠٩٢)، (٧/ ١٥٩–رقم ١٣٧٧) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، تفرد به عنه يزيد الرقاشي وهو ضعيف.

وأعله الحافظ الذهبي في تلخيص المستدرك (٢/ ٥٩٧) بإبراهيم بن مهاجر ويزيد.

وقد ورد عن ابن مسعود ما يدل علىٰ كثرة عدد أنبياء بني إسرائيل، قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاثمائة نبي، ثم يقيمون سوق بقلهم من آخر النهار. رواه أبو داود الطيالسي، إسناده صحيح موقوف علىٰ ابن مسعود، واستنكر متنه العلامة مقبل الوادعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. انظر تفسير ابن كثير (١/ ١٠٢).

(٢) نبذة في العقيدة الإسلامية ص(٢٦).

(٣) نبذة في العقيدة الإسلامية ص(٢٦).

قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]».

وهؤلاء النَّبيُّون جميعًا دعوتهم واحدة كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فلذلك وجب الإيمان بهم جميعًا: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، والتَّفريق في الإيمان بينهم كفر، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النِّساء: ١٥٠، ١٥١]، وإذا كان الواحد من النَّبيِّين يؤمن بسائر إخوانه، فلا يتحقَّق الإيمان بنبوَّة الواحد منهم إلَّا بما آمن به ذلك النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة(١): «والله جعل من دين الرُّسل أن أوَّلهم يبشِّر بآخرهم ويؤمن به، وآخرهم يصدق بأوَّلهم ويؤمن به».

ولذلك كان المكذِّب برسول واحد مكذِّبًا بجميع المرسلين، قال تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشُّعراء: ١٠٥]، قال والدنا العلامة محمَّد الصَّالح العثيمين(٢): «فجعلهم مكذِّبين لجميع الرُّسل مع أنَّه لم يكن رسول غيره حين كذَّبوه».

---

(١) الرسالة التدمرية ص(١٧٠).

(٢) نبذة في العقيدة الإسلامية ص(٢٦).

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وقد اتَّفق المسلمون على ما هو معلوم بالاضطرار من دين الإسلام، وهو أنَّه يجب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين، وبجميع ما أنزل الله من الكتب، فمن كفر بنبيٍّ واحد تعلم نبوَّته مثل: إبراهيم، ولوط، وموسى، وداود، وسليمان، ويونس، وعيسى - فهو كافر عند جميع المسلمين، حكمه حكم الكفَّار».

ومع هذا ينبغي التَّفريق بين من كذَّب جنس الرُّسل، ومن كذَّب رسولًا واحدًا بخصوصه.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «ولهذا يقول سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشُّعراء: ١٠٥]، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشُّعراء: ١٢٣]، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشُّعراء: ١٤١]، ونحو ذلك، وكل من هؤلاء إنَّما جاءه رسول واحد، لكن كانوا مكذِّبين بجنس الرُّسل، لم يكن تكذيبهم بالواحد لخصوصه، **وهذا بخلاف تكذيب اليهود والنصارى لمحمَّد ﷺ، فإنَّهم لم يكذبوا جنس الرُّسل، إنَّما كذبوا واحدًا بعينه**، بخلاف مشركي العرب الَّذين لم يعرفوا الرُّسل، فإن الله يحتجُّ عليهم في القرآن بإثبات جنس الرِّسالة».

والإيمان بالرسل يكون عامًّا لكل الرُّسل، وواجب اتِّباع محمد ﷺ منهم خصوصًا، حيث خُتمت به النبوَّة والرسالات، ونسخت شريعة الإسلام

(١) الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح (١/ ٣٤٣).

(٢) الرد على المنطقيين ص(٣٦٩).

التي بُعث بها ما سبقها من الشرائع.

وشهادة أن «محمدًا رسول الله» ضرورة لتلقِّي الوحي عنه لعبوديَّة الله وحده، فمن لم يعرف نبيّ الله ﷺ ولا شرعته التي بُعث بها كيف يتديّن بها؟! وكيف يحقق شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ؟! وكيف يتأسى بالنبي ﷺ؟! قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ومن هاهنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول ﷺ، وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر؛ فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح - لا في الدنيا ولا في الآخرة - إلَّا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا يُنال رضا الله البتة إلَّا على أيديهم؛ فالطَّيِّب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلَّا هديهم وما جاءوا به؛ فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم تُوزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال؛ فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأي ضرورة وحاجة فُرضت، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير».

والمؤمنون يطيعون الرسول ﷺ؛ لأنَّه مبلغٌ عن الله رسالته وشرعه

---

(١) زاد المعاد (ص ٢٢)، ط: مؤسسة الرسالة ناشرون.

ولأن الله اصطفاه لذلك وعصمه، وزكاه، أما طاعتهم لله فهي طاعة تأله وحب وخضوع وخشية وعبودية، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن الله لم ينعم على أهل الأرض نعمة أعظم من إرسال محمد ﷺ إليهم، وأنه هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأنه لا يؤمن العبد حتى يكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين، بل حتى يكون أحب إليه من نفسه».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «هو محمود ﷺ بما ملأ به الأرض من الهدى، والإيمان، والعلم النافع، والعمل الصالح، وفتح به القلوب، وكشف به الظلمة عن أهل الأرض، واستنقذهم من أسر الشيطان، ومن الشرك بالله، والكفر به، والجهل به، حتى نال به أتباعه شرف الدنيا والآخرة؛ فإنَّ رسالته وافت أهل الأرض أحوج ما كانوا إليها؛ فإنَّهم كانوا بين عباد أوثان، وعُبَّاد صُلبان، وعُبَّاد نيران، وعُبَّاد الكواكب، ومغضوب عليهم قد باؤوا بغضب من الله، وحيران لا يعرف ربًّا يعبده، ولا بماذا يعبده، والناس يأكل بعضهم بعضًا، من استحسن شيئًا دعا إليه، وقاتل من خالفه، وليس في الأرض موضع قدم مشرقٌ بنور الرسالة، وقد نظر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ

---

(١) الرد على الأخنائي (ص ٤٩).

(٢) جلاء الأفهام (ص ١٧١، ١٧٢).

حينئذ إلىٰ أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا علىٰ آثار من دين صحيح، فأغاث الله به البلاد والعباد، وكشف به تلك الظُّلم، وأحيا به الخليقة بعد الموت، فهدىٰ به من الضَّلالة، وعلَّم به من الجهالة، وكثَّر بعد القلَّة، وأعز به بعد الذِّلَّة، وأغنىٰ به بعد العَيْلة، وفتح به أعينا عُمْيًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غلفًا، فعرف الناس ربَّهم ومعبودهم غاية ما يمكن أن تناله قواهم من المعرفة».

والرسول ﷺ بشر مخلوق، اصطفاه الله وبعثه إلىٰ البشر؛ ليبيّن لهم الصراط المستقيم الذي يجب أن يسلكوه في سيرهم إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فيُحب الحب الشرعي بشرًا رسولًا، يُحب في الله، ويُحب لله، لا مع الله، فلا يُرغب إليه، ولا يُصرف شيء من حقوق الله له من العبادة والدعاء والاستغاثة، فهذا شرك أكبر.

قال أبو العباس المقريزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن الله سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته الجامعة لكمال محبته مع الخضوع له والانقياد لأمره؛ فأصل العبادة محبة الله تعالىٰ، وإفراده بالمحبة، فلا يحب معه سواه، وإنما يُحب ما يُحبه لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته؛ لأن محبتهم من تمام محبته، وليست كمحبة من اتخذ من دونه أندادًا يُحبهم كحبه.

وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرّها؛ فهي إنما تتحقق باتباع

---

(١) تجريد التوحيد المفيد (ص ١١٧، ١١٨).

أمره واجتناب نهيه، فعند اتباع الأمر والنهي تتبيَّن حقيقة العبودية والمحبة؛ ولهذا جعل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اتّباع رسوله ﷺ علمًا عليها وشاهدًا لها، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فجعل اتباع رسوله ﷺ مشروطًا بمحبته لله تعالىٰ، وشرطًا لمحبة الله لهم، ووجود المشروط بدون تحقق شرطه ممتنع؛ فَعُلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة للرسول ﷺ. ولا يكفي ذلك حتىٰ يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومتىٰ كان عنده شيء أحب إليه منهما فهو الإشراك الذي لا يغفره الله، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]».

والنبي ﷺ نبي الرحمة، ورحمته تعم الكافر والمسلم، فإن قلت: إدراكها للمؤمن واضحة، فكيف تكون دعوته للكافر رحمة؟! قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «وأما نبيُّ الرحمة، فهو الذي أرسله الله رحمة للعالمين، فرحم به أهل الأرض كلَّهم مؤمنَهم وكافرَهم، أمّا المؤمنون فنالوا النصيب الأوفر من الرحمة، وأمّا الكفار فأهل الكتاب منهم عاشوا في ظلِّه؛ وتحت حبله وعهده، وأما من قتله منهم هو وأمته، فإنَّهم عجلوا به إلىٰ النَّار، وأراحوه

(١) زاد المعاد (ص ٣١).

من الحياة الطويلة التي لا يزداد بها إلَّا شدَّة العذاب في الآخرة».

وقال ابن القيم أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا حصول الرحمة ببعثة النبي ﷺ للكافر والمؤمن والمنافق[١]: «وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقْنُ دمائهم، وأموالهم، وأهلهم، واحترامها، وجريانُ أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيره، وأما الأمم النائية عنه فإنَّ الله سبحانه رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض، فأصاب كلَّ العالمين النفع برسالته.

الوجه الثاني: أنه رحمة لكلِّ أحد، لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة، فانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردُّوها، فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمةً لهم، لكن لم يقبلوها، كما يقال: هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله المريض لم يخرج عن أن يكون دواءً لذلك المرض».

والبشرية أدركتها الرحمة والهداية ببعثة النبي ﷺ وما أُنزل عليه من الوحي، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «قال تعالى مذكرًا لنبيه ﷺ نعمته العظيمة عليه وعلى العباد؛ إذ أرسله إليهم: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [القصص: ٨٦]؛ أي: ما كنت تظن قبل إنزال الوحي إليك أن

---

(١) جلاء الأفهام (ص ١٧٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٨٣).

الوحي ينزل عليك ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: إنما نزل الوحي عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك، فإذا منحك بهذه النعمة العظيمة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾ أي: معينًا ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، ولكن فارقهم ونابذهم وخالفهم ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٨٧] أي: لا تتأثر لمخالفتهم لك، وصدهم الناس عن طريقك، لا تلوي على ذلك ولا تباله؛ فإن الله مُعْلٍ كلمتك، ومؤيدٌ دينك، ومظهر ما أرسلك به على سائر الأديان؛ ولهذا قال: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: إلى عبادة ربك وحده لا شريك له ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾».

والنبي ﷺ وإن كان قُبض فأسباب رحمة الله للخلق والبلاد والعباد موجودة، وهي الشريعة التي أُرسل بها التي تكفّل الله بحفظها إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

ومن حقوقه ﷺ على أمته: الصلاة والسلام عليه، وهو من الإحسان الواجب من الأمة إليه، قال النبي ﷺ: «**رغم أنف امرئٍ ذُكرت عنده فلم يصلِّ علي**». صححه ابن حبان.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن الأمر بالإحسان إليه في مقابلة إحسانه إلى الأمَّة، وتعليمهم، وإرشادهم، وهدايتهم، وما حصل لهم ببركته من سعادة

---

(١) جلاء الأفهام (ص ٣٤٤، ٣٤٥).

الدُّنيا والآخرة، ومعلوم أنَّ مقابلة مثل هذا النفع العظيم لا يحصل بالصَّلاة عليه مرَّةً واحدةً في العمر، بل لو صلَّىٰ العبدُ عليه بعدد أنفاسه لم يكن مُوفيًا لحقِّه، ولا مؤدِّيًا لنعمته، فجعل ضابطَ شكرِ هذه النِّعمة بالصَّلاة عليه عند ذكر اسمه ﷺ.

قالوا: ولهذا أشار النبي ﷺ إلىٰ ذلك بتسميته من لم يُصلِّ عليه عند ذكر اسمه بخيلًا؛ لأن من أحسن إلىٰ العبد الإحسان العظيم، وحصل له به الخير الجسيم، ثم يُذكر عنده ولا يُثني عليه، ولا يُبالغ في مدحه وحمده وتمجيده، ويبدي ذلك ويُعيده، ويعتذر من التقصير في القيام بشكره وحقِّه؛ عدَّه الناس بخيلًا لئيمًا كفورًا، فكيف بمن أدنىٰ إحسانه إلىٰ العبد يزيد علىٰ أعظم إحسان المخلوقين بعضهم لبعض، الذي بإحسانه حصل للعبد خير الدنيا والآخرة، ونجا من شرِّ الدنيا والآخرة، الذي لا تتصور القلوب حقيقة نعمته وإحسانه، فضلًا عن أن يقوم بشكره، أليس هذا المنعمُ المحسنُ أحقَّ بأن يُعظَّم ويُثنىٰ عليه، ويُستفرغ الوسع في حمده ومدحه إذا ذكر بين الملأ؟! فلا أقلَّ من أن يُصلَّىٰ عليه مرةً إذا ذُكر اسمه ﷺ.

قالوا: ولهذا دعا عليه النبي ﷺ برغم أنفه، وهو أن يُلصق أنفه بالرَّغام، وهو التُّراب؛ لأنَّه لما ذُكر عنده، فلم يُصلِّ عليه؛ استحق أن يُذلَّه الله تعالىٰ، ويُلصق أنفه بالتُّراب».

وحبُّ النبي ﷺ والإيمان به وموالاته ونصرته والذب عنه وعن سنته والصلاة والسلام عليه، كما أنه سبب لدخول الجنة، فهو أيضًا من أسباب

إحسان النبي ﷺ لمن قام بذلك، قال تعالىٰ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وقال النبي ﷺ: «**أقربكم مني منزلة أكثركم صلاة عليّ**»، رواه الترمذي وقال: حسن. وصححه ابن حبان.

وروىٰ أحمد، وقال الترمذي: حسن صحيح: أن أبيّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله! إني أُكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: «**ما شئت**». قلت: الرُّبُع؟ قال: «**ما شئت، وإن زدت فهو خير**». قلت: النصف؟ قال: «**ما شئت، وإن زدت فهو خير لك**». قال: أجعل لك صلاتي كلَّها؟ قال: «**إذًا تُكفىٰ همَّك، ويُغفر لك ذنبك**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «كان لأبيّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دعاءٌ يدعو به لنفسه، فسأل النبي ﷺ: هل يجعل له منه رُبعه صلاة عليه؟ فقال: إن زدت؛ فهو خير لك. فقال له: النصف؟ فقال: إن زدت فهو خير لك. إلىٰ أن قال: أجعل لك صلاتي كلَّها؟ أي: أجعل دعائي كلَّه صلاةً عليك. قال: «**إذًا تُكفىٰ همَّك، ويُغفر لك ذنبك**». لأن من صلَّىٰ علىٰ النبي ﷺ صلاةً صلىٰ الله عليه بها عشرًا، ومن صلَّىٰ الله عليه كفاه همَّه، وغفرَ له ذنبه».

ومحبة النبي ﷺ مستلزمة لاتباعه، واتباعه ﷺ من أسباب تحقيق التوحيد.

قال الحافظ يوسف بن حسن بن عبد الهادي رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «كل من لم يؤمن بالنبي ﷺ وبما بُعث به، فليس بمؤمن، ولا ينفعه قول: لا إله إلا الله.

---

(١) نقله عنه تلميذه ابن القيم في جلاء الأفهام (ص ٩٥).

(٢) مسألة في التوحيد (ص ٥٩).

فإن بعض اليهود والنصارىٰ يقول: لا إله إلا الله. فدلّ ذلك علىٰ أن التوحيد أن يوحّد الله بالعبودية، ومن وحّده بالعبودية أطاع أمره واجتنب نهيه، واتّبع ما جاء منه، واتّبع رسوله ﷺ؛ فإن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله».

وشهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ توجب متابعته، ومتابعته لا تأتي إلا بطلب شريعة الإسلام التي بُعث بها، وتحقيق عقائدها، والقيام بأداء عباداتها التي توجب علينا معرفة الصفة التي أداها عليها - صلوات الله وسلامه عليه -، قال ﷺ: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**». رواه البخاري من حديث مالك بن الحويرث رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقال النبي ﷺ: «**من توضأ نحو وُضوئي هذا ثم صلّىٰ ركعتين لا يُحدّث فيهما نفسه؛ غُفر له ما تقدم من ذنبه**». متفق عليه من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقال ﷺ: «**لتأخذوا عنّي مناسككم**»، رواه مسلم من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كلما كان الإنسان أقوىٰ إيمانًا كان أقوىٰ اتباعًا لرسول الله ﷺ، حتىٰ كأنه يشاهد الرسول ﷺ أمامه فيتبع أثره، وإذا اتّبع الإنسان هذه الطريقة حصلت له الراحة والطمأنينة وقوة الإيمان، كلما فعل شيئًا كأن الرسول ﷺ أمامه يُرشده بقوله أو بفعله.

وهذه المسألة يجب علينا أن ننتبه لها، حتىٰ لا تضيع علينا أعمالنا سدًىٰ؛

---

(١) تفسير سورة النساء (٢/ ٢٣١).

لأن أكثرنا عنده الاتباع المطلق - والحمد لله -، لكن الاتباع الخاص في كل فعل يفعله أو يقوله؛ فهذا يُفقد منّا كثيرًا، فلا بد من التنبّه له».

وقال أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «السنة تتبّع طريق الرسول ﷺ، واقتفاء آثاره، والوقوف عند مراسمه وحدوده من غير تقصير ولا غلو، وأن لا يتقدم بين يديه، ولا تختار لنفسك قولًا لم يتبيّن لك أنه جاء به؛ فالسنة مقابلة أوامره بالامتثال، ونواهيه بالانكفاف، وأخباره بالتصديق، ومجانبة الشبه والآراء، وكل ما خالف النقل، وإن كانت له حلاوة في السمع وقبول في القلب، ليست القلوب والعقول والآراء معيارًا على الشرع، ليس لله طائفة أجلّ من قوم حدّثوا عنه وعن رسوله ﷺ، وما أحدثوا، وعولوا على ما رووا، لا على ما رأوا، الوقوف مع النقل مقام الصديقين، وورثة النبيين والمرسلين، هذه نصيحتي لنفسي ولإخواني من المؤمنين».

ومعلوم أن العمل الصالح شرطاه: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، والمتابعة لرسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ [الكهف: ١١٠]، وفي الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**». وفي الصحيحين من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قال رسول الله ﷺ: «**من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد**».

---

(١) بواسطة الصواعق المرسلة (٤/ ١٣٤٩).

قال العلامة أبو عبد الله عبيد الله بن بطة العكبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «ومن السنة اتباع رسول الله ﷺ، والاقتفاء لأمره، والاقتداء بهديه، والأخذ بأفعاله، والانتهاء إلىٰ أمره، وإكثار الرواية عنه في كل ما سنّه واستحسنه، وندب إليه، وحرّض أمته عليه؛ ليتأدبوا به، فتحسن بذلك في الدنيا آدابهم، ويعظم عند الله قدرهم».

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «لا تغترَّ بقولك: المرء مع من أحبَّ؛ إنه من أحب قومًا اتَّبَع آثارهم، ولن تلحق الأبرار حتىٰ تتَّبع آثارهم، وتأخذ بهديهم، وتقتدي بسنتهم، وتصبح وتُمسي وأنت علىٰ مناهجهم، حريصًا أن تكون منهم، وتسلك سبيلهم، وتأخذ طريقهم، وإن كنت مُقصِّرًا في العمل، فإن مِلاك الأمر أن تكون علىٰ استقامة، أما رأيت اليهود والنصارىٰ وأهل الأهواء المرّدية يُحبُّون أنبياءهم وليسوا معهم؛ لأنهم خالفوهم في القول والعمل، وسلكوا غير طريقهم، فصار مأواهم النار؟ نعوذ بالله من النار».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): «إن حقيقة المحبّة أن يحبّ المحبوب وما أحبه، ويكره ما يكرهه، ومن صحت محبته امتنعت مخالفته؛ لأن المخالفة إنما تقع لنقص المتابعة، ويدل علىٰ نقص المحبة قول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]».

---

(١) الإبانة عن أصول الديانة (ص ٣٢٣، رقم ٣٣٣).

(٢) جامع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي (١/ ٢٥٣).

(٣) مجموع الفتاوىٰ (١/ ٩٣).

خامسًا: الإيمان باليوم الآخر: اليوم الآخر هو يوم القيامة، وسُمي باليوم الآخر لأنه لا يوم بعده، وهو يوم الحساب والجزاء؛ فيُكرم الله المؤمنين أهل طاعته ويُدخلهم الجنة، ويرزقهم فوق ذلك أعظم النعيم، وهو النظر إلىٰ وجهه الكريم، ويعذب الله الكافرين ويدخلهم النار خالدين فيها أبدًا.

واليوم الآخر قيامته علمه عند ربي، لا يعرف متىٰ تقوم الساعة إلا الله، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [لقمان: ٣٤]، وسأل جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ النبي ﷺ: متىٰ الساعة؟ فقال النبي ﷺ: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»، رواه مسلم.

والساعة جعل الله لها علامات صغرىٰ وكبرىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ **فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ** ﴾ [محمد: ١٨]، والشأن في معرفة الساعة العمل لها للفوز في الدار الآخرة، قال تعالىٰ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ٤٤﴾ [النازعات: ٤٢-٤٤]، وقال النبي ﷺ لمن سأله عن الساعة: ماذا أعددت لها؟

والساعة لا تقوم إلا يوم الجمعة كما قال النبي ﷺ، رواه مسلم.

ونؤمن بالنفخ في الصور ليقوم الناس لرب العالمين، فيجمع الله الخلق جميعًا في صعيد واحد، وتقترب الشمس من الخلائق مقدار ميل، ويصيب الناس كرب عظيم؛ فيشفع فيهم النبي ﷺ ليحاسبهم الله.

والناس إذا قاموا من قبورهم قاموا عطشىٰ، فيرد المؤمنون الذين لم يُغيّروا ولم يُبدّلوا شرع الله حوض نبينا ﷺ، فيشربون شربة لا يظمأون

بعدها، وتُنصب الموازين بالقسط، وتوزن أعمال الخلائق وصحف أعمالهم، ويرد الناس الصراط وهو الجسر المنصوب على جهنم، وهو أدق من الشعرة وأحد من السيف، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]، ويقتص الناس مظالمهم في قنطرة بعد الصراط.

والناس في اليوم الآخر مجزيون بأعمالهم، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الانشقاق: ٧-٨]، ومنازل أهل الجنة بحسب أعمالهم في الدنيا ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

وفي يوم القيامة يظهر الغبن الحقيقي لمن أفنى عمره في الدنيا بلا عمل صالح وأوبق نفسه بالكفر والعصيان، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأحقاف: ٣٤].

وأول الأمم دخولًا الجنة أمة محمد ﷺ، قال ﷺ: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة**» متفق عليه، وأمة محمد ﷺ أكثر أهل الجنة.

وأهوال يوم القيامة عظيمة يشيب لها الولدان، ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ٢]، والمؤمنون في أمان يُنزل الله في قلوبهم السكينة، وتظلهم أعمالهم، ونورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم؛ قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ

أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

قال الموفق ابن قدامة المقدسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «يُحشر الناس يوم القيامة حُفاة عُراةً غُرلًا بُهْمًا، فيقفون في موقف القيامة حتى يشفع فيهم نبينا محمد ﷺ، ويحاسبهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ».

ويظهر من فضل الله وإحسانه في اليوم الآخر ما يليق برحمة الله، التي ادّخر منها تسعة وتسعين جزءًا لذلك اليوم العظيم؛ فيُدخل الله المؤمنين الجنة برحمته، ومن رضي عنهم؛ فإنه يتقبل منهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم، ويظهر فضل النبي ﷺ في ذلك اليوم العظيم؛ فيشفع إلى ربه ويقول: «**أمتي، أمتي**». والناس كل مشغول بنفسه يريد السلامة والفكاك من النار، فيشفع النبي ﷺ في أهل الكبائر من أمته.

ويظهر من عدل الله في اليوم الآخر ما يليق بكمال عدل الله ﴿**وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ**﴾ [الأنبياء: ٤٧] .

فالجنة دار المتقين الموحدين المؤمنين الطائعين لله يُكرمهم الله وهم في جواره وضيافته ﴿ **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟**

(١) لمعة الاعتقاد (ص٢٧).

يَعۡمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧]، والنار دار الكافرين العاصين، محجوبون عن الله، وفي النار خالدون، لا يفتر عنهم عذابها، ولا يقضى عليهم فيموتوا، ولا يُخفف عنهم من عذابها ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴾ [فاطر: ٣٦].

على كل حال تفاصيل اليوم الآخر مذكورة في القرآن وصحيح السنة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وأصناف ما تتضمنه الدار الآخرة من الحساب والثواب والعقاب، والجنة والنار، وتفاصيل ذلك مذكورة في الكتب المنزَّلة من السماء، والأَثارةِ من العلم المأثورة عن الأنبياء، وفي العلم الموروث عن محمد ﷺ من ذلك ما يشفي ويكفي».



(١) الواسطية (ص٩٤).

سادسها: الإيمان بالقدر هو أحد أركان الإيمان الستة، وعلاقة التوحيد بالقدر معلومة، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا[1]: «القدر نظام التوحيد، فمن وحّد الله ولم يؤمن بالقدر كان كفره بالقضاء نقضًا للتوحيد، ومنْ وحّد الله وآمن بالقدر كان العروة الوثقى لا انفصام لها».

فبالإيمان بالقدر يتحقق التوحيد، فإذا علم العبد أن الله هو الذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وأنه الذي يثبّت العبد على لزومه إلى أن يوافيه، وأنه في سيره إلى الله في هذه الحياة الدنيا هو الذي يحفظه ويرزقه ويعافيه ويكفيه؛ أوجب له ذلك سؤال ربه، ودعاءه، وعبوديته، والتوكل عليه، ورجاءه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «من تدبّر طريقة القرآن تبيّن له أنّ الله سبحانه يدعو عباده بهذا الوجه إلى الوجه الأول؛ فهذا الوجه يقتضي التوكل على الله؛ والاستعانة به، والدعاء له، ومسألته دون ما سواه، ويقتضي - أيضًا - محبته وعبادته؛ لإحسانه إلى عبده وإسباغ نعمه عليه، فإذا عبده وأحبّه وتوكّل عليه من هذا الوجه دخل في الوجه الأول. وهكذا كمن نزل به بلاء عظيم، وفاقة شديدة، أو خوف مقلق، فجعل يدعو الله وتضرّع إليه حتى فتح له من لذيذ مناجاته له باب الإيمان والإنابة إليه، وما هو أحبّ إليه من تلك الحاجة التي قصدها أولًا، لكنه لم يكن يعرف ذلك أولًا حتى يطلبه

(١) السنة، لعبد الله ابن الإمام أحمد (٢/ ٤٢٢).

(٢) طريق الهجرتين (ص ١٧٢).

ويشتاق إليه، فعرّفه إياه بما أقامه له من الأسباب التي أوصلته إليه. والقرآن مملوء من ذكر حاجة العباد إلىٰ الله دون ما سواه، ومن ذكر نعمائه عليهم، ومن ذكر ما وعدهم به في الآخرة من صنوف النعيم واللذات، وليس عند المخلوق شيء من هذا؛ فهذا الوجه يُحقّق التوكل علىٰ الله، والشكر له، ومحبته علىٰ إحسانه».

وجُمل عقيدة التَّوحيد والإيمان بالقدر كان يُعلِّمها النبي ﷺ الصبيان والغلمان، يُربِّيهم بالعقيدة الصحيحة؛ ليستقبلوا سني عمرهم بالتوكل علىٰ الله والثقة به، مع بذل أسباب نصرة الله وحفظه.

قال النبي ﷺ لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**يا غلام! إني مُعلِّمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف**».

الإيمان بالقدر من قسم توحيد الربوبية، فلا يقع شيء إلا بمشيئة الله، والله خالق لفعل العبد ولكل ما يقدِّره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومتعلق بتوحيد العبودية من جهة كسب العبد وتألهه لله وحده لا شريك له.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «العبد له ملاحظتان: ملاحظة للوجه الأول، وملاحظة للوجه الثاني، والكمال أن لا يغيب بإحدىٰ الملاحظتين عن

(١) شفاء العليل (١/ ٢٢٣).

الأخرىٰ، بل يشهد قضاء الرب تعالىٰ وقدره ومشيئته، ويشهد مع ذلك فعله وجنايته، وطاعته ومعصيته، فيشهد الربوبية والعبودية، فيجتمع في قلبه معنىٰ قوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]، مع قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، وقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [المدثر: ٥٤-٥٦]».

والإيمان بالقدر له متعلق بتوحيد الأسماء والصفات أيضًا، من جهة براءة العبد من حوله وقوته، واستعانته بربِّه في الإتيان بأموره الدينية والدنيوية[1].

ومراتب القدر أربعة مجموعة في قول الشاعر:

علــم كتابــة مولانــا مشــيئته خلقــه وهــو إيجــاد وتكــوين

فالمرتبة الأولىٰ: العلم: وهو علم الله السابق بما سيكون من أعمال العباد وأفعالهم؛ فهو يعلم ما الخلق عاملين قبل أن يوجدهم، ويعلم ما كان، وما يكون، وما لو كان كيف يكون ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «القضاء والقدر منشؤه عن علم الرب وقدرته، ولهذا قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: القدر قدرة الله.

واستحسن ابن عقيل هذا الكلام من أحمد غاية الاستحسان، وقال: إنه

---

(١) شفاء العليل (١/ ٢٢٦).

(٢) طريق الهجرتين (ص ٢٦٠).

شفى بهذه الكلمة وأفصح بها عن حقيقة القدر».

ثم قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **مبيّنًا ذلك**[1]: «ولهذا كان مصدر الخلق والأمر والقضاء والشرع عن علم الرب وعزته وحكمته، ولهذا يقرن تعالى بين الاسمين والصفتين من هذه الثلاثة كثيرًا؛ كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦] وقال: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]، وقال في حم فُصلت بعد ذكر تخليق العالم: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: ١٢]، وذكر نظير هذا في الأنعام فقال: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام: ٩٦].

فارتباط الخلق بقدرته التامة يقتضي أن لا يخرج موجود عن قدرته، وارتباطه بعلمه التام يقتضي إحاطته به وتقدمه عليه، وارتباطه بحكمته يقتضي وقوعه على أكمل الوجوه وأحسنها، واشتماله على الغاية المحمودة المطلوبة للرب تعالى.

وكذلك ارتباط أمره بعلمه وحكمته وعزّته؛ فهو عليم بخلقه وأمره، حكيم في خلقه، عزيز في خلقه وأمره، ولهذا كان الحكيم من أسمائه الحسنى، والحكمة من صفاته العلى، والشريعة الصادرة عن أمره مبناها على الحكمة، والرسول المبعوث بها مبعوث بالكتاب والحكمة، والحكمة هي سنّة الرسول ﷺ، وهي تتضمّن العلم بالحق والعمل به، والخبر عنه،

(١) طريق الهجرتين (ص ٢٦١ - ٢٦٣).

والأمر به؛ فكلّ هذا يُسمىٰ حكمة. فكما لا يخرج مقدور عن علمه وقدرته ومشيئته، فهكذا لا يخرج عن حكمته وحمده، وهو محمود علىٰ جميع ما في الكون من خير وشر حمدًا استحقه لذاته، وصدر عنه خلقه وأمره؛ فمصدر ذلك كله عن الحكمة؛ فإنكار الحكمة إنكار لحمده في الحقيقة».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ **متحدثًا عن مراتب القدر**(١):

«تؤمن الفرقة الناجية ـ أهل السنة والجماعة ـ بالقدر خيره وشره، والإيمان بالقدر علىٰ درجتين، كل درجة تتضمن شيئين:

فالدرجة الأولىٰ: الإيمان بأن الله تعالىٰ علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلًا، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال.

ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق: «**فأول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب. قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلىٰ يوم القيامة**»، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، جفت الأقلام وطُويت الصحف، كما قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧٠﴾ [الحج: ٧٠]، وقال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢﴾.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٣/ ١٤٨، ١٤٩).

وهذا التقدير - التابع لعلمه سبحانه - يكون في مواضع جملة وتفصيلًا؛ فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء، وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه بعث إليه ملكًا، فيؤمر بأربع كلمات، فيقال له: اكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، ونحو ذلك، فهذا القدر قد كان ينكره غلاة القدرية قديمًا، ومنكره اليوم قليل.

وأما الدرجة الثانية: فهو مشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه ما في السموات والأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه، لا يكون في ملكه إلا ما يريد، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات.

فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه، لا خالق غيره ولا رب سواه».

والعبد له إرادة ومشيئة يختار بها الفعل، لذلك يحاسبه الله علىٰ فعله، قال تعالىٰ: ﴿**لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ**﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ومع هذا عبودية العبد لله هو حق لله وهو لمصلحة العبد في دينه ودنياه، قال تعالىٰ: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال النبي ﷺ: «**حق الله علىٰ العباد أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئًا**» متفق عليه، وعبودية المخلوق وطاعته لله هي لمصلحة العبد نفسه؛ فإنه يعتق رقبته من النار، ويصون نفسه عن الضار؛ فإن الله لا ينهىٰ عباده إلا عما هو متمحض في الضرر، أو ضرره أكثر من نفعه ﴿ ۞ **يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ**

كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ويصون المجتمع عمّا يضره، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]؛ فالله خلق الأرض وفطر الخلق علىٰ الإسلام والتوحيد، وبعث الرسل بذلك، فلزوم التوحيد وطاعة الرسل صلاح للأرض وأهلها، والخروج عن الشرع بالشرك والبدع والمعاصي إفساد لها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن آيات الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والآيات المخبرة بأن العباد فاعلون، لا تنافي آيات القدر المتضمنة أن الله خلق أفعال العباد، فإن كثيرًا من الناس تاهوا في الغايات المقصودة، كما تاه كثير من الناس في الأسباب الفاعلة، ولا بد من توحيد الربوبية بأن يكون الله خالق كل شيء وبأن يكون الله هو المعبود المقصود بذاته بالأفعال لا سواه.

ولا يدفع ذلك من إثبات فعل العبد وقدرته ومشيئته واعتقاده، كما أنه لا بد من إثبات انتفاع العبد بالفعل، وأنه يعمل مصلحته ومنفعته، وأنه وإن قصد غيره فمقصده هذا؛ لأن في كون ذلك مقصودًا معبودًا صلاحه وانتفاعه».

فإذا تبين أن للعبد إرادة ومشيئة يختار بها فعله، فلا بد أن تكون إرادته تابعةً لشرع الله وأمره؛ ليحقق عبوديته لله، ولتكون أعماله علىٰ الصواب والسداد، وتكون مصلحة له في سعادته في الدارين ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن

(١) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص١٥٥).

ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]، وقال النبي ﷺ «**لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون هواه تبعًا لما جئت به**».

وبهذا نعرف أن الله خلقه وأمره كله لحكمة ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وأن مشيئة العبد كما أنها تابعة لمشيئة الله كونًا، فلا يقع في ملك الله إلا ما شاء ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، إلا أنه ينبغي للعبد أن يختار ويفعل ما أمر الله به؛ لأنه تحقيق للعبودية لله، ولأن أوامر الله كلها حكمة.

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فكما أنه تعالىٰ أخبر أنه علىٰ كل شيء قدير، وأنه فعالٌ لما يريد، وأنه إذا أراد أمرًا قال له: كن. فيكون، وأن كل شيء خلقه بقدر، وكل صغير وكبير مستطر؛ فكذلك قد أخبر أنه الحكيم الذي شملت حكمته كل شيء، وأنه خلق السموات والأرض ومن فيهن بالحق، ولم يخلقهما باطلًا ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ﴾ [ص: ٢٧]، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، إلىٰ غير ذلك من الآيات الدالات علىٰ الأصلين،

(١) الدُرَّة البهيّة شرح القصيدة التائية (ص٢٩).

وهما: عموم مشيئته لكل موجود، وشمول حكمته للخلق والأمر.

هذا الذي يتعين على المكلفين الاعتراف به واعتقاده».

والله خلق عباده على الفطرة، وكون المولود يولد على الفطرة كما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غير كافٍ وحده للحكم بإسلام كل مولود؛ إذ لا بد له من الإيمان بالإسلام ولزوم شرائعه، وإلا كان كافرًا؛ لعدم انقياده وهو كفر التولي؛ قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، وفي «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا: ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ مبينًا معنى حديث: «**كل مولود يولد على الفطرة**»[1]: «الصواب أنها فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهي فطرة الإسلام، وهي الفطرة التي فطرهم عليها يوم قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وهي السلامة من الاعتقادات الباطلة، والقبول للعقائد الصحيحة».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «ولا يلزم من كونهم

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٤٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٤٧).

مولودين علىٰ الفطرة أن يكونوا حين الولادة معتقدين للإسلام بالفعل؛ فإن الله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئًا، ولكن سلامة القلب وقبوله وإرادته للحق الذي هو الإسلام، بحيث لو تُرك من غير مُغيّر لما كان إلا مسلمًا. وهذه القوة العلمية العملية التي تقتضي بذاتها الإسلام ما لم يمنعها مانع، هي فطرة الله التي فطر الناس عليها».

وأهل السنة والجماعة يقولون: إن أفعال العباد مخلوقة؛ إقرارًا بربوبية الله وافتقارًا إلىٰ هدايته، لا احتجاجًا بالقدر علىٰ الذنوب والمعاصي، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «العبد إذا اعترف وأقرَّ بأنَّ الله خالق أفعاله كلِّها، فهو علىٰ وجهين. إن اعترف به إقرارًا بخلق الله كلَّ شيء بقدرته، ونفوذ مشيئته، وإقرارًا بكلماته التَّامَّات الَّتي لا يجاوزهنَّ برٌّ ولا فاجر، واعترافًا بفقره وحاجته إلىٰ الله، وأنَّه إن لم يهده فهو ضالٌّ، وإن لم يتب عليه فهو مصرٌّ، وإن لم يغفر له فهو هالك؛ خضع لعزَّته وحكمته؛ فهذا حال المؤمنين الَّذين يرحمهُم الله، ويهديهم، ويوفِّقهم لطاعته.

وإن قال ذلك احتجاجًا علىٰ الرَّبِّ، ودفعًا للأمر والنَّهي عنه، وإقامةً لعذر نفسه؛ فهذا ذنب أعظم منَ الأوَّل، وهذا من أتباع الشَّيطان، ولا يزيده ذلك إلَّا شرًّا، وقد ذكرنا أنَّ الرَّبَّ سبحانه محمود لنفسه ولإحسانه إلىٰ خلقه، ولذلك هو يستحقُّ المحبَّة لنفسه ولإحسانه إلىٰ عباده، ويستحقُّ أن

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٤/ ٣١٦، ٣١٧).

يرضى العبد بقضائه؛ لأنَّ حكمه عدل لا يفعل إلَّا خيرًا وعدلًا، ولأنَّه لا يقضي للمؤمن قضاءً إلَّا كان خيرًا له؛ «**إن أصابته سرَّاء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء صبر، فكان خيرًا له**».

فالمؤمن يرضى بقضائه؛ لما يستحقُّه الرَّبُّ لنفسه - من الحمد والثَّناء -، ولأنَّه محسن إلى المؤمن».

والبدعة في القدر ظهرت في آخر عهد الصحابة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «في آخر عصر الصَّحابة حدثت «القدريَّة»، وأصل بدعتهم كانت من عجز عقولهم عن الإيمان بقدر الله، والإيمان بأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وظنُّوا أنَّ ذلك ممتنع، وكانوا قد آمنوا بدين الله، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وظنُّوا أنَّه إذا كان كذلك لم يكن قد علم قبل الأمر من يطيع ومن يعصي؛ لأنَّهم ظنُّوا أنَّ من علم ما سيكون لم يحسن منه أن يأمر وهو يعلم أنَّ المأمور يعصيه ولا يطيعه، وظنُّوا أيضًا أنَّه إذا علم أنَّهم يفسدون لم يحسن أن يخلق من يعلم أنَّه يفسد، فلمَّا بلغ قولهم بإنكار القدر السَّابق الصَّحابة، أنكروه إنكارًا عظيمًا، وتبرَّءوا منهم، حتَّى قال عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أخبر أولئك أنِّي بريء منهم، وأنَّهم منِّي براء. والَّذي يحلف به عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: لو أنَّ لأحدهم مثل أُحُد ذهبًا فأنفقه، ما قبله الله منه حتَّى يؤمن بالقدر. وذكر عن أبيه حديث جبريل، وهذا أوَّل حديث

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٦).

في «صحيح مسلم»، وقد أخرجه البخاريُّ ومسلم من طريق أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مختصرًا».

ونقص علم المبتدعة في القدر، وعدم قدرتهم على فقه النصوص والجمع بين الشرع والأمر والنهي؛ جعلهم ينكرون مراتب القدر كلها: العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق، وصاروا بسبب ذلك مبطلين ومعطلين لتوحيد الألوهية، ومشركين في توحيد الربوبية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ[(١)]: «أصل ضلالهم ظنُّهم أنَّ القدر يناقض الشَّرع؛ فصاروا حزبين: حزبًا يعظِّمون الشَّرع، والأمر والنَّهي، والوعد والوعيد، واتِّباع ما يحبُّه الله ويرضاه، وهجر ما يبغضه وما يسخطه، وظنُّوا أنَّ هذا لا يمكن أن يجمع بينه وبين القدر؛ فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، كما قطعتِ الخوارج ما أمر الله به أن يوصل من اتفاق الكتاب والسنة وأهل الجماعة، ففرقوا بين الكتاب والسنة، وفرقوا بين الكتاب وجماعة المسلمين، وفرقوا بين المسلمين، فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل».

وبيّن شيخ الإسلام ما وقع القدرية فيه بسبب جهلهم بالجمع بين الشرع والأمر والنهي، فقال[(٢)]: «أنكروا أن يكون الله على كلِّ شيء قدير، ومنهم

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢١١، ٢١٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢١٢).

من أنكر أن يكون الله بكلِّ شيء عليمًا، وأنكروا أن يكون خالقًا لكلِّ شيء، وأن يكون ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنكروا أن يكون الله فعَّالًا لما يشاء».

وأزال شيخ الإسلام جهل من عجز عن الجمع بين الشرع والأمر والنهي، وبيّن ائتلاف النصوص، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إرادته - سبحانه - قسمان:

إرادة أمر وتشريع، وإرادة قضاء وتقدير.

فالقسم الأوَّل: إنَّما يتعلَّق بالطَّاعات دون المعاصي، سواء وقعت أو لم تقع، كما في قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]، وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وأمَّا القسم الثَّاني: وهو إرادة التَّقدير، فهي شاملة لجميع الكائنات، محيطة بجميع الحادثات، وقد أراد من العالم ما هم فاعلوه بهذا المعنى لا بالمعنى الأوَّل، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وفي قوله: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، وفي قول المسلمين: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. ونظائره كثيرة.

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ١٩٧- ٢٠٠).

وهذه الإرادة تتناول ما حدث منَ الطَّاعات والمعاصي، دون ما لم يحدث، كما أنَّ الأولىٰ تتناول الطَّاعات؛ حدثت أو لم تحدث، والسَّعيد من أراد منه تقديرًا ما أراد به تشريعًا، والعبد الشَّقيُّ من أراد به تقديرًا ما لم يرد به تشريعًا.

والحكم يجري علىٰ وفق هاتين الإرادتين؛ فمن نظر إلىٰ الأعمال بهاتين العينين كان بصيرًا، **ومن نظر إلىٰ القدر دون الشَّرع، أو الشَّرع دون القدر، كان أعور**؛ مثل قريش الَّذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، قال الله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

فإنَّ هؤلاء اعتقدوا أنَّ كلَّ ما شاء الله وجوده وكونه وهي - الإرادة القدريَّة - فقد أمر به ورضيه دون الإرادة الشَّرعيَّة، ثمَّ رأوا أنَّ شركهم بغير شرع ممَّا قد شاء الله وجوده؛ قالوا: فيكون قد رضيه وأمر به. قال الله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ بالشَّرائع من الأمر والنَّهي ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ﴾، بأنَّ الله شرع الشِّرك وتحريم ما حرَّمتموه ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ في هذا ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وهو توهُّمكم أنَّ كلَّ ما قدَّره فقد شرعه ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ أي: تكذِّبون وتفترون بإبطال شريعته ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ﴾ [الأنعام: ١٤٩] علىٰ خلقه حين أرسل الرُّسل إليهم، فدعوهم

إلىٰ توحيده وشريعته، ومع هذا فلو شاء هدىٰ الخلق أجمعين إلىٰ متابعة شريعته، لكنَّه يمنُّ علىٰ من يشاء فيهديه؛ فضلًا منه وإحسانًا، ويحرم من يشاء؛ **لأنَّ المتفضِّل له أن يتفضَّل، وله أن لا يتفضَّل؛ فترك تفضُّله علىٰ من حرمه عدل منه وقسط، وله في ذلك حكمة بالغة.**

وهو يعاقب الخلق علىٰ مخالفة أمره وإرادته الشَّرعيَّة، وإن كان ذلك بإرادته القدريَّة فإنَّ القدر كما جرىٰ بالمعصية جرىٰ أيضًا بعقابها، كما أنَّه سبحانه قد يقدِّر علىٰ العبد أمراضًا تعقبه آلامًا؛ فالمرض بقدره والألم بقدره، فإذا قال العبد: قد تقدَّمت الإرادة بالذَّنب فلا أعاقب. كان بمنزلة قول المريض: قد تقدَّمت الإرادة بالمرض فلا أتألَّم، وقد تقدَّمت الإرادة بأكل الحارِّ فلا يحمُّ مزاجي. أو: قد تقدَّمت بالضَّرب فلا يتألَّم المضروب. وهذا مع أنَّه جهل، فإنَّه لا ينفع صاحبه؛ بل اعتلاله بالقدر ذنب ثان يعاقب عليه أيضًا، وإنَّما اعتلَّ بالقدر إبليس؛ حيث قال: ﴿بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحجر: ٣٩]، وأمَّا آدم فقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

فمن أراد الله سعادته ألهمه أن يقول كما قال آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أو نحوه، ومن أراد شقاوته اعتلَّ بعلَّة إبليس أو نحوها؛ فيكون كالمستجير من الرَّمضاء بالنَّار، ومثله مثل رجل طار إلىٰ داره شرارة نار، فقال له العقلاء: أطفئها؛ لئلَّا تحرق المنزل. فأخذ يقول: من أين كانت؟ هذه ريح ألقتها، وأنا لا ذنب لي في هذه النَّار. فما زال يتعلَّل بهذه العلل، حتَّىٰ استعرت

وانتشرت وأحرقت الدَّار وما فيها.

هذه حال من شرع يحيل الذُّنوب على المقادير، ولا يردُّها بالاستغفار والمعاذير، بل حاله أسوأ من ذلك بالذَّنب الَّذي فعله؛ بخلاف الشَّرارة؛ فإنَّه لا فعل له فيها، والله سبحانه يوفِّقنا وإيَّاكم وسائر إخواننا لما يحبُّه ويرضاه؛ فإنَّها لا تنال طاعته إلَّا بمعونته، ولا تترك معصيته إلَّا بعصمته، والله أعلم».

ومعرفة مرتبة المشيئة في القدر توجب على الموحِّد رد الأمور إلى مشيئة الله، والاستعانة به في فعل الأمور، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

قال تعالى عن شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿**قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ**﴾ [الأعراف: ٨٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «قد علمت الرسل أنه من الممتنع على الله أن يأمر بالدخول في ملة الكفر والشرك به، ولكن استثنوا بمشيئته التي يُضل بها من يشاء ويهدي من يشاء.

ثم قال شعيب: ﴿**وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ**﴾ [الأعراف: ٨٩]؛ فرد الأمر إلى مشيئته وعلمه؛ فإن له سبحانه في خلقه (علمًا محيطًا)، ومشيئة نافذة وراء ما يعلمه الخلائق؛ فامتناعنا من العود فيها هو مبلغ علومنا ومشيئتنا، ولله علم

(١) شفاء العليل (٢/ ٥١٢، ٥١٣).

آخر ومشيئة أخرىٰ وراء علومنا ومشيئتنا، فلذلك رد الأمر إليه.

ومثله قول إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنعام: ٨٠]. فأعادت الرسل بكمال معرفتها بالله أمورها إلىٰ مشيئة الرب وعلمه، ولهذا أمر الله رسوله ﷺ أن لا يقول لشيء إنه فاعله حتىٰ يستثني بمشيئة الله؛ فإنه إن شاء فعله، وإن شاء لم يفعله».

فعلاقة القدر بتوحيد الأسماء والصفات ظاهرة جدًّا، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «تأمل قول النبي ﷺ: «**ماض فيّ حكمك، عدل فيّ قضائك**»، كيف ذكر العدل في القضاء مع الحكم النافذ، وفي ذلك رد لقول الطائفتين القدرية والجبرية؛ فإن العدل الذي أثبتته القدرية منافٍ للتوحيد، معطل لكمال قدرة الرب وعموم مشيئته، والعدل الذي أثبتته الجبرية منافٍ للحكمة والرحمة ولحقيقة العدل.

والعدل الذي هو اسمه وصفته ونعته سبحانه خارج عن هذا وهذا، ولم يعرفه إلا الرسل وأتباعهم، ولهذا قال هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]؛ فأخبر عن عموم قدرته ونفوذ مشيئته وتصرفه في خلقه كيف شاء، ثم أخبر أنه في هذا التصرف والحكم علىٰ صراط مستقيم».

(١) شفاء العليل (٢/ ٦٠٢).

والإيمان بالقدر يوجب تحقيق توحيد العبودية، فإذا علم العبد أن أزمة الأمور كلها بيد الله، وأنه هو الذي يُقدّر المقادير؛ اجتهد في الطاعة التي توجب رضا الرب؛ فيتولاه الله ويكفيه ويرزقه ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، والكفاية على قدر العبودية، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّ العبد إذا علم أنَّه لن يُصيبه إلا ما كتبَ الله له مِنْ خير وشرٍّ، ونفعٍ وضرٍّ، وأنَّ اجتهادَ الخلق كلِّهم على خلاف المقدور غيرُ مفيد البتة، علم حينئذٍ أنَّ الله وحده هو الضَّارُّ النَّافعُ، المعطي المانع؛ فأوجبَ ذلك للعبدِ توحيدَ ربِّه عَزَّوَجَلَّ، وإفرادَه بالطاعة، وحفظَ حدوده؛ فإنَّ المعبود إنَّما يقصد بعبادته جلبَ المنافع ودفع المضار، ولهذا ذمَّ الله من يعبدُ من لا ينفعُ ولا يضرُّ، ولا يُغني عابدَهُ شيئًا؛ فمن علم أنَّه لا ينفعُ ولا يضرُّ ولا يُعطي ولا يمنعُ غيرُ الله، أوجبَ له ذلك إفراده بالخوف والرجاء، والمحبة والسؤال، والتضرُّع والدعاء، وتقديم طاعته على طاعةِ الخلق جميعًا، وأنْ يتَّقي سخطه، ولو كان فيه سخطُ الخلق جميعًا، وإفراده بالاستعانة به، والسؤال له، وإخلاص الدعاء له في حال الشدَّة وحال الرَّخاء، بخلاف ما كان المشركون عليه من إخلاص الدعاء له عندَ الشدائد، ونسيانه في الرخاء، ودعاء من يرجون نفعَه

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص ٣٦٤، ٣٦٥).

مِنْ دُونِه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]».

فعلاقة القدر بالتوحيد ظاهرة جدًّا، فالإيمان بالقدر من توحيد الله في ربوبيته؛ لأنه من توحيد الله بأفعاله، والفرقتان الجبرية والقدرية ضلت في توحيد الله في هذا الباب، فالجبرية نفوا فعل العبد الذي جعل الله له قدرة تامة وإرادة جازمة يختار بها فعله، وقالوا: هو مجبور. والقدرية نفوا تقدير الله لفعل العبد، وأنه لا يقع شيء إلا بمشيئته وإرادته ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

وهدى الله أهل السنة لما اختلف فيه الجبرية والقدرية من الحق في أفعال العبد والقدر، فقالوا: العبد مختار لفعله، يفعل بقدرة وإرادة جازمة، والله خالق لفعله، ولا يقع شيء في ملك الله إلا بقدره ومشيئته.

قال المقريزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «والذين أشركوا به تعالى في الربوبية منهم من أثبت معه خالقًا آخر، وإن لم يقولوا: إنه إله مكافيء له، وهم المشركون ومن ضاهاهم من القدرية.

وربوبيته سبحانه للعالم الكاملة المطلقة تُبطل أقوالهم؛ لأنها تقتضي ربوبيته لجميع ما فيه من الذوات والصفات والحركات».

---

(١) تجريد التوحيد المفيد (ص ٥٩-٦١).

وقال العلامة تقي الدين أبو العباس المقريزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا العلاقة بين الإيمان بالقدر والتوحيد، وما وقع فيه القدرية من شرك[١]: «وشرك القدرية مختصر من هذا الباب، وباب يدخل منه إليه، ولهذا شبههم الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بالمجوس، كما ثبت عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وقد روى أهل السنن منهم في ذلك مرفوعًا: «أنهم مجوس هذه الأمة»، وكثيرًا ما يجتمع الشركان في العبد، وينفرد أحدهما عن الآخر.

والقرآن الكريم، بل الكتب المنزّلة من عند الله تعالى كلها مصرّحة بالرد على أهل هذا الإشراك، كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فإنه ينفي شرك المحبة والإلهية، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فإنه ينفي شرك الخلق والربوبية؛ فتضمنت هذه الآية تجريد التوحيد لرب العالمين في العبادة، وأنه لا يجوز إشراك غيره معه؛ لا في الأفعال، ولا في الألفاظ، ولا في الإرادات.

وحقيقة قول القدرية المجوسية أنه تعالى ليس ربًّا لأفعال الحيوان، ولا تتناوله ربوبيته، إذ كيف تتناول ما لا يدخل تحت قدرته ومشيئته وخلقه».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «ليس في الوجود موجب ومقتض على الحقيقة إلا الله وحده؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، **هذا عمود التوحيد الذي لا يقوم إلا به**، والمسلمون من أولهم إلى آخرهم مجمعون

(١) تجريد التوحيد المفيد (ص ٦٥، ٦٦).

(٢) شفاء العليل (١/ ٣٩٩).

علىٰ أنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «**إن الواقع بمشيئته**، وإن ما لم يقع فهو لعدم مشيئته، وهذا حقيقة الربوبية، وهو معنىٰ كونه رب العالمين، وكونه القائم بتدبير عباده؛ فلا خلق ولا رزق، ولا عطاء ولا منع، ولا قبض ولا بسط، ولا موت ولا حياة، ولا إضلال ولا هدًىٰ، ولا سعادة ولا شقاوة، إلا من بعد إذنه، وكل ذلك بمشيئته وتكوينه؛ إذ لا مالك غيره، ولا مُدبّر سواه، ولا رب غيره، قال تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨] وقال: ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ [الحج: ٥]، وقال: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨]، وقال: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ﴾ [الشورىٰ: ٤٩-٥٠] وقال: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النور: ٣٥]».

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المشيئة إرادة الله، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾ [الإنسان: ٣٠]، فأعلم الله خلقه أن المشيئة له دون خلقه، وأن مشيئتهم لا تكون إلا أن يشاء الله، فيُقال لرسول الله ﷺ: ما شاء الله ثم شئت. ولا يقال: ما شاء الله وشئت[(٢)].

والله عَزَّوَجَلَّ لا يحاسب عباده بما يكون من أفعالهم بسابق علمه، وإنما يُحاسبهم بعد وقوع الفعل منهم؛ لكمال عدله، ولا تخرج أفعال العباد عن

(١) شفاء العليل (١/ ٤٠٧).

(٢) شفاء العليل (١/ ٤١٣).

قضاء الله السابق.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «والله سبحانه قد علم قبل أن يوجد أحوالهم، وما هم عاملون، وما هم إليه صائرون، ثم أخرجهم إلى هذه الدار؛ ليظهر معلومه الذي علمه فيهم كما علمه، وابتلاهم من الأمر والنهي والخير والشر بما أظهر معلومه، فاستحقوا المدح والذم، والثواب والعقاب؛ بما قام بهم من الأفعال والصفات المطابقة للعلم السابق، ولم يكونوا يستحقون ذلك، وهي في علمه قبل أن يعملوها، فأرسل رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه؛ إعذارًا إليهم وإقامة للحجة عليهم؛ لئلا يقولوا: كيف تعاقبنا على علمك فينا، وهذا لا يدخل تحت كسبنا وقدرتنا؟ فلما ظهر علمه فيهم بأفعالهم، حصل العقاب على معلومه الذي أظهره للابتلاء والاختبار، وكما ابتلاهم بأمره ونهيه ابتلاهم بما زيَّنه لهم من الدنيا، وبما ركَّب فيهم من الشهوات، فذلك ابتلاء بشرعه وأمره، وهذا ابتلاء بقضائه وقدره.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] فأخبر في هذه الآية أنه خلق السموات والأرض ليبتلي عباده بأمره ونهيه، وهذا من

(١) شفاء العليل (١/ ٣٥٦، ٣٥٧).

الحق الذي خلق به الخلق.

وأخبر في الآية التي قبلها أنه خلق الموت والحياة ليبتليهم أيضًا، فأحياهم ليبتليهم بأمره ونهيه، وقدَّر عليهم الموت الذي ينالون به عاقبة ذلك الابتلاء من الثواب والعقاب».

والعلاقة بين مرتبة العلم والكتابة معلومة ظاهرة؛ فالكتابة دالة على علم الله السابق بما كان وما يكون وما لو كان كيف يكون، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «كتابته السابقة تدل على علمه بها قبل كونها، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] قال مجاهد: علم من إبليس المعصية، وخلقه لها، وعلم من آدم الطاعة، وخلقه لها».

والتقدير خمسة أقسام:

التقدير الأول: التقدير السابق قبل خلق السموات والأرض، ودليله ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**».

التقدير الثاني: عقيب خلق آدم، قدّر الله أعمال بني آدم وأرزاقهم،

(١) شفاء العليل (١/ ٣٢٥).

وآجالهم، وسعادتهم، وشقاوتهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: إن الله أخذ على آدم ميثاقه أنه ربه، وكتب أجله ورزقه ومصيباته، ثم أخرج من ظهره ولده كهيئة الذر، فأخذ عليهم الميثاق أنه ربّهم، وكتب أجلهم ورزقهم ومصيباتهم. رواه الطبري.

التقدير الثالث: عند نفخ روح الجنين، ففي الصحيحين عن عبد الله ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ قال رسول الله ﷺ: «**إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يُرسل الله إليه الملَكَ فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد**».

التقدير الرابع: التقدير الحولي في ليلة القدر، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾﴾ [الدخان: ٣-٥]، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا[1]: «يُكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة؛ من موت وحياة ورزق ومطر، حتى الحجَّاج، يُقال: يحجُّ فلان، ويحجّ فلان».

التقدير الخامس: التقدير اليومي، في كل يوم، قال تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾

(١) شفاء العليل (١/ ٢٦٩).

[الرحمن: ٢٩]، قال مجاهد[١]: من شأنه: أنه يحيي ويميت، ويرزق ويمنع، وينصر ويعز ويذل، ويفك عانيًا، ويشفي مريضًا، ويجيب داعيًا، ويعطي سائلًا، ويتوب على قوم، ويكشف كربًا، ويغفر ذنبًا، ويضع أقوامًا ويرفع آخرين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «كل واحد من هذه التقادير كالتفصيل من التقدير السابق».

والله عَزَّوَجَلَّ كما نعت نفسه ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، فمن أقبل على الله؛ وفقه لكل خير وهداه، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧﴾ [الليل: ٥-٧]، فإن قلت: ما هو الجواب عن قوله ﷺ: «**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنَّة حتى لم يبقَ بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيدخل النار**»؟!

فالجواب: أن عمل هذا الصنف مدخول؛ إما من جهة عدم الإخلاص، أو خبيئة كبر، أوجب له سوء الخاتمة، وإلا فإن سنة الله أن يزيد الذين اهتدوا هدًى، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: ١٧]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «وأمَّا كون الرجل «**يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب**» فإنَّ هذا عمل أهل الجنة

(١) شفاء العليل (١/ ٢٧٦).

(٢) شفاء العليل (١/ ٢٨١، ٢٨٢).

(٣) الفوائد (ص ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦).

فيما يظهر للناس، ولو كان عملًا صالحًا مقبولًا للجنةِ قد أحبَّه اللهُ ورَضِيَهُ لم يُبْطله عليه.

وقوله: «لم يبقَ بينه وبينها إلَّا ذراع» يُشْكِلُ على هذا التأويل، فيُقال: لمّا كان العمل بآخره وخاتمته لم يصبر هذا العامل على عمله حتى يتمّ له، بل كان فيه آفة كامنةٌ ونكتةٌ خُذِلَ بها في آخر عُمُره، فخانته تلك الآفة والداهية الباطنة في وقت الحاجة، فرَجَعَ إلى موجبها، وعَمِلَتْ عملها، ولو لم يكن هناك غشٌّ وآفةٌ، لم يقلب الله إيمانه كفرًا ورِدَّةً مع صدقه فيه وإخلاصه، بغير سبب منه يقتضي إفساده عليه، والله يعلم من سائر العباد ما لا يَعْلَمُهُ بعضهم من بعض.

وأما شأن إبليس فإنَّ الله سبحانه قال للملائكة: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾؛ فالربُّ تعالى كان يعلمُ ما في قلبِ إبليس من الكُفر والكِبْرِ والحسد ما لا يعلمه الملائكة، فلما أُمِروا بالسجود ظهر ما في قلوبهم من الطاعة والمحبة والخشية والانقياد، فبادروا إلى الامتثال، وظهر ما في قلب عدوِّه من الكِبْرِ والغِشِّ والحسد، فأبى واستكبر وكان من الكافرين.

وأما خوف أوليائه من مكره فحَقٌّ؛ فإنهم يخافون أن يخذلهم بذنوبهم وخطاياهم فيصيرون إلى الشَّقاء؛ فخوفهم من ذنوبهم، ورجاؤهم لرحمته.

وقوله: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ [الأعراف: ٩٩]، إنَّما هو في حق الفُجَّار والكُفَّار، ومعنى الآية: فلا يعصي ويأمن مقابلةَ الله له على مكر السيِّئات بمكرِه به إلا القومُ الخاسرون.

والذي يخافه العارفون بالله من مكره:

أن يؤخِّر عنهم عذاب الأفعال، فيحصل منهم نوعُ اغترار، فيأنسوا بالذُّنوب، فيجيئهم العذابُ على غرَّةٍ وفترةٍ.

وأمرٌ آخر: وهو أن يغفلوا عنه وينسوا ذِكْرَهُ، فيتخلَّى عنهم إذا تخلَّوا عن ذكره وطاعته، فيسرع إليهم البلاء والفتنة، فيكون مكره بهم تخلِّيه عنهم.

وأمر آخر: أن يعلم من ذنوبهم وعيوبهم ما لا يعلمونه من نفوسهم فيأتيهم المكر من حيث لا يشعرون وأمر آخر أن يمتحنهم ويبتليهم بما لا صبرَ لهم عليه؛ فيفتنون به، وذلك مكرٌ».

وحديث جبريل في أركان الإيمان أن النبي ﷺ قال: «**أن تؤمن بالقدر خيره وشره**»، فالشر في المقدور وليس في فعل الله، من ذلك ما يصيب العبد من مصائب فتكون سببًا في تكفير ذنوبه مع احتسابه، وسببًا في رفعة درجاته، وسببًا في انكساره لله وافتقاره إليه، قال النبي ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير: إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمسلم**»، رواه مسلم

فالشر في المقضي، وليس في قضاء الله، وهذا الشر نسبي، تأمَّل هذا في آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في أكله من الشجرة، كيف ترتَّبَ على ذلك من إهباطه للأرض وتكليفه وذريته وإرسال الرسل وإنزال الكتب وظهور من يعبد الله من عباده المؤمنين وما يقومون به من إصلاح الأرض بالدعوة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: ««لا يقضي الله للمؤمن»، والمؤمن هو الذي لا يصر علىٰ ذنب، بل يتوب منه؛ فيكون حسنة؛ كما قد جاء في عدة آيات، أن العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة بعمله؛ لا يزال يتوب منه حتىٰ يدخل بتوبته منه الجنة. والذنب يوجب ذل العبد، وخضوعه، ودعاء الله، واستغفاره إياه، وشهوده بفقره، وحاجته إليه، وأنه لا يغفر الذنوب إلا هو؛ فيحصل للمؤمن - بسبب الذنب - من الحسنات ما لم يكن يحصل بدون ذلك؛ فيكون هذا القضاء خيرًا له؛ فهو في ذنوبه بين أمرين: إما أن يتوب فيتوب الله عليه، فيكون من التوابين الذين يحبهم الله، وإما أن يكفّر عنه بمصائب؛ تصيبه ضراء فيصبر عليها، فيكفّر عنه السيئات بتلك المصائب، وبالصبر عليها ترتفع درجاته».

ولا حجة لأحد في الاحتجاج بالقدر علىٰ كفره أو معصيته أو نقصه أو تضييعه لمصالح دينه ودنياه؛ فكل إنسان له قدرة تامة وإرادة جازمة يختار بها فعله، ومن ذلك سبيل الهداية أو الغواية، قال تعالىٰ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ [القلم: ٢٥].

والله خلق كل مخلوق علىٰ الفطرة التي لو لزمها ولم ينحرف عنها؛ كان من أهل السعادة، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أن

---

(١) الفتاوىٰ العراقية (٢/ ١٠٣٠).

رسول الله ﷺ قال: «**كل مولود يُولد علىٰ الفطرة، فأبواه يهّودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**».

وليس لأحد أن يحتج بالقدر علىٰ ذنوبه ومعاصيه أو كفره، بدعوىٰ أن الشيطان هو الذي أغواه، فنقول: إنك أنت الذي اخترت أن يكون له سلطان عليك بطاعته ومعصية ربك، وإلا لو أطعت ربك وأخلصت له؛ لم يكن للشيطان عليك سبيل، قال تعالىٰ للشيطان: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

وكل مخلوق قد وُكل به قرينه من الملائكة والشياطين، كما جاء في «صحيح مسلم»، وقال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إن للقلب لَمَّة من الملك، ولمة من الشيطان؛ فلمَّة الملك إيعاد بالخير، وتصديق بالحق، ولمّة الشيطان: إيعاد بالشر، وتكذيب بالحق».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إذا كانت حسنات الإنسان أقوىٰ، أُيِّدَ بالملائكة تأييدًا يقهر به الشيطان، وإن كانت سيئاته أقوىٰ كان جند الشيطان معه أقوىٰ، وقد يلتقي شيطان المؤمن بشيطان الكافر، فشيطان المؤمن مهزول ضعيف، وشيطان الكافر سمين قوي.

فكما أن الإنسان بفجوره يؤيد شيطانه علىٰ مَلَكه، وبصلاحه يؤيد ملكه علىٰ شيطانه، فكذلك الشخصان يغلب أحدهما الآخر؛ لأن الآخر لم يؤيد

---

(١) النبوات (٢/ ١٠٦٢، ١٠٦٣).

مَلَكَه؛ فلم يؤيده، أو ضعف عنه؛ لأنه ليس معه إيمان يعينه».

وقد أبطل الله مذهب المحتجين بالقدر على الكفر والمعاصي والذنوب؛ فقال سبحانه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٤٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فهذه أربعة مواضع في القرآن بيّن سبحانه فيها أن الاحتجاج بالقدر من فعل المشركين المكذبين للرسل».

ومشركو قريش كانوا يحتجُّون بالقَدَرِ على شِركهم وكُفرهم، ثم أسلَمَ عامَّتهم.

وقد يقول قائل معترضًا على ما قاله أهل السنة والجماعة من أن

---

(١) طريق الهجرتين (ص ٢٥٤).

الاحتجاج بالقدر لم يقع إلا من الكافرين والمشركين؛ بأنه وقع من آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وعلي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فإن موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **قال لآدم**: أنت أبونا خيّبتنا وأخرجتنا من الجنة!

فقال آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: لم تلومني علىٰ ذنب كتبه الله علي؟

قال نبينا ﷺ: «**فحجّ آدم موسىٰ، فحجّ آدم موسىٰ، فحجّ آدم موسىٰ**». متفق عليه.

فهذا احتجاج بالقدر علىٰ المصائب، لا علىٰ المعايب، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «احتج آدم بالقدر علىٰ المصيبة».

وقال[2]: «والقدر يُحتج به في المصائب دون المعائب».

وأما علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فإن النبي ﷺ طرقه وفاطمة ليلًا، فقال لهم: «**ألا تصليان؟**».

فقال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثها بعثها، فانصرف رسول الله ﷺ وهو يقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]. رواه البخاري ومسلم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3]: «علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لم يحتج بالقدر علىٰ ترك واجب، ولا فعل محرم».

---

(١) شفاء العليل (١/ ٢٢٦).

(٢) شفاء العليل (١/ ٢٢٦).

(٣) شفاء العليل (١/ ٢٢٨).

وقال[١]: «واحتجاج غير المفرِّط بالقدر صحيح».

ونظير الاحتجاج بالقدر في حق غير المفرّط ما وقع للنبي ﷺ وأصحابه في رجوعهم من غزوة تبوك، فقد غلبهم النوم عن صلاة الفجر، فقال النبي ﷺ: «**إن الله قبض أرواحنا حيث شاء، وردّها حيث شاء**». رواه البخاري.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «هذا احتجاج صحيح، صاحبه يُعذر فيه؛ فإن النائم غير مفرّط».

وإن قلنا: أن أفعال العباد مخلوقة، فإنّه لا ينبغي أن يغتر الإنسان بحوله وقوته؛ فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنه وإن قلنا: إن العبد له قدرة تامة وإرادة جازمة يختار بها فعله. فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، ولا يقع في ملك الله إلا ما أراده، ولا مشيئة لمخلوق إلا بتمكين الله لعبده في ذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

ومع ما قرره أهل السنة والجماعة من أن أفعال العباد مخلوقة، كما دلّ علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد: ١٦]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وقوله ﷺ: «**والله خلق كل صانع وصنعته**»[٣]. فإنه لا يُنسب لله شيء مما يقع من أفعال العباد من الشر أو الظلم، فهذه كسب للعبد وأعماله، والله عدل لا يظلم أحدًا، والشر ليس إليه.

---

(١) شفاء العليل (١/ ٢٢٩).

(٢) شفاء العليل (١/ ٢٢٩).

(٣) رواه البخاري في خلق أفعال العباد (رقم ١١٧)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (رقم ١٦٣٧)

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وكونه خلق أفعال العباد وفيها الظلمُ، لا يقتضي وصفَه بالظُّلم سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، كما أنَّه لا يُوصَفُ بسائر القبائح التي يفعلُها العبادُ، وهي خَلْقُه وتقديرُه؛ فإنَّه لا يُوصَفُ إلَّا بأفعاله، لا يُوصف بأفعال عبادِهِ؛ فإنَّ أفعالَ عباده مخلوقاتُه ومفعولاتُه، وهو لا يُوصَفُ بشيءٍ منها، إنَّما يوصَفُ بما قام به من صفاته وأفعاله».

ونكتة المسألة: أن القائل إذا قال: هذه التصرفات فعل الله، بمعنىٰ المَصْدَرِ؛ فهذا باطل باتِّفاق المسلمين وبصريح العقل، وإن قال: فِعْلُ الله. وأراد به أنَّها مفعولة مخلوقةٌ لله كسائر المخلوقات، فهذا حق[٢].

فالشر ليس في قضاء الله وقدره وفعله، تعالىٰ الله عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا، وإنَّما الشر في مفعوله، لا في فعله تعالىٰ، فقضاء الله منزَّهٌ عن الشَّرِّ، يدل لذلك أمور كثيرة منها:

١- قوله تعالىٰ: ﴿**وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ**﴾ [آل عمران: ٢٦]، فتصرفاته كُلُّها خير.

٢- ثناء النبي ﷺ علىٰ ربه بتنزيهه عن الشر في دعاء الاستفتاح في صلاته في قوله: «**لبَّيك وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس إليك**»، رواه مسلم.

٣- تنزُّه الله عن الظلم، وتمدُّحُه نفسه بذلك، قال تعالىٰ: ﴿**وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا**﴾ [الكهف: ٤٩]، والظلم: هو وضع الشيء في غير محلِّه، والله منزَّهٌ

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص ٤٢٣).

(٢) مجموع الفتاوىٰ (٨/ ١٢٢).

عن ذلك؛ لا يضع الأشياء إلا في مواضعها.

٤- معاني أسماء الله الحسنىٰ وصفاته العُليا، وهي كثيرة مُتنوِّعة في الدَّلالة علىٰ أن الشرَّ ليس إلىٰ الله، فمنها (القدوس)، وهو المُنزَّه عن كل شر ونقص وعيب، و(السَّلام) وهو الذي سَلِمَ من العيوب والنقائص، فسلم سبحانه من إرادة الظُّلم والشَّرِّ، ومن فعله ونسبته إليه.

ومن أسمائه (الكبير) وهو الذي تكبَّرَ وتعظَّم عن كل سوء، و(العزيز) الَّذي عَزَّ عن كل سوء وشرٍّ، و(العَليُّ) الذي علا عن كُلِّ عيب وسوء ونقص، وهو (المحسن الجواد الحكيم العدل) في كل ما خلقه، وفي كُلِّ ما وضعه في محلِّه وهيَّأه له، وهو (السُّبُّوح) الذي تنزه عن كُلِّ سوء[(١)].

والشر الذي في المقضي ليس شرًّا محضًا، بل هو شر نسبي، وهذا مقتضىٰ حكمة الله تعالىٰ، وتأمَّل هذا في مثال آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ في أكله من الشجرة، وما حصل لذرِّيته من التكليف بعد ذلك.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «لولا المعصية من أبي البشر بأكله من الشجرة، لَمَا ترتَّب علىٰ ذلك ما ترتَّب من وجود هذه المحبوبات العظام للربِّ تعالىٰ، من امتحان خلقه وتكليفهم، وإرسال رُسُله، وإنزال كُتبه، وإظهار آياته وعجائبه، وتنويعها، وتصريفها، وإكرام أوليائه، وإهانة أعدائه، وظهور عدله وفضله، وعزَّته وانتقامه، وعفوه ومغفرته، وصفحه وحِلْمه،

---

(١) شفاء العليل (ص ٣٠١ - ٣٠٣).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٠٨، ٤٠٩).

وظهور من يعبده ويُحبُّه، ويقوم بمراضيه، بين أعدائه في دار الابتلاء والامتحان.

فلو قُدِّر أن آدم لم يأكل من الشَّجرة، ولم يَخْرُج من الجنة هو وأولاده؛ لم يكن شيء من تلك، ولا ظهر من القُوَّة إلى الفعل ما كان كامنًا في قلب إبليس يعلمه الله ولا تعلمه الملائكة، ولم يتميَّز خبيث الخلق من طيِّبهم، ولم تتم المملكة، حيث لم يكن هناك إكرام وثواب، وعقوبة وإهانة، ودار سعادة وفضل ودار شقاوة وعدل».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي يخلق أفعال العبد الظاهرة والباطنة؛ فهو الذي يجعل الإيمان والهدى في القلب، ويجعل التوبة والإنابة والإقبال والمحبة والتفويض وأضدادها.

والعبد في كلّ لحظة مفتقر إلى هداية يجعلها الله في قلبه، وحركات يُحرِّكه بها في طاعته، وهذا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فهو خلقه وقدره، وكان من دعاء النبي ﷺ: «**اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها**». وعلّم حصين بن المنذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن يقول: «**اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي**».

وعامة أدعيته ﷺ متضمِّنة لطلب توفيق ربه، وتزكيته له، واستعماله في محابه».

وفي حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: «**إن الله كتب الحسنات والسيئات**». فالخير والشر، والحلو والمُرُّ كُلُّه قدَّره الله سبحانه، وقد دلَّ على ذلك القرآن أيضًا والإجماع، قال

(١) طريق الهجرتين (ص ٦١٤، ٦١٥).

تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨]، وقال تعالىٰ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٩]، والمعنىٰ: أنَّ ما أصابك من سيئة من الله، فبذنب نفسك؛ عقوبة لك، كما قال تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وهذا مما كان يعتقده العرب في جاهليتهم، فضلًا عن إسلامهم، قال أحمد بن يحيىٰ ثعلب: «لا أعلم عربيًّا قدريًّا». قيل له: يقع في قلوب العرب القول بالقدر؟ قال: معاذ الله! ما في العرب إلا مُثبتُ القدر خيره وشرِّه، أهل الجاهلية والإسلام؛ ذلك في أشعارهم وكلامهم كثير»[1].

وقد حكىٰ الإجماع علىٰ هذا الاعتقاد أبو القاسم الطبري اللالكائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال[2]: «وهو مذهب أهل السنة والجماعة، يتوارثونه خلفًا عن سلف، من لدن رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب».

ولما ظهر من يُنكر أن الشر بقدر أنكر عليهم الصحابة ذلك، فقد سمع ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا رجلًا يقول: الشر ليس بقدر. فقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا[3]:

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٥٩٣، ٥٩٤ - رقم٩٤١).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٥٩٤).

(٣) رواه عبد الرزاق في المصنّف (١١/ ١١٤- رقم٢٠٠٧٣) عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه أن =

«بيننا وبين أهل القدر ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] حتى بلغ ﴿فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٤٩﴾ [الأنعام: ١٤٩]، والعجز والكيس بقدر».

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «لو أراد الله تعالى أن لا يُعصى ما خلق إبليس، وهو رأس الخطيئة».

قال أبو بكر الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «يُقال للقدري: يا من لعب به الشيطان، يا من يُنكر أن الله تعالى خلق الشرَّ، أليس إبليس أصل كُلِّ شرٍّ؟ أليس الله خلقه؟! أليس الله تعالى خلق الشياطين، وأرسلهم على من أراد ليضلوهم عن طريق الرشد؟! فأي حجة لك يا قدري؟ يا من قد حُرم التوفيق، أليس الله تعالى قال: ﴿۞ وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾... إلى قوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ٣٦ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ٣٧﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾ [مريم: ٨٣]».

وقال أبو بكر المروذي: قال رجل لأبي عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن عندنا قومًا

=

رجلًا قال لابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فذكره، إسناده صحيح.

(١) رواه الآجري في الشريعة (١/ ٤٤٠- رقم ٥٦١).

(٢) الشريعة (١/ ٤٦٢).

يقولون: إن الله خلق الخير، ولم يخلق الشر، ويقولون: القرآن مخلوق. فقال: هذا كفر، هؤلاء قدريَّة جهمية، الخير والشر مُقدَّرٌ على العباد. قيل له: الله خلق الخير والشرَّ؟ قال: نعم، الله قدَّرَهُ(١).

وقال أبو الحارث: سمعت أبا عبد الله وقد سُئل عن القدر، فقال: الخيرُ والشرُّ بقدَرٍ، والزِّنا والسَّرقة وشُرْب الخمر كله بقَدَرٍ(٢).

وقال حنبل: قلت لأبي عبد الله: إنَّ قومًا يحتجون بهذه الآية ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٩]!

قال أبو عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك، والله قضاها(٣).

والله يُضل من يشاء ويهدي إليه من ينيب، فالله لكمال عدله ركّب وخلق في عباده كلهم أسباب فعل الخير والشر ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧-١٠]، فهدى الله من أناب إليه، وزكى نفسه بطاعة الله، ويسر الله لمن أقبل عليه طريق الجنة وفعل الطاعات، قال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الليل: ٥-٧].

وأضل الله بعدله من أعرض عنه ولم يقبل وحيه وهديه، قال تعالى:

---

(١) السنة، للخلال (١/ ٥٤٣- رقم ٩٠٠).

(٢) السنة، للخلال (١/ ٥٤٣- رقم ٩٠٢).

(٣) السنة، للخلال (١/ ٥٤٥- رقم ٩٠٩).

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، فهذه الآيات وغيرها كثير دال علىٰ أن ضلال العبد بسببه، قال تعالىٰ: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أخبر سبحانه عن حكمه وقضائه فيهم وعدله، وأن إركاسهم بسبب كسبهم وأعمالهم».

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «أخبر سبحانه عن عدم قابلية الإيمان فيهم، وأنهم لا خير فيهم يدخل بسببه الإيمان إلىٰ قلوبهم، فلم يُسمعهم سماع إفهام ينتفعون به، وإن سمعوه سماعًا تقوم به عليهم حجته، فسماع الفهم الذي سمعه به المؤمنون لم يحصل لهم.

ثم أخبر سبحانه عن مانع آخر قام بقلوبهم يمنعهم من الإيمان لو أسمعهم هذا السماع الخاص، وهو الكبر والتولي والإعراض؛ فالأول مانع من الفهم، والثاني مانع من الانقياد والإذعان؛ فأفهام سيئة، وقصود رديئة، وهذه نسخة الضلال وعلم الشقاء، كما أن نسخة الهدىٰ وعلم السعادة فهم صحيح وقصد صالح، والله المستعان».

---

(١) شفاء العليل (٢/ ٦٦٢).

(٢) شفاء العليل (٢/ ٦٤٣).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «وأما الإضلال السابق الذي ضل به عن قبوله أولًا والاهتداء به، فهو إضلال ناشيء عن علم الله السابق في عبده أنه لا يصلح للهدىٰ ولا يليق به، وأن محله غير قابل له؛ فالله أعلم حيث يضع هداه وتوفيقه، كما هو أعلم حيث يجعل رسالته؛ فهو أعلم حيث يجعلها أصلًا وميراثًا، وكما أنه ليس كل محل أهلًا لتحمل الرسالة عنه وأدائها إلىٰ الخلق، فليس كل محل أهلًا لقبولها والتصديق بها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]».

فتأمل ختم الآية بقوله سبحانه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، فعلم الله السابق مطابق للواقع في عدم شكر الكافرين لرب العالمين، وهو الموجب لإضلالهم؛ فسبحان الله لكمال علمه وعدله، لا إله إلا هو.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «ولتكن قصة إبليس منك علىٰ ذكر تنتفع بها أتم انتفاع؛ فإنه لما عصىٰ ربه تعالىٰ ولم ينقد لأمره وأصر علىٰ ذلك؛ عاقبه بأن جعله داعيًا إلىٰ كل معصية، فعاقبه علىٰ معصيته الأولىٰ بأصول المعاصي وفروعها؛ صغيرها وكبيرها، وصار هذا الإعراض والكفر منه عقوبة لذلك الإعراض والكفر السابق. فمن عقاب السيئةِ السيئةُ بعدها، كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها».

---

(١) شفاء العليل (١/ ٣٣٧، ٣٣٨).

(٢) شفاء العليل (٢/ ٦٤٤).

والقدر سر الله، لا يعلمه العباد إلا بعد وقوعه، ونحن مأمورون بفعل ما أمرنا الله به، وموجب الإيمان بالقدر خيره وشره ترك الاعتراض على ما يقضيه الله كونًا ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]، والله لا يفعل إلا لحكمة ولا يقضي إلا بعدل فهذا ما يُسلم به الموحدون إذا حارت عقولهم لنقصها عن فهم حكمة الله وعدله في قضائه وقدره، والخوض في تعليل ما تحار فيه العقول يقع من المرتابين وربما يوقعهم في الكفر والإلحاد، لمثل هؤلاء واجب عليهم الأخذ بنصيحة النبي ﷺ حيث قال: «**وإذا ذُكر القدر فأمسكوا**».

فالمُوحّدون عقولهم شاهدة بصحة الشرع وحكمة الرب، وهم في أحوالهم كلها مصدّقون للشرع سواء أدركوا الحكمة في أفعال الله أو خفيت عليهم لنقص عقولهم فهذا مقتضى أيمانهم بحكمة الله في أمره وقدره وشرعه.

قال أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «الوقوف مع النقل مقام الصديقين».

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «والنهي عن الخوض في القدر يكون على وجوه: منها ضرب كتاب الله بعضه ببعض؛ فينزع المثبت للقدر بآية والنافي له بأخرى، ويقع التجادل في ذلك. وهذا قد روي أنه وقع في عهد النبي ﷺ، وأن النبي ﷺ غضب من ذلك ونهى عنه، وهذا من جملة

(١) الصواعق المرسلة (٤/ ١٣٤٩).

(٢) فضل علم السلف على علم الخلف (ص ٥١ - ٥٤).

الاختلاف في القرآن والمراء فيه، وقد نُهي عن ذلك.

ومنها: الخوض في القدر إثباتًا ونفيًا بالأقيسة العقلية، كقول القدرية: لو قدر وقضى ثمَّ عذب كان ظالمًا. وقول من خالفهم: إن الله جبر العباد على أفعالهم. ونحو ذلك.

ومنها: الخوض في سر القدر، وقد ورد النهي عنه عن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وغيره من السلف؛ فإن العباد لا يطلعون على حقيقة ذلك».






البَابُ الرَّابِعُ

الإحســان






الإحسان

الإحسان: أن يكون عملك حسنًا، وبهذا فمنه ما يكون واجبًا، ومنه ما يكون مستحبًّا، ولذلك قال النبي ﷺ: «**إن الله كتب الإحسان علىٰ كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة، ولْيحدَّ أحدُكم شفرتَه، وليُرِح ذبيحته**». رواه مسلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «العمل الصالح: هو الإحسان، وهو فعل الحسنات. والحسنات: هي ما أحبه الله ورسوله ﷺ، وهو ما أمر به أمر إيجاب، أو استحباب».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «حديث جبريل جعل الدين وأهله «ثلاث طبقات»: أولها: الإسلام، وأوسطها: الإيمان، وأعلاها: الإحسان، ومن وصل إلىٰ العليا فقد وصل إلىٰ التي تليها؛ فالمحسن مؤمن، والمؤمن مسلم، وأما المسلم فلا يجب أن يكون مؤمنًا.

وهكذا جاء القرآن، فجعل الأمة علىٰ هذه الأصناف الثلاثة، قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم

(١) العبودية (ص ٥٥).

(٢) الإيمان الكبير (ص ٦٥٥).

مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]؛ فالمسلم الذي لم يقم بواجب الإيمان، هو الظالم لنفسه، والمقتصد هو المؤمن المطلق الذي أدّىٰ الواجب وترك المحرم، والسابق بالخيرات هو المحسن الذي عبد الله كأنه يراه، وقد ذكر الله سبحانه تقسيم الناس في المعاد إلىٰ هذه الثلاثة في سورة «الواقعة» و«المطففين» و«هل أتىٰ»».

والإحسان نوعان: إحسان في حق الناس، وإحسان في حق عبادة الله، والإحسان إلىٰ الناس منه الواجب، ومنه المستحب، ومنه الإحسان بالعلم والتعليم، ومنه إحسان بالمال والجاه والبدن وغيره.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الإحسان: ضد الإساءة، وهو أن يبذل الإنسان المعروف ويكف الأذىٰ، فيبذل المعروف لعباد الله في ماله، وجاهه، وعلمه، وبدنه.

فأما المال: فأن يُنفق، ويتصدق، ويزكي، وأفضل أنواع الإحسان بالمال: الزكاة؛ لأن الزكاة أحد أركان الإسلام، ومبانيه العظام، ولا يتم إسلام المرء إلا بها، وهي أحب النفقات إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، ويلي ذلك ما يجب علىٰ الإنسان من نفقة لزوجته، وأمه، وأبيه، وذريته، وإخوانه، وبني إخوته، وأخواته، وأعمامه، وعمّاته، وخالاته، إلىٰ آخر هذا، ثم الصدقة علىٰ المساكين وغيرهم، ممن هم أهل للصدقة كطلاب العلم مثلًا.

---

(١) شرح الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ١١٨، ١١٩).

وأما بذل المعروف في الجاه: فهو أن الناس مراتب، منهم من له جاه عند ذوي السلطان، فيبذل الإنسان جاهه؛ يأتيه رجل فيطلب منه الشفاعة إلى ذي سلطان يشفع له عنده، إما بدفع ضرر عنه، أو بجلب خير له.

وأما بعلمه فأن يبذل علمه لعباد الله، تعليمًا في الحلقات والمجالس العامة والخاصة».

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا وجوه الإحسان إلى الخلق[1]: «وأما الإحسان إلى الناس بالبدن: فقد قال النبي ﷺ: «**وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة**»، فهذا رجل تعينه تحمل متاعه معه، أو تدله على طريق أو ما أشبه ذلك».

وأما بالنسبة للإحسان في عبادة الخالق فقد قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيانه[2]: «وأما بالنسبة للإحسان في عبادة الله: فأن تعبد الله كأنك تراه - كما قال النبي ﷺ -، وهذه العبادة - أي عبادة الإنسان ربه كأنه يراه - عبادة طلب وشوق، وعبادة الطلب والشوق يجد الإنسان من نفسه حاثًّا عليها؛ لأنه يطلب هذا الذي يُحبه؛ فهو يعبده كأنه يراه، فيقصده وينيب إليه ويتقرَّب إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، «**فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»، وهذه عبادة الهرب والخوف، ولهذا كانت هذه المرتبة ثانية في الإحسان، إذا لم تكن تعبد الله عَزَّوَجَلَّ كأنك تراه وتطلبه، وتحث النفس للوصول إليه،

(١) شرح الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ١١٩).

(٢) شرح الأصول الثلاثة وأدلتها (ص ١١٩، ١٢٠).

فاعبده كأنه هو الذي يراك؛ فتعبده عبادة خائف منه، هارب من عذابه وعقابه، وهذه الدرجة عند أرباب السلوك أدنى من الدرجة الأولى».

والإحسان إلى المخلوق في الحقيقة هو إحسان الله الذي وهبك ما تقضي به حوائج المحتاجين، وتسد خلّتهم، فلله الحمد والمنّة والشكر، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «المؤمن يرى أن عمله لله؛ لأنه إياه يعبد، وأنه بالله؛ لأنه إياه يستعين؛ فلا يطلب ممن أحسن إليه جزاءً ولا شكورًا؛ لأنه عمل ما عمل لله، كما قال الأبرار: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩]، ولا يمنّ عليه بذلك ولا يؤذيه؛ فإنه قد علم أن الله هو المانّ عليه؛ إذ استعمله في الإحسان، وأن المنّة لله عليه وعلى ذلك الشخص، فعليه هو أن يشكر الله؛ إذ يسّره لليسرى، وعلى ذلك أن يشكر الله إذ يسر له من يقدم له ما ينفعه من رزق أو علم أو نصر أو غير ذلك.

ومن الناس من يُحسن إلى غيره، ليمنّ عليه، أو يجزيه بطاعته له، وتعظيمه، أو نفع آخر، وقد يمنّ عليه فيقول: أنا فعلت بك كذا. فهذا لم يعبد الله، ولم يستعنه، ولا عمل لله، ولا عمل بالله، فهو كالمرائي، وقد أبطل الله صدقة المنان، وصدقة المرائي، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]».

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «الناس في الإيمان درجات

---

(١) الفتاوى العراقية (٢/ ١٠٣٧).

(٢) المواهب الربانية من الآيات القرآنية (ص ٨٧، ٨٨).

متفاوتة، فأكملهم من وصل في علوم الإيمان إلىٰ علم اليقين وحق اليقين، وفي أعماله من وفّىٰ مرتبة الإحسان، وعبدَ الله علىٰ وجه الحضور والمراقبة».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾: منزلة «الإحسان»، وهي لُبُّ الإيمان ورُوحه وكماله، **وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل**؛ فجميعها منطوية فيها، وكل ما قيل من أول الكتاب إلىٰ هاهنا فهو من الإحسان.

قال صاحب المنازل رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقد استُشهد علىٰ هذه المنزلة بقوله تعالىٰ: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]؛ فالإحسان جامع لجميع أبواب الحقائق، وهو أن تعبد الله كأنك تراه.

فأما الآية، فقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا والمفسرون: هل جزاء من قال: «لا إله إلا الله»، وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة؟!

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قرأ ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ ثم قال: «**هل تدرون ماذا قال ربكم**»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**يقول: هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة؟**».

وأما الحديث: فإشارة إلىٰ كمال الحضور مع الله عَزَّ وَجَلَّ ومراقبته الجامعة؛ لخشيته ومحبته ومعرفته والإنابة إليه والإخلاص له، ولجميع مقامات الإيمان».

---

(١) مدارج السالكين (ص٦١٩).

وقال العلامة حافظ بن أحمد الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هذه المرتبة هي الثالثة من مراتب الدين المفصلة في حديث جبريل المتقدم، وهي أعلى مراتب الدين، وأعظمها خطرًا، وأهلها هم المستكملون لها، السابقون بالخيرات، المقربون في علو الدرجات.

وقد قدمنا أن الإسلام هو الأركان الظاهرة عند التفصيل واقترانه بالإيمان، والإيمان إذ ذاك هو الأركان الباطنة، والاحسان هو تحسين الظاهر والباطن، وأما عند الإطلاق فكل منها يشمل دين الله كله.

وقد جاء الإحسان في القرآن في مواضع كثيرة، تارة مقترنًا بالإيمان، وتارة بالتقوى، وتارة بهما معًا، وتارة بالجهاد، وتارة بالإسلام، وتارة بالعمل الصالح مطلقًا، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ٩٣] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [البقرة: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ

---

(١) معارج القبول (٢/ ٣٢٣).

وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢].

وتارة بالإنفاق في سبيل الله، وهو من الجهاد، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]».

وقال العلامة حافظ بن أحمد الحكمي أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «وقد فسره النبي ﷺ تفسيرًا لا يستطيعه من المخلوقين أحد غيره ﷺ؛ لما أعطاه الله تعالىٰ من جوامع الكلم، فقال ﷺ: «**الإحسان: أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» أخبر ﷺ أن مرتبة الإحسان علىٰ درجتين، وأن للمحسنين في الإحسان مقامين متفاوتين:

المقام الأول - وهو أعلاهما: أن تعبد الله كأنك تراه، وهذا مقام المشاهدة؛ وهو أن يعمل العبد علىٰ مقتضىٰ مشاهدته لله عَزَّوَجَلَّ بقلبه، وهو أن يتنوَّرَ القلب بالإيمان، وتنفذ البصيرة في العرفان، حتىٰ يصير الغيب كالعيان، فمن عبد الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ استحضار قربه منه، وإقباله عليه، وأنَّه بين يديه كأنه يراه، أوجب له ذلك الخشية والخوف والهيبة والتعظيم، وفي حديث حارثة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ المرسل أن النبي ﷺ قال له: «**يا حارثة كيف أصبحت؟**» قال: أصبحت مؤمنًا حقًّا. قال: «**انظر ما تقول؛ فإن لكل قول حقيقة**». قال: يا رسول الله! عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلىٰ عرش ربي بارزًا، وكأني أنظر أهل الجنة في

(١) معارج القبول (٢/ ٣٢٤، ٣٢٥).

الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلىٰ أهل النار في النار كيف يتعاوون فيها. قال: «**أبصرت فالزم، عبدٌ نوَّر الله تعالىٰ بصيرته**».

المقام الثاني: مقام الإخلاص، وهو أن يعمل العبد علىٰ استحضار مشاهدة الله إياه، واطلاعه عليه، وقربه منه، فإذا استحضر العبد هذا في عمله وعمل عليه فهو مخلص لله تعالىٰ؛ لأن استحضاره ذلك في عمله يمنعه من الالتفات إلىٰ غير الله وإرادته بالعمل، وهذا المقام هو الوسيلة الموصلة إلىٰ المقام الأول، ولهذا أتىٰ به النبي ﷺ تعليلًا للأول، فقال: «**فإن لم تكن تراه فإنه يراك**». وفي بعض ألفاظ الحديث: «**فإنك إلا تكن تراه فإنَّه يراك**». فإذا تحقق في عبادته بأنَّ الله تعالىٰ يراه ويطلع علىٰ سره وعلانيته وباطنه وظاهره، ولا يخفىٰ عليه شيء من أمره، فحينئذ يسهل عليه الانتقال إلىٰ المقام الثاني، وهو دوام التحقيق بالبصيرة، إلىٰ قرب الله تعالىٰ من عبده ومعيته، حتىٰ كأنه يراه، وقد ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هذا المعنىٰ في غير ما موضع من القرآن، كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦١-٦٣]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا

دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال تبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٢٢٠﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠] وغير ذلك من الآيات».

وقال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «اعلم أن الإحسان المأمور به نوعان:

أحدهما: واجب، وهو الإنصاف، والقيام بما يجب عليك للخَلْقِ، بحسب ما توجَّه عليك من الحقوق.

والثاني: إحسان مستحب. وهو ما زاد على ذلك من بذل نفع بدنيٍّ، أو ماليٍّ، أو علميٍّ، أو توجيه لخير دينيٍّ، أو مصلحة دنيوية؛ فكلُّ معروف صدقة، وكلُّ ما أدخل السرور على الخلق صدقة وإحسان، وكلُّ ما أزال عنهم ما يكرهون، ودفع عنهم ما لا يرتضون من قليل أو كثير، فهو صدقة وإحسان».

ومن أعظم ما يكون من الإحسان إلى الخلق: الاستغفار لهم، وأولى وأحرى الخلق بذلك من أمرنا الله بالاستغفار لهم؛ وهم الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ

---

(١) بهجة قلوب الأبرار (ص ٢٨٦).

وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]؛ فالاستغفار متأكد في حق الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وعام لمن آمن بعدهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «المعنىٰ المقتضي لذلك يَعمُّ الصحابة وسائر طبقات الأمة؛ إذ كُلُّ طبقة متأخِّرة ينبغي أن تستعمل مع الطبقة المتقدمة معنىٰ هذه الآية: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]. ومعلوم أن كلام العلماء بعضهم في بعض - بالاجتهاد تارةً، وبنوع من غيره أخرىٰ - يُشبه ما وقع بين بعض الصحابة وبعضٍ من القال والفعال.

فالمؤمن يجمع بين القيام بحق الله، بمعرفة دينه والعمل به، وحقوق المؤمنين متقدميهم ومتأخِّريهم؛ بالاستغفار وسلامة القلوب؛ فإنه من كان له في الأمة لسانُ صدق - بل ومن هو دونه - إذا صدر منه ما يكون منكرًا في الشرع، فإما أن يكون مجتهدًا فيه، يغفر الله له خطأه، وإما أن يكون مغمورًا بحسناته، وإما أن يكون قد تاب منه، بل من هو دونه دون هؤلاء إذا فعل سيئةً عظيمةً فالله يغفرها له، إما بتوبةٍ، وإما باستغفاره، وإما بحسناته الماحية، وإما بالدُّعاء له، والشفاعة فيه، والعمل الصالح المُهدىٰ إليه، وإما أن يُكفِّر عنه بمصائب الدنيا، أو البرزخ، أو عَرَصات القيامة، أو برحمة الله تعالىٰ؛ فلهذا ينبغي للمؤمن أن يتوقَّىٰ القول السيء في أعيان المؤمنين

---

(١) جواب الاعتراضات المصرية علىٰ الفتيا الحموية (ص ١٦١، ١٦٢).

المتقين، ويُؤَدِّي الواجب في دين الله، والقولَ الصدق، واتباع ما أمر الله به، واجتناب ما نهى الله عنه.

وكما أن هذا الواجب في المسائل العملية، فكذلك في هذه المسائل الخبرية، لا سيما فيما يَغمُض معناه، ويشتبه على عموم الناس الحقُّ فيه بالباطل، فهذا المسلك يجب اتِّباعه؛ إذْ قلَّ عظيم في الأمة إلا وله زلَّةٌ، وقد جاء في الحديث التحذير من زلَّة العلماء».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «وأما الإحسان في أعمال الجوارح بعد إحكام قاعدة العلم فعلى أنواع: منه فرض عين، ومنه فرض كفاية، ومنه سنة مؤكدة، ومنه فضيلة لا يسع من له عقل ومروءة أن يفوت نفسه حظها من ذلك، وذلك يختلف باختلاف الأحوال».

والمحسنون يتولَّاهم الله، فهم في معيَّته، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨].

يتولاهم بالحفظ والنصرة والتأييد.

والله عَزَّوَجَلَّ ذكر معيَّته للمحسنين في عموم إحسانهم، وذكر معيَّته لهم في أخصِّ إحسانهم في صلواتهم وسجودهم.

وقال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠].

---

(١) شرح حديث جبريل (ص ٥٨٩).

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]؛ التقوى عامة هنا تشمل فعل كل طاعة، وترك كل معصية، وكذلك ﴿الذين هم محسنون﴾ تشمل الإحسان المفروض؛ من أداء الطاعات بإحسان وإتقان عمل، وتشمل إحسان الخشية والمراقبة لله، وتشمل الإحسان المندوب بفعل النوافل.

وأعظم الإحسان، وهو من تحقيق التوحيد، وهو المفتاح لفعل أنواع الطاعات وترك المحرمات، وهو إحسان العبد في الصلاة، وقيامه لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ ذلك أن الصلاة ﴿تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وهي السبب في صلاح سائر العمل وقبوله، كما جاء في الحديث: «**أول ما يُنظر في عمل المرء صلاته، فإن صلحت أفلح وأنجح**».

والدِّين كلُّه في تلاوة القرآن حقَّ تلاوته، فمن حقَّق تلاوته فذلك المحسن. قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ [يونس: ٦١].

وتلاوة القرآن هي اعتقاد ما فيه من حقائق الإيمان وحقيقة الدين كله؛ فالشرع هو القرآن وما أوحي إلى النبي ﷺ من السنة بيان له.

وتلاوة القرآن هي إقامة ما فيه من الأحكام، وتصديق ما فيه من الأخبار، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ﴾ [البقرة: ١٢١].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «معنى تلاوته: اتباعه؛ امتثال ما يأمر به واجتناب ما ينهى عنه، والاهتداء بهداه، وتصديق أخباره، وتدبر معانيه، وتلاوة ألفاظه، فصار تلاوة لفظه جزء المعنى وبعضه، وإذا كان هذا معنى تلاوة الكتاب عُلم أن إقامة الدين كله داخلة في تلاوة الكتاب».

وقد جاء الأمر بالإحسان في مثل قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، فانتظم به كل إحسان واجب ومستحب، وكل إحسان في أنواع العبادات والمعاملات، وكل إحسان في حق الخالق والمخلوق، وجاء الأمر بالإحسان في أنواع مخصوصة؛ لأهميتها، فيتأكد الاهتمام بها فوق الأمر العام، كقوله تعالى: ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦﴾ [النساء: ٣٦]، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «جمع الله تعالى في هذه الآية بين ذكرِ حقِّه على العبد وحقوقِ العباد على العبد أيضًا، وجعل العبادَ الذين أمرَ بالإحسان إليهم خمسة أنواع:

أحدها: من بينَه وبينَ الإنسان قرابةٌ، وخصَّ منهمُ الوالدين بالذِّكر؛ لامتيازهما عن سائر الأقارب بما لا يَشْرَكونهما فيه؛ فإنَّهما كانا السببَ في

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص ٦٦٩).

(٢) جامع العلوم والحكم (ص ١٦٦، ١٦٧)، باختصار.

وجود الولد، ولهما حقُّ التربية والتأديب وغير ذلك.

الثاني: مَنْ هو ضعيفٌ محتاجٌ إلى الإحسان، وهو نوعان: من هو محتاج لضعف بدنه، وهو اليتيم، ومن هو محتاج لِقِلَّةِ ماله، وهو المسكين.

والثالث: مَنْ له حقُّ القُرب والمخالطة، وجعلهم ثلاثة أنواع: جارٌ ذو قربى، وجار جُنبٌ، وصاحبٌ بالجنب.

الرابع: من هو واردٌ على الإنسان، غيرُ مقيم عندَه، وهو ابن السبيل؛ يعني: المسافر إذا ورد إلى بلدٍ آخر. وفسَّره بعضُهم بالضَّيف؛ يعني به: ابنَ السبيل إذا نزل ضيفًا على أحد.

والخامس: ملكُ اليمين، وقد وصَّى النَّبيُّ بهم كثيرًا، وأمر بالإحسانِ إليهم».

وفي الحقيقة إن الإحسان في أصل معناه هو «الإخلاص»، وهو الموجب لأن تستوي سريرة الإنسان وعلانيته؛ فإن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ سأل النبي ﷺ عن الإحسان فقال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

فمن تحقق بالإخلاص كان محسنًا، ومن أخلص في عموم أحواله وأساء في الغفلات، فهذا خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا، ومن أساء في عموم أحواله، فهذا شر الأقسام، والعياذ بالله.

والإحسان يتضمن عبادة المؤمن الله، وطاعته على وجه الحضور في أحواله عمومًا، وفي الصلاة خصوصًا، وهذا يورث المحسن مقامات الخير كلها؛ من الحب لله والمراقبة والخشية والتأله له، وملاحظة معيّته له في أموره كلها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «التحقيق: أن الإحسان يتناول الإخلاص وغيره، والإحسان يجمع كمال الإخلاص لله، ويجمع الإتيان بالفعل الحسن الذي يحبه الله تعالىٰ، قال الله تعالىٰ: ﴿ **بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [البقرة: ١١٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا** ﴾ [النساء: ١٢٥]، فذكر إحسان الدين أولًا، ثم ذكر الإحسان ثانيًا؛ فإحسان الدين هو - والله أعلم - الإحسان المسؤول عنه في حديث جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ فإنه سأله عن الإسلام والإيمان؛ ففي إحسان هذا الإسلام والدين الذي يكون صاحبه محسنًا، وتابعًا لما فيه رضوان الله في الأقوال والأفعال، هو المقام الذي أشار إليه النبي ﷺ حين قال: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»، ومراقبة الله هي السر المطلوب في جميع أحوال العبد».

والإحسان كما أنه يتضمن في أصل معناه الإخلاص لله، فإنه يتضمن أيضًا الاستحياء من الله، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «المسلم إذا كمل إسلامهُ، وبلغ إلىٰ درجة الإحسان، وهو أنْ يَعْبُدَ الله تعالىٰ كأنَّه يراه، فإنْ لم يكن يراه؛ فإنَّ الله يراه، فمن عبد الله علىٰ استحضار قربه ومشاهدته بقلبه، أو علىٰ استحضار قرب الله منه واطلاعه

(١) شرح حديث جبريل (ص ٥٧٨ - ٥٨١).

(٢) جامع العلوم والحكم (ص ١٣٨).

عليه؛ فقد حسن إسلامه، ولزم من ذلك أنْ يترك كل ما لا يعنيه في الإسلام، ويشتغل بما يعنيه فيه؛ فإنَّه يتولَّدُ من هذين المقامين الاستحياءُ من الله وترك كلِّ ما يُستحيىٰ منه، كما وصَّىٰ ﷺ رجلًا أنْ يستحيي من الله، كما يستحيي من رجل من صالحي عشيرته لا يُفارقه.

وفي «المسند» والترمذي عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**الاستحياء من الله تعالىٰ أنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وما حَوَىٰ، وتَحفَظَ البَطنَ وما وَعَىٰ، ولْتَذْكُرِ الموتَ والبِلىٰ، فمن فَعَل ذلك، فقد استحيَىٰ من الله حقَّ الحياء**».

قال بعضهم: استحي من الله علىٰ قدر قربه منك، وخَفِ الله علىٰ قدر قدرته عليك.

وقال بعضُ العارفين: إذا تكلمتَ فاذْكُر سَمعَ اللهِ لك، وإذا سكتَّ فاذكر نظره إليك.

وقد وقعتِ الإشارةُ في القرآن العظيم إلىٰ هذا المعنىٰ في مواضع، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٦- ١٨]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]، وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]».

وإحسان العمل دلّ عليه حديث شداد بن أوس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**إن الله كتب الإحسان علىٰ كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة**». رواه مسلم، ودلّ عليه كذلك قوله تعالىٰ: ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا** ﴾ [النساء: ١٢٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فالذي أسلم وجهه لله هو الذي يخلص نيته لله، ويبتغي بعمله وجه الله، والمحسن هو الذي يُحسن عمله، فيعمل الحسنات، والحسنات هي العمل الصالح، والعمل الصالح هو ما أمر الله به ورسوله ﷺ من واجب ومستحبٍّ، فما ليس من هذا ولا هذا، ليس من الحسنات والعمل الصالح، فلا يكون فاعله محسنًا».

أما أنواع الإحسان الواجب والمستحب، فقد قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «هذا الحديث - «**إن الله كتب الإحسان علىٰ كل شيء**» - نصٌّ في وجوب الإحسان، وقد أمر الله تعالىٰ به، فقال: ﴿ ۞ **إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ** ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال: ﴿ **وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وهذا الأمرُ بالإحسان تارةً يكونُ للوجوب، كالإحسان إلىٰ الوالدين والأرحام بمقدار ما يحصل به البرُّ والصِّلَةُ، والإحسان إلىٰ الضيف بقدر ما

(١) النبوات (١/ ٤١٦).

(٢) جامع العلوم والحكم (ص ١٨٣).

يحصل به قِراه على ما سبق ذكره.

وتارةً يكونُ للندب، كصدقةِ التطوعِ ونحوها.

وهذا الحديثُ يدلُّ على وجوب الإحسانِ في كل شيء من الأعمال، لكن إحسانُ كُلِّ شيء بحسبه؛ فالإحسانُ في الإتيان بالواجبات الظاهرة والباطنةِ: الإتيانُ بها على وجه كمال واجباتها، فهذا القدرُ من الإحسان فيها واجب، وأمَّا الإحسانُ فيها بإكمالِ مستحباتها فليس بواجب.

والإحسان في ترك المحرَّمات: الانتهاء عنها، وترك ظاهرها وباطنها، كما قال تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، فهذا القدر من الإحسان فيها واجب.

وأما الإحسان في الصبر على المقدورات؛ فأن يأتي بالصبر عليها على وجهه من غير تسخُّطٍ ولا جزع.

والإحسان الواجب في معاملة الخلق ومعاشرتهم: القيام بما أوجب الله من حقوق ذلك كلِّه، والإحسان الواجب في ولاية الخلق وسياستهم: القيام بواجبات الولاية كُلِّها، والقدر الزائد على الواجب في ذلك كله إحسان ليس بواجب».

وفي حديث شداد بن أوس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله كتبَ الإحسانَ على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبْحَة، وليُحدَّ أحدُكم شفرته، وليرح ذبيحته**». رواه مسلم. زجر عن التهاون في حقوق البهائم؛ فإن البعض قد يُعظِّم حرمة الآدميين، ويتهاون في حرمة

وحقوق البهائم، لمجرد أنها بهائم، أو لأنها غير مُكلّفة، أو غير ذلك.

فهذا الحديث فيه أمر بالإحسان إلى البهائم، ومن آخر ما أوصى به النبي ﷺ قبل مفارقة الدنيا الصلاة وما ملكت أيماننا، حيث قال ﷺ: «**الصلاة الصلاة، وما ملكت أيمانكم**»، وذكر بعض العلماء في عموم معنى ملك اليمين ما نملكه من الدواب والبهائم[1].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه نهى عن صبر البهائم، وهو: أنْ تُحبس البهيمة، ثُمَّ تُضرب بالنبل ونحوه حتَّى تموتَ؛ ففي «الصحيحين» عن أنسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ نهى أنْ تُصبر البهائم».

وفيهما أيضًا عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أنَّه مرَّ بقوم نصبوا دجاجةً يرمونها، فقال ابنُ عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «من فعل هذا؟ إنَّ رسول الله ﷺ لعن من فعل هذا».

وخرَّج مسلم من حديث ابنِ عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، عن النَّبيِّ ﷺ: «أنَّه نهى أنْ يُتخذ شيء فيه الروح غرضًا»، والغرض: هو الذي يرمى فيه بالسهام.

وفي «مسند الإمام أحمد» عن أبي هُريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ «نهى عن الرَّمِيَّةِ»: أنْ ترمى الدابة ثم تُؤكلُ، ولكن تُذبح، ثم ليرموا إنْ شاؤوا».

وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة.

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص ١٦٧).

(٢) جامع العلوم والحكم (ص ١٨٧).

فلهذا أمر النَّبيُّ ﷺ بإحسانِ القتلِ والذبح، وأمر أنْ تُحَدَّ الشفرةُ، وأنْ تُراح الذبيحة؛ يشير إلىٰ أنَّ الذبح بالآلة الحادة يُرِيحُ الذبيحة بتعجيل زهوق نفسها».

وكفىٰ في الزجر عن التهاون في حرمة وحقوق البهائم قول النبي ﷺ: «**دخلت امرأةٌ النار في هرّة حبستها، لا هي التي أطعمتها، ولا هي التي تركتها تأكل من خشاش الأرض**»، رواه البخاري.

ومن الإحسان الواجب - وهو أوله وأوكده وأوجبه - أخذ الدين وتلقيه وفهمه بفهم الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فرضي عن السابقين من غير اشتراط إحسانًا، ولم يرضَ عن التابعين إلا أن يتبعوهم بإحسان».

وقال الحافظ أبو عبد الله ابن مندة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ[٢]: «أول ما أهمهم جمع القرآن؛ مخافة ذهاب حملته، واختلاف من بعدهم فيه، وشرح الله صدر الجماعة لذلك؛ لأنهم هم الذين شهدوا التنزيل، وعرفوا التأويل، وعلموا الترتيب، وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «رحم الله أبا بكر! هو أول من جمع القرآن بين اللوحين». فرحمة الله عليهم وصلواته ورضوانه أجمعين.

---

(١) الجامع لكلام ابن تيمية في التفسير (٣/ ٤٤١).

(٢) شروط الأئمة (ص ٢٦ - ٢٨).

ثم **أخذ التابعون بإحسان عنهم**، فقاموا بتلاوته، وعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقالوا: كلٌّ من عند الله. فلم يختلفوا في آية منه، بل يُكفّرون من كفر بآية منه، ويرون من قرأ خلاف ما أجمعوا عليه خارجًا من الأمة والإجماع، **جعلنا الله ممن تبعهم بإحسان؛ فهم الذين بلّغوا عن الصحابة ما جاءوا به عن الله ورسوله ﷺ من الكتاب والسنة، ونقلوا فرائضه، وحدوده، وأوامره، ونواهيه، وناسخه، ومنسوخه، وهم الذين وصفهم الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه، فقال - تبارك اسمه -:** ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال - جل وعز -: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٠]؛ فهم الذين وصفهم النبي ﷺ، وقال: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»؛ **فهم التابعون لهم بإحسان،** فرحمة الله عليهم ورضوانه؛ فلقد حفظوا وبلغوا ونصحوا كما أُمروا، جعلهم الله أئمة يهدون بأمره بصبرهم على اكتساب ما ندبهم إليه، واجتهادهم في تعليم حكمته طلب القربة إليه، وأرشدهم إلى السبل الدالة على العلم بما به أمر، والانتهاء عما عنه زجر».

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، يدل بمفرده

علىٰ وجوب أخذ الدين وتلقيه وفهمه عن الصحابة، ويزداد ظهور دلالة وجوبه مضمومًا مع قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، قال البربهاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «والأساس الذي تُبنىٰ عليه الجماعة هم أصحاب محمد ﷺ ورحمهم الله أجمعين، وهم أهل السنة والجماعة، فمن لم يأخذ عنهم؛ فقد ضل وابتدع، وكل بدعة ضلالة، والضلالة وأهلها في النار».

وقال أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «لا غنىٰ للناظر عن معرفة الآثار، كما لابد له من العلم بالأخبار؛ ليعلم كيف كان تلقي السلف للأحاديث، وعلىٰ أي وجه كان قبولهم لها، ويطلع من أي باب تولجوا إليها، فلا منهج إلا منهاجهم».

وإذا لم يأخذ المسلم دينه عن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ الذين حضروا التنزيل، وهم أنصح وأفصح الخلق، واستبدّ بفهمه؛ ضل وزل ووقع في سوء الفهم لنصوص القرآن والسنة، وابتدع، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «كثير من قاصري العلم، يحتجون بعموم نص علىٰ حكم، ويغفلون عن عمل صاحب الشريعة، وعمل أصحابه الذي يبيّن مراده، ومن تدبّر هذا

---

(١) شرح السنة (ص ٦٧).

(٢) القبس في شرح الموطأ (١/ ٢١٧).

(٣) تهذيب سنن أبي داود (٣/ ٢٨٨).

علم به مراد النصوص، وفهم معانيها».

وقال ابن القصار عن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ[١]: «هم الذين أُمرنا بالاقتداء بهم؛ لأنهم المبلغون للسنن، والمفسرون لها، فوجب اتباع سبيلهم واختيار ما اختاروه، والرغبة عما رغبوا عنه».

ومنهج أهل الحق علماء المسلمين وعوامهم في أخذ الدين وتقرير عقائده وأحكامه ومسائله، هو التلقي من القرآن والسنة بفهم السلف؛ الصحابة والتابعين الآخذين عنهم.

قال تعالىٰ: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا**﴾ [النساء: ١١٥].

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «من تكلّم بكلام في الدِّين أو في شيء من هذه الأهواء ليس له فيه إمام متقدّم من النبي ﷺ وأصحابه؛ فقد أحدث في الإسلام حدثًا، وقال رسول الله ﷺ: «**من أحدث حدثًا، أو آوىٰ مُحدثًا في الإسلام؛ فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلًا**»».

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها سلف».

---

(١) شرح ابن بطال على صحيح البخاري (٤/ ٣٦٩).

(٢) سير السلف الصالحين (٣/ ١١٧).

(٣) السنة للخلال (٢/ ٢٣).

وقال الإمام أحمد أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن تأويل من تأول القرآن بلا سنة تدل على معناها أو معنى ما أراد الله عَزَّوَجَلَّ أو أثر عن أصحاب الرسول ﷺ فهذا تأويل أهل البدع».

وقال متممًا[٢]: «ورسول الله ﷺ المعبِّر عن كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وما أراد وأصحابه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أعلم بذلك منّا لمشاهدتهم الأمر وما أريد بذلك».

وقال شريك بن عبد الله القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «نحن أخذنا ديننا عن التابعين عن الصحابة، فالمبتدعة عمن أخذوا؟!».

وقال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ مقررًا منهج أهل السنة في تقرير العقيدة[٤]: «ولم يُذكر عن أحد من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان خلاف ما وصفنا، وهم الذين أدَّوُا الكتاب والسنة بعد النبي ﷺ قرنًا بعد قرن، قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال النبي ﷺ: «**أنتم شهداء الله في الأرض**»».

وفي الحقيقة الإحسان هو الدين كله، قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٢]،

---

(١) السنة للخلال (٢/ ٢٣).

(٢) السنة للخلال (٢/ ٢٣).

(٣) السنة لعبد الله بن الإمام أحمد (١/ ٢٧٣)، والصفات للدارقطني (ص١٢٠).

(٤) خلق أفعال العباد (٢/ ١١٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إسلام وجهه كما قاله أئمة التفسير: هو إخلاص دينه وعمله لله. وقيل: تفويض أمره إلىٰ الله. وهو يَعُمُّ القسمين، كما سنبينه إن شاء الله؛ فإن إسلام وجهه يقتضي أنه أسلم نيّته وعمله ودينه لله؛ أي جعله لله خالصًا سالمًا، والإحسان هو فعل الحسنات، فاجتمع له أن عمله خالص، وأنه صالح، كما قال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا».

وقال الفضيل بن عياض في قوله تعالىٰ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، قال: أخلصه وأصوبه. قيل: يا أبا علي! ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل، حتىٰ يكون خالصًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون علىٰ السنة».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا معنىٰ الإحسان الواجب ودليله[2]: «وإذا كان الله قد شرط في من له أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، أن يكون محسنًا مع إسلام وجهه لله؛ دلَّ بذلك علىٰ أن الإحسان شرط في استحقاق هذا الجزاء، وهذا الجزاء لا يقف إلا فعل الواجب، فإنّ كل من أدىٰ الواجب فقد استحق الثواب، ودرأ العقاب،

(١) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص ٢٦).

(٢) جامع المسائل، المجموعة السادسة (ص٢٩).

وذلك يدل على أن الإحسان واجب، وقد قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، والأمر يقتضي الوجوب.

وقال تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١]، ومن فعل الواجبَ فما عليه من سبيل، إنما السبيل على من أساء بترك ما أُمرَ به، أو فعل ما نُهي عنه.

وقال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل: ٨٩]، ونظائره كثيرة.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلَةَ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحةَ**»، ففي هذا الحديث أن الإحسان واجب على كل حال، حتى في حال إزهاق النفوس، ناطقها وبهيمتها، فعلَّمَهُ أن يُحْسِن القتلةَ للآدميين، والذبحة للبهائم.

والإحسان الواجب هو فعل الحسنات؛ وهو أن يكون عمله حسنًا، ليس المراد بذلك فعل الإحسان التطوع، وهذا الإحسان في حق الله، وفي حقوق عباده؛ فأما في حق الله ففعل ما أمره به من غير أن يتعلق المأمور به، وأما في حق عباده ففعل ما أوجب لهم من الإحسان، وترك ما لا يجوز من الإساءة».

وفضائل الإحسان وثمراته عظيمة:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الإحسان الذي به يستحق القرب والرضوان، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [المائدة: ٩٣]، وقد مدح

---

(١) شرح حديث جبريل (ص ٥٨٣، ٥٨٤).

الله الإحسان، ورغب في استصحابه لجميع الأعمال القلبية والبدنية والمالية، في غير موضع في كتابه، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]».

حديث «جبريل» تبيين لمعاني الإيمان والإسلام والإحسان، وذلك جامع لحقائق الاعتقاد والقول والعمل الصالح، فلا يكون إيمان بلا عمل، والاعتقاد والإيمان يستلزم العمل.

فمن تحقق بالتوحيد الخالص، وأسلم الوجه لله، وانقاد لأمره وحكمه، وأتىٰ بالعمل؛ فقد أتىٰ بمفتاح الجنة وأسنانها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «لا تدخل الجنة نفس مشركة، وإنما يدخلها أهل التوحيد؛ فإن التوحيد هو مفتاح بابها، فمن لم يكن معه مفتاح لم يُفتح له بابها، وكذلك إن أتىٰ بمفتاح لا أسنان له لم يمكن الفتح به، وأسنان هذا المفتاح هي: الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وبر الوالدين؛ فأي عبد اتخذ في هذه الدار مفتاحًا صالحًا من التوحيد، وركّب فيه أسنانًا من الأوامر؛ جاء يوم القيامة إلىٰ باب الجنة ومعه مفتاحها الذي لا يُفتح إلا به، فلم يعقه عن الفتح عائق، اللهم إلا أن تكون له ذنوب وخطايا وأوزار لم يذهب عنه أثرها في هذه الدار بالتوبة والاستغفار؛ فإنه يُحبس عن الجنة حتىٰ يتطهر منها، وإن لم يطهره الموقف

(١) الوابل الصيّب (ص ٣٠، ٣١).

وأهواله وشدائده، فلا بد من دخول النار ليخرج خبثه فيها، ويتطهر من درنه ووسخه، ثم يخرج منها، فيدخل الجنة؛ فإنها دار الطيبين لا يدخلها إلا طيّب، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ [النحل: ٣٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، فعقّب دخولها علىٰ الطيب بحرف الفاء الذي يؤذن بأنه سبب للدخول؛ أي: بسبب طيبكم قيل لكم: ادخلوها».

وخلاصة القول في المعنىٰ الجامع للإحسان هو ما ذكره شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال[1]: «محسنين: أي: قائمين بطاعة الله علىٰ الوجه الذي يرضاه الله عَزَّوَجَلَّ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

هذا الإحسان في العبادة، أما الإحسان في معاملة الخلق فإنَّ أجمع ما يقال فيه ما قاله النبي ﷺ: «**من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت الناس ما يحب أن يؤتىٰ إليه**»».

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا المعنىٰ الجامع للإحسان[2]: «أشار النبي ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان فقال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك**».

---

(١) تفسير سورة الذاريات (ص١٢٤، ١٢٥).

(٢) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب (١/ ٣٥١).

فأشار إلى مقامين:

أحدهما: أن يعبد الله العبدُ مستحضرًا لرؤية الله إياه، ويستحضر قرب الله منه، واطلاعه عليه؛ فيخلص له العمل، ويجتهد في إتقانه وتحسينه.

والثاني: أن يعبده على مشاهدته إياه بقلبه، فيعامله معاملة حاضر، لا معاملة غائب، وقد وصَّى ﷺ رجلًا أن يصلي صلاة مودع، يعني: يستشعر أنه يصلي صلاة لا يصلي بعدها صلاة أخرى؛ فيحمله ذلك على إتقانها، وتكميلها، وإحسانها».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «مشهد الإحسان: وهو مشهد المراقبة، وهو أن يعبد الله كأنه يراه، وهذا المشهد إنما ينشأ من كمال الإيمان بالله وأسمائه وصفاته حتى كأنه يرى الله سبحانه فوق سمواته مستويًا على عرشه، يتكلم بأمره ونهيه، ويُدَبِّرُ أمر الخليقة، فينزل الأمر من عنده ويصعد إليه، وتُعرض أعمال العباد وأرواحهم عند الموافاة عليه.

فيشهد ذلك كله بقلبه، ويشهدُ أسماءه وصفاته، ويشهد قيومًا حيًّا سميعًا بصيرًا عزيزًا حكيمًا آمرًا ناهيًا، يُحب ويبغض، ويرضى ويغضب، ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو فوق عرشه، لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ولا أقوالهم ولا بواطنهم، بل يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ومشهد الإحسان أصل أعمال القلوب كلها؛ فإنه يوجب الحياء والإجلال

---

(١) رسالة إلى أحد إخوانه (ص٤٤، ٤٥).

والتعظيم والخشية والمحبة والإنابة والتوكل والخضوع لله سبحانه والذل له، ويقطع الوساوس وحديث النفس، ويجمع القلب والهمّ على الله.

فحظ العبد من القُرب من الله على قدر حظِّه من مقام الإحسان، وبحسبه تتفاوت الصلاة حتى يكون بين صلاة الرجلين من الفضل كما بين السماء والأرض، وقيامهما وركوعهما وسجودهما واحد».

والمحسنون حظَّهم من معيَّة الله ورحمته بقدر إحسانهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ۝١٢٨﴾ [النحل: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٦﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «إنَّما اختصّ أهل الإحسان بقرب الرَّحمة منهم، لأنَّها إحسان من الله أرحم الرَّاحمين، وإحسانه تعالى إنَّما يكون لأهل الإحسان، لأنَّ الجزاء من جنس العمل، فكما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته».

وقال ابن القيم(٢): «الإحسان ههنا هو فعل المأمور به، سواء كان إحسانًا إلى النَّاس أو إلى نفسه، فأعظم الإحسان الإيمان والتَّوحيد والإنابة إلى الله والإقبال عليه والتوكُّل عليه، وأن يعبد الله كأنَّه يراه إجلالًا ومهابة وحياءً ومحبَّة وخشية، فهذا هو مقام الإحسان كما قال النبي ﷺ وقد سأله جبريل عن الإحسان».

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٦، ١٧).

(٢)بدائع الفوائد (٣/ ١٧).




البَابُ الخَامِسُ

أشراط السَّاعة






أشراط السَّاعة

قال جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للنَّبيِّ ﷺ: أخبرني عن السَّاعة؟ قال رسول الله ﷺ: «**ما المسئول عنها بأعلم من السَّائل؟**» قال: أخبرني عن أماراتها؟ قال: أن تلد الأَمَة رَبَّتَها، وأن ترىٰ الحفاة العُراة، العَالَة، رِعاءَ الشَّاء، يتطاولون في البنيان.

ومعنىٰ قوله ﷺ: «**أن تلد الأمة ربَّتها**»، وفي رواية: «**ربَّها**»؛ أي: سيدها. يعني: أن الإماء يلدن الملوك.

ومعنىٰ قوله ﷺ: «**أن ترىٰ الحفاة العراة العالة رعاء الشَّاء يتطاولون في البنيان**»: أنَّ أهل البادية وأشباههم من أهل الحاجة والفاقة تُبسط لهم الدُّنيا حتىٰ يتباهوا في البنيان(١).

وأفادنا سؤال جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وجواب النبيِّ ﷺ؛ أنَّ قيام السَّاعة لا يعلمه ملك مُقرَّب ولا نبيٌّ مرسل، وأنَّه مما اختصَّ الله بعلمه، ولم يُطلع عليه أحدًا من خلقه.

وفي السُّؤال والجواب تعليمٌ للنَّاس بأنَّ الغيبيَّات التي استأثر الله بعلمها لا يجوز لأحدٍ أن يقول فيها بغير علم، ويجب علىٰ العالم والمتعلِّم أن يرد

(١) المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج (ص٩٩).

علم ذلك إلى الله، وأن يقول كما قال أعلم الخلق بالله: ما المسئول عنها بأعلم من السائل.

وفي لفظ للبخاري لحديث جبريل من رواية أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال النبيُّ ﷺ: «**في خمس لا يعلمهن إلا الله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسُۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ﴾ [لقمان: ٣٤]»(١).

والخوض في الغيبيَّات قد يكون دهليزًا للكفر، والقولُ على الله بغير عِلْم من أسباب الكُفر والشِّرك، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾**﴾ [الأعراف: ٣٣].

وروى أحمد من حديث رجل من بني عامر؛ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: إنَّ من العلم ما لا يعلمه إلا الله عَزَّوَجَلَّ(٢).

وروى البخاري عن عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا **قال:** قال النبيُّ ﷺ: «**مفاتيح الغيب خمس، ثم قرأ:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾»(٣).

---

(١) رواه البخاري، كتاب التَّفسير، سورة لقمان، باب قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] (ص٨٣٩ – رقم ٤٧٧٧).

(٢) قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: «إسناد صحيح»، تفسير القرآن العظيم (٣/ ٦٦٣).

(٣) رواه البخاري، كتاب التَّفسير، سورة لقمان، باب قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] (ص٨٣٩ – ٤٧٧٨).

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: من ادَّعىٰ علم هذه الخمسة؛ فقد كذب، وإيَّاكم والكهانة؛ فإنَّ الكهانة تدعو إلىٰ الشِّرك، والشِّرك وأهله في النَّار.

وقال الزَّجاج[١]: من ادَّعىٰ أنَّه يعلم شيئًا من هذه فقد كفر بالقرآن؛ لأنَّه خالفه[٢].

والشَّمس التي جعل الله عَزَّوَجَلَّ طلوعها من المغرب علامةً لقيام الساعة، لا تدري متىٰ تقوم السَّاعة؛ لأنها مربوبة لله عَزَّوَجَلَّ الواحد القهَّار، وهذا ممَّا لم يُطْلع الله علىٰ غيبه أحدًا من خلقه.

ففي الصَّحيحين من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال**: كنت مع رسول الله ﷺ في المسجد عند غروب الشَّمس، فقال: «**يا أبا ذرٍّ! أتدري أين تذهب الشَّمس؟**»، فقلت: الله ورسوله أعلم؛ فقال: «**تذهب تسجد تحت العرش فتستأذن فيُؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يُقبل منها، وتستأذن فلا يُؤْذن لها، فيقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها؛ فذلك قوله** عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس: ٣٨].

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «كلُّ من ادَّعىٰ عِلْم السَّاعة فهو كافر؛ لأنَّه مُكذِّب لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ورسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وإجماع المسلمين، والمسلمون مجمعون إجماعًا قطعيًّا علىٰ أنَّه لا يعلم

---

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٦/ ٧٠).

(٢) أي خالفه تكذيبًا.

(٣) تفسير سورة لقمان (ص٢٠٢).

متىٰ تقوم السَّاعة إلا الله عَزَّوَجَلَّ».

وإخبار النبيِّ ﷺ عن أشراط السَّاعة من دلائل نبوَّته؛ فإنَّها وقعت كما أخبر.

وأشراط الساعة مذاكرتها إيمان بالله عَزَّوَجَلَّ وتصديق برسوله ﷺ، وإيمان باليوم الآخر، وهو من أسباب العمل للدار الآخرة.

وكان النبيُّ ﷺ والصَّحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ يتذاكرون أشراط السَّاعة؛ عن حذيفة بن أسيد الغفاري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: اطَّلَعَ النبيُّ ﷺ ونحن نتذاكر، فقال: «**ما تذكرون؟**» قالوا: نَذْكُرُ السَّاعة؛ قال: «**إنَّها لن تقوم حتىٰ تروا قبلها عشر آيات**»، فَذَكَرَ الدُّخَان والدَّجَّالَ والدَّابَّة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسىٰ ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تَطْرُدُ النَّاس إلىٰ محشرهم. رواه مسلم.

والعلم بأشراط السَّاعة والإيمان بها هو من الإيمان باليوم الآخر؛ فالمؤمنون بالله يعملون لليوم الآخر لإيمانهم به، ولاعتقادهم بأنَّهم سيحاسبون بما عملوه في الدُّنيا، والكُفَّار في غفلة عن ذكر الآخرة، والتفقُّه والعمل لليوم الآخر، غرَّتهم الحياة الدُّنيا وفنوا بمتاعها عن العمل لها، والدَّهريُّون من الكفَّار قالوا: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

قال تعالىٰ: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٨].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٨]، أي: فكيف للكافرين بالتذكُّر إذا جاءتهم القيامة، حيث لا ينفعهم ذلك؟!

كقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣]، ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥٢]».

والسَّاعة قريبة، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

والنبيُّ ﷺ أخبر عن علامات السَّاعة الكبرىٰ بما يدلُّ علىٰ قربها، حيث قال: «**يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا قسطًا**»، وهذا قُرب نسبي، والله أعلم.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ [النبأ: ١٧].

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «هو يوم القيامة، سُمِّي يوم فصل؛ لأنَّ الله يفصل فيه بين العباد».

وقال العلامة محمد العثيمين[3]: «﴿كَانَ مِيقَٰتًا﴾ يعني: موقوتًا لأجل معدود، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤]، وما ظنُّك بشيء له أجل معدود، وأنت ترىٰ الأجل كيف يذهب سريعًا يومًا بعد يوم حتىٰ ينتهي الإنسان إلىٰ آخر مرحلة، فكذلك الدُّنيا كلها تسير يومًا بعد يوم حتىٰ تنتهي إلىٰ آخر مرحلة».

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٧٩).

(٢، ٣) تفسير جزء عمّ (ص٢٩).

وبعثة النبيِّ ﷺ من علامات السَّاعة، ودليل على قربها؛ عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**بُعثت أنا والسَّاعة كهاتين**. وأشار بالسَّبَّابَةِ والوُسْطَىٰ»، متفق عليه.

وروىٰ التِّرمذي من حديث المستورد بِن شدَّاد الفهري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ: «**بُعثت في نَفَسِ السَّاعَةِ، فَسَبَقْتُها كما سبقت هذه هذه**»، لأصبعَيْه السَّبَّابَةِ والوُسْطَىٰ.

قال التِّرمذي: هذا حديث غريب[١].

قال ابن الأثير الجزري: أي: بُعثت وقد حان قيامها وقرُبَ، إلَّا أنَّ الله أخَّرها قليلًا[٢].

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قال**: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، وقال: «**كن في الدُّنيا كأنَّك غريب أو عابر سبيل**»، وكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصَّباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء. رواه البخاري.

قال العلَّامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «كل أحوال الغريب وعابر السَّبيل في الدُّنيا مستحبَّة أن تكون للمؤمن؛ لأن الدُّنيا ليست وطنًا له».

وأشراط السَّاعة نوعان: صغرىٰ وكبرىٰ، وغالب أشراط السَّاعة قد ظهر، ولم يبقَ من الصُّغرىٰ إلا يسير وقليل جدًّا مما لم يظهر.

---

(١) في إسناده مجالد بن سعيد، وليس بالقوي.

(٢) قوت المغتذي على جامع الترمذي (٢/ ٧٠٢).

(٣) الإفصاح عن معاني الصِّحاح (٤/ ٢٤٧).

والمسلم يستعد لحساب اليوم الآخر، ويأخذ بأسباب موافاة الله برضاه، سواء ظهرت علامات الساعة أو بقي منها شيء لم يظهر؛ لأنَّ الإنسان إذا مات - وهذا لا يعلم أجله إلا الله -؛ قامت قيامته الصغرىٰ، وانقطع عن العمل، وصار في برزخه يُنَعَّم أو يُعَذَّب بحسب عمله الذي يُجزىٰ به.

والله عَزَّوَجَلَّ وعظنا بالعمل ليوم الحساب، وقرَّب الساعة كأنَّها غد؛ قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أمر بتقواه، وهي تشمل فعل ما أمر به، وترك ما عنه زجر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾، أي: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادَّخرتم لأنفسكم من الأعمال الصَّالحة، ليوم معادكم وعرضكم علىٰ ربكم، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ تأكيد ثانٍ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم، لا تخفىٰ عليه منكم خافية، ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير».

وقال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «عبَّر عن الآخرة بالغد، تنزيلًا للآخرة والدُّنيا علىٰ أنَّهما نهاران: يوم وغد».

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥١٧).

(٢) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٨/ ٧٢).

وقال الحافظ الرسعني[١]: «جعله في القُرب بمنزلة الغد؛ تهييجًا لدواعي العباد علىٰ الاستعداد له والعمل لأجله».

وورد هذا المعنىٰ في السنَّة من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**الجنَّة أقرب إلىٰ أحدكم من شراك نَعْلِهِ، والنَّار مثل ذلك**»، رواه البخاري.

وقيام السَّاعة يكون عند خلو الأرض من سبب خلقها، فالله عَزَّ وَجَلَّ خلقنا لعبادته، فإذا اندرست علوم الوحي وتعطَّلت الأرض من عبادة الله؛ أقام الله سبحانه السَّاعة.

عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة إلا علىٰ شرار الخلق**»، رواه مسلم.

وأشراط السَّاعة بعض مروياتها ضعيفة، لا يصح الاعتماد عليها، فضلًا عن أن يتم تحزيب الأمَّة للقتال بسببها، من ذلك حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**تخرج من خراسان رايات سود، لا يردها شيء حتىٰ تنصب بإيلياء**»، رواه الترمذي، وفي إسناده رشدين بن سعد وهو ضعيف.

وبعض نصوص أشراط السَّاعة وُضعت في غير مواضعها، فكانت سببًا في تسلُّط الكُفَّار علىٰ ديار المسلمين واحتلالها، من ذلك حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبيِّ ﷺ في فتنة الدهيماء: «**حتىٰ يصير الناس إلىٰ فُسْطَاطَيْن؛**

---

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٨/ ٧٢).

فُسْطَاط إيمان لا نفاق فيه، وفُسْطاطِ نفاق لا إيمان فيه، فإذا كان ذاكم فانتظروا الدَّجَّالَ من يَوْمِهِ أو مِنْ غدِهِ»، رواه أبو داود.

ولا ريب أنَّ فسطاط الدَّولة الخمينيَّة الخامنئية وحرسه الثَّوري فسطاط ضلالة وتكفير للصَّحابة.

وفتنة الدُّهيماء يخرج في يومها الدَّجَّال، وهذا لم يقع.

ومن أشراط السَّاعة أن يُرفع العلم، رواه الشَّيخان من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وارتفاع العلم ارتفاع الخير وعبودية الله وتوحيده، فهما متلازمان؛ قال النبيُّ ﷺ: «**مَن يُرِدِ الله به خيرًا يفقِّهه في الدِّين**»، متفق عليه من حديث معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والعلم يُرفع ويُقبض بالإعراض عن حفظه ومدارسته والتفقُّه فيه، وبالاشتغال بالبدع عن السُّنن، وبضلال المتكلِّمين عن علم الكتاب والسنَّة.

ففي الصَّحيحين من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **قال:** سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ الله لا يقبض العلم انتزاعًا، ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتىٰ إذا لم يُبْقِ عالمًا؛ اتَّخذ النَّاس رءوسًا جُهَّالًا، فسُئلوا فأفتوا بغير علم؛ فضلُّوا وأضَلُّوا**».

قال الحافظ ابن الملقن رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «معنىٰ: «**إنَّ الله لا يقبض العلم انتزاعًا**»: أنَّ الله لا يهب العلم لخلقه ثم ينتزعه بعد تفضُّله عليهم، ولا يسترجع ما وهب

(١) التوضيح لشرح الجامع الصَّحيح (٣/ ٤٩٥).

لهم من العلم المؤدِّي إلىٰ معرفته والإيمان به وبرسله، وإنَّما يكون انتزاعه بتضييعهم العلم؛ فلا يوجد من يخلف من مضىٰ، فأنذر ﷺ بقبض الخير كله.

قال الداودي: فالحديث خرج مخرج العموم، والمراد به الخصوص؛ كقوله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أَمَّتي ظاهرين علىٰ الحقِّ حتىٰ يأتي أمر الله**»».

والدِّين والعلم قد تكفَّل الله بحفظه، وما تكفَّل الله بحفظه فلن يضيع، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقد أخبرنا الله باصطفائه للطائفة المنصورة إلىٰ قيام الساعة، ومن أوجب ما ينصرها الله به هو حفظ علم الشَّريعة؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «**لا تزال طائفة من أَمَّتي ظاهرين علىٰ الحق، لا يضرُّهم من خالفهم ولا من خذلهم حتىٰ يأتي أمر الله**»، رواه البخاري ومسلم.

وعن شداد بن مَعْقل، قال: قال عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إنَّ أوَّل ما تفقدون من دينكم الأمانة، وآخر ما تفقدون منه الصلاة، وسيصلِّي قوم لا دين لهم، وإنَّ هذا القرآن الذي بين أظهركم يوشك أن يُرْفَعَ».

قال: قلت: يا أبا عبد الرحمن! وكيف ذاك، وقد أثبته الله جَلَّ وعَزَّ في قلوبنا، وأثبتناه في مصاحفنا؟

قال: «يُسْرىٰ عليه في ليلة واحدة، فلا يُتْرك منه في صدر رجل، ولا في مصحف»، ثم قرأ: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦]، رواه عبد الرزاق والحاكم وصححه.

والذي يظهر أنَّ هذا يكون حين تصير الأمَّة إلىٰ ما صارت إليه اليهود

والنصارىٰ من تحريف ألفاظ ومعاني الوحي، فذلك الموجب لرفع علم الوحي حيث ذهب الانتفاع به؛ لأنَّهم ردُّوا وحي الله فرفعه عنهم، والله أعلم.

عن أبي الدَّرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**هذا أوان قبض العلم**»، فقال زياد بن لبيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: يا رسول الله! كيف يُقبض وقد قرأنا القرآن، فوالله لنقرأنَّه ولنُقرئنَّه أبناءنا ونساءنا!

فقال النبيُّ ﷺ: «**إن كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة، أوليست التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارىٰ، فما أغنت عنهم؟!**»، رواه الدارمي والترمذي وقال: حديث حسن غريب.

قال العلامة أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «كان السبب في ذلك أنّ اليهود لما بدَّلوا وخالفوا شريعة التوراة نسخ الله تعالىٰ التوراة من صدورهم».

ومن علامات الساعة تقارب الزمان؛ كما جاء في البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**يتقارب الزَّمان، وينقص العمل، ويُلقىٰ الشُّحُّ، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج**».

وتقارب الزَّمان حسِّي، يدلُّ عليه قول النبيِّ ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتىٰ يتقارب الزَّمان؛ فتكون السنة كالشَّهر، والشَّهر كالجمعة، والجمعة كاليوم، ويكون اليوم كالسَّاعة، وتكون السَّاعة كاحتراق السَّعفة**»، رواه أحمد من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، والتِّرمذي من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٠٢).

وتقارب الزَّمان فسَّره بعض العلماء تفسيرًا معنويًّا بقلَّة بركته، قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «الذي تضمَّنه الحديث قد وُجد في زماننا هذا؛ فإنَّا نجد من سرعة مرِّ الأيَّام ما لم نكن نجده في العصر الذي قبل عصرنا، وإن لم يكن هناك عيش مستلذ، والحقُّ أنَّ المراد نزع البركة من كل شيء حتى الزَّمان، وذلك من علامات قُرب السَّاعة».

وقال العلَّامة ابن أبي جمرة الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «يحتمل أن يكون المراد بتقارب الزَّمان قصره على ما وقع في حديث: «**لا تقوم الساعة حتى تكون السنة كالشَّهر**»، وعلى هذا فالقصر يحتمل أن يكون حسيًّا، ويحتمل أن يكون معنويًّا؛ أمَّا الحسِّي فلم يظهر بعد، ولعلَّه من الأمور التي تكون قرب قيام السَّاعة.

وأما المعنوي فله مدَّة، منذ ظهر يعرف ذلك أهل العلم الدِّيني، ومن له فطنة من أهل السبب الدُّنيويِّ؛ فإنَّهم يجدون أنفسهم لا يقدر أحدهم أن يبلغ من العمل قدر ما كانوا يعملونه قبل ذلك».

ومن أشراط الساعة التواصي بسوء الأخلاق؛ عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**يتقارب الزَّمان، وَيَنْقُصُ العمل، ويُلْقى الشُّحُّ، وتظهر الْفِتَنُ، ويَكْثُرُ الهرج**»، قالوا: يا رسول الله! أَيُّمَ هو؟ قال: **الْقَتْلُ الْقَتْلُ**»، رواه البخاري.

قال العلَّامة أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عمر القرشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(١، ٢) فتح الباري (١٣/ ٢٢).

(ت: ٨٢٧هـ)[١]: «**«ويلقىٰ الشُّحُّ»**، قال الحميدي: لم يضبط الرواة هذا الحرف، ويحتمل أن يكون يُلَقَّىٰ: بتشديد القاف، بمعنىٰ: يُتَلَقَّىٰ ويُعَلَّم، ويُتواصىٰ به، ويُدْعىٰ إليه، من قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠]، أي: ما يُعَلَّمُها ويُنَبَّه عليها.

ولو قيل: يُلْقَىٰ - بتخفيف القاف -، لكان أبعدَ؛ لأنَّه لو أُلْقي، لَتُرِكَ، ولم يكن موجودًا.

قلت: هذا غير لازم؛ إذ يمكن أن يكون المراد: ويُلْقىٰ الشحُّ في القلوب؛ أي: يُطْرَحُ فيها، فيكون الشحُّ حينئذ موجودًا لا معدومًا».

ومما أخبرنا به النبيُّ ﷺ مما يكون؛ قبض الأمانة من القلوب، وهذا قبض للأساس الذي يُبنىٰ عليه الدِّين، قال النبيُّ ﷺ: «**لا إيمان لمن لا أمانة له**»، رواه أحمد وصحَّحه العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وهذا القبض قد يكون عقوبة للرَّغبة عنها؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ فطر خلقه علىٰ فطرة الإسلام، ولا يسلبهم أسباب الإسلام إلا عقوبة لهم لرغبتهم عنه، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: ٥].

عن حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال**: حدَّثنا رسول الله ﷺ حديثين، قد رأيت أحدهما، وأنا أنتظر الآخر؛ حدَّثنا أنَّ الأمانة نزلت في جذر قلوب الرِّجال، ثم نزل القرآن؛ فعلموا من القرآن وعلموا من السُّنَّة، ثم حَدَّثنا عن رفع الأمانة،

---

(١) مصابيح الجامع (١٠/ ٨١، ٨٢).

قال: «**ينام الرَّجل النَّوْمة، فتُقبض الأمانة من قلبه**»، رواه البخاري ومسلم.

قال العلَّامة ابن هبيرة الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «يعني ﷺ أنَّ الرجل إذا كان يؤدِّي الأمانة رعاية لشخص، فمات ذلك الشَّخص أو ذهب ما بينه وبينه، فينام النَّومة فتُقبض الأمانة من قلبه؛ لانقطاع سببها».

ومن أدرك النَّاس وقد ضعف دينهم وساءت أخلاقهم؛ فعليه بخاصَّة نفسه، وخلطتهم فيما لابُدَّ منه؛ كإقامة الجمع والجماعة.

قال النبيُّ ﷺ لعبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**كيف بك يا عبد الله! إذا كنت في حثالة من النَّاس قد مرجت عهودهم وأماناتهم واختلفوا، فصاروا هكذا** - وشبَّك بين أصابعه -؟» قال عبد الله: فماذا تأمرني يا رسول الله؟ قال: «**عليك بخاصَّة نفسك، ودع عنك عوامهم**»، ذكره البخاري تعليقًا مجزومًا به، وصححه ابن حبَّان.

ومن أشراط السَّاعة تناقص الخير وزيادة الشرِّ، والنَّقص والزِّيادة نسبية باعتبار القرن الأول، عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ قال: «**إنَّه لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شَرٌّ منه**». رواه البخاري.

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**يتقارب الزَّمان، وينقص العمل**»، رواه البخاري.

وعن مرْداس الأسلمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال النبيُّ ﷺ: «**يذهب الصَّالحون**

---

(١) الإفصاح عن معاني الصِّحاح (٢/ ٢١٣).

الأَوَّل فالأَوَّل، ويبقىٰ حُفالة كحفالة الشَّعير أو التَّمْر، لا يباليهم الله بَالَةً»، رواه البخاري، وقال: يُقال: حُفَالَةٌ، وَحُثَالَةٌ.

قال العلَّامة أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عمر القرشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «**«وتبقىٰ حفالة»**: أي: رُذَالَةٌ، وهي بضم الحاء وبالفاء، ويقال أيضًا: «حثالة» - بمثلثة -؛ كأنَّ الفاء والثَّاء تعاقبا، مثل: ثوم، وفوم، وجَدَث وجَدَف».

وعن حذيفة بن اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم السَّاعة حتىٰ يكون أَسْعَدَ النَّاس بالدُّنْيا لُكَعُ بْنُ لُكَع**»، رواه التِّرمذي وحسَّنه.

قال السُّيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: « «**لُكَعُ بنُ لُكَعٍ**»: هو اللئيم، وقيل: الوسخ».

ومن أشراط السَّاعة شدَّة البلاء وكثرته، وهذا قد يكون في بعض النواحي وفي بعض الأوقات، وقد يظهر فترة بعد فترة؛ فالدُّنيا دار ابتلاء، والله يبتلي عباده بالسرَّاء والضرَّاء؛ ليتمحَّص المؤمنون.

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم السَّاعةُ حتىٰ يَمُرَّ الرَّجل بقبر الرَّجل، فيقول: يا ليتني مكانه!**»، رواه البخاري ومسلم.

وفي رواية لمسلم قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده! لا تذهب الدُّنيا حتىٰ يمرَّ الرَّجل علىٰ القبر فيتمرَّغ عليه، ويقول: يا ليتني كنت مكان صاحب هذا القبر، وليس به الدِّين إلا البلاء**».

---

(١) مصابيح الجامع (٩/ ٤١٩).

(٢) قوت المغتذي علىٰ جامع الترمذي (٢/ ٧٠٠).

قال العلَّامة أبو العبَّاس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «كأنَّ هذا إشارة إلىٰ أنَّ كثرة الفتن والمشقات والأنكاد قد أذهبت الدِّين من أكثر النَّاس، أو قلَّلت الاعتناء به من الذي يتمسَّك بالدِّين عند هجوم الفتن».

وقد كان النبيُّ ﷺ يتعوَّذ بالله من جهد البلاء، فنحن أولىٰ بالتعوُّذ منه، وكان من دعائه: «**اجعل الحياة زيادة لي في كل خير**»، رواه مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ فتمنِّي الموت من كثرة الفتن يجب فهمه في ضوء قول النبيِّ ﷺ: «**لا يزيد المؤمن عمره إلا خيرًا**»، رواه أحمد من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقول النبيِّ ﷺ: «**خيركم من طال عمره وحسن عمله**».

قال العلَّامة الشَّوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «طول العمر مع سلامة الحواس وصحَّة الإدراك، فذلك ممَّا ينبغي الدُّعاء به؛ لأنَّ بقاء المؤمن متمتِّعًا بحواسه قائمًا بما يجب عليه متجنِّبًا لما لا يحل له، فيه حصول الثَّواب وزيادة الخير».

علىٰ كلِّ حال ما يقع من الشُّرور في بعض النَّواحي لا يذهب بالإسلام، قال النَّبيُّ ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح**»، وقال ﷺ: «**يأرز الإيمان إلىٰ المدينة كما تأرز الحية إلىٰ جحرها**»، رواه مسلم؛ فالإسلام باقٍ، والمسلم هو الذي يقيم إسلامه بإقامة شرائع الإسلام.

---

(١) المفهم (٧/ ٢٤٥).

(٢) تحفة الذاكرين (ص٢٧٨).

والفتن يقعُ فيها من تعرَّض لأسبابها، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ستكون فتن، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من السَّاعي، من تشرَّف لها تستشرفه**».

قال العلَّامة أبو العبَّاس القرطبي رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «قوله: «**من تشرَّف إليها تستشرفه**»؛ أي: من تعاطاها، أو تشوَّف إليها؛ صرعته وأهلكته».

والنَّبيُّ ﷺ بُعث في خير القرون، وأخبر عن الفتن في عصره، عن كثرتها وشدَّتها وخطرها، وأخبر كذلك عمَّا يقابلها من كثرة الخير، وأمر بالاستعانة بالصلاة لدفع الشرور؛ ففي الصحيحين من حديث أم سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: استيقظ رسول الله ﷺ ليلة فزعًا، يقول: «**سبحان الله! ماذا أنزل الله من الخزائن، وماذا أنزل من الفتن؟ من يوقظ صواحب الحُجُرات** - يريد أزواجه - **لِكيْ يُصلِّين؟**».

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ١٥٣].

والنبيُّ ﷺ حذَّر أمَّته شرور المسيح الدجَّال، وقال: «**إن يظهر وأنا فيكم فأنا حجيجه، وإن يظهر ولست فيكم فالله خليفتي في كل مسلم**»، رواه مسلم؛ فهذا يدلُّ علىٰ أن الاعتصام بالله أوثق عرىٰ النَّجاة من الفتن، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

---

(١) المفهم (٧/ ٢١١).

وبعض الأحاديث المرويَّة في الفتن وأشراط السَّاعة من ذكر تغيُّر أحوال النَّاس، وضعف الدِّين؛ لا تغفل عن فهمها بما هو ضرورة من سنَّة الله بدفع الفساد وإصلاحه بالطَّائفة المنصورة التي تقوم بالدِّين علمًا وعملًا ودعوة وجهادًا، قال النبيُّ ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمَّتي ظاهرين علىٰ الحقِّ، لا يضرُّهم من خالفهم ولا من خذلهم حتىٰ يأتي أمر الله**»، رواه البخاري ومسلم. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

والنبيُّ ﷺ حذَّر من شرور ما يظهر من بعض علامات السَّاعة، ونصح الأمَّة بالطمأنينة في مواجهتها بالاعتصام بالله، فقد رأىٰ ما أصاب الصَّحابة من الخوف من شرِّ الدجَّال، فقال: «**هو أهون علىٰ الله من ذلك**»، رواه مسلم.

وقال النبيُّ ﷺ: «**من حفظ عشر آيات من أوَّل سورة الكهف؛ عُصم من فتنة الدَّجَّال**»، رواه مسلم.

وقد ذكر النبيُّ ﷺ ما يعصم من شرور الفتن، ليأخذ المسلم بأسباب حفظ دينه؛ عن معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**العبادة في الهرج كهجرةٍ إليَّ**»[١].

فإذا كانت الهجرة إلىٰ رسول الله ﷺ فرارًا بالدِّين إلىٰ الله، ففي ذلك حثٌّ علىٰ الانحياز إلىٰ جماعة المسلمين، والالتجاء إلىٰ الله بعبوديَّته؛ فإنَّها

---

(١) رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط السَّاعة، باب فضل العبادة في الهرج (ص١٢٧٩، رقم ٧٤٠٠).

تزيد في الإيمان والهدىٰ وتُضعف دواعي الشرِّ، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**بادروا بالأعمال سِتًّا: طلوع الشمس من مغربها، أو الدُّخان، أو الدجَّال، أو الدَّابَّة، أو خاصة أحدكم أو أمر العامَّة**»، رواه مسلم.

ومن علامات السَّاعة اتِّباع الأهواء وافتراق الكلمة، وتضييع أسباب النصر من الاعتصام بحبل الله وإقامة شرعه ولزوم أمره؛ فتعلو كلمة الكافرين، ويصير المسلمون في ضعف، ويتسلَّط عليهم الأعداء.

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**مَنَعتِ العراقُ دِرْهَمَها وقفيزها، ومنعت الشَّام مُدْيَها ودينارها، ومنعت مِصْرُ إرْدَبَّها ودينارها، وعُدْتم من حيث بدأتم**»، رواه مسلم.

قال العلَّامة أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت: ٦٥٦هـ)[1]: «هذا منه إخبار بأنَّ أمور الدِّين وقواعده يُترك العمل بها؛ لضعف القائم بها، أو لكثرة الفتن واشتغال النَّاس بها، وتفاقم أمر المسلمين؛ فلا يكون من يأخذ الزَّكاة، ولا الجزية ممَّن وجبت عليه؛ فيمتنع من وجب عليه حقٌّ من أدائه، والله تعالىٰ أعلم.

وقوله: «**وعُدتم من حيث بدأتم**»، أي: رجعتم علىٰ الحالة الأولىٰ التي

---

(١) المفهم (٧/ ٢٣٠).

كنتم عليها من فساد الأمر، وافتراق الكلمة، وغلبة الأهواء، وذهاب الدِّين».

ومن تأمَّل أحوال المسلمين في عصرنا؛ رأىٰ أنَّ سبب تسلُّط الكافرين عليهم يرجع إلىٰ افتراق كلمتهم وضعف أخذهم بدينهم وابتداعهم فيه، وضعف أخذهم بأسباب القوَّة المادِّيَّة في صناعة آلة الحرب.

فالأُمَّة الإسلاميَّة التي نُصرت بالرُّعب مسيرة شهر؛ نزع الله مهابتها من قلوب أعدائها، وتداعىٰ الكُفَّار لغزو ديارها.

ومن علامات السَّاعة أن يكون الرُّوم أكثر النَّاس، وهذا بقضاء الله وقدره، والذي من جملة أسبابه حسن تدبير الرُّوم لأمور معاشهم وقتالهم، ورعايتهم للضُّعفاء، وإحسانهم للمحتاجين.

قال المستورد القرشيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تقوم السَّاعة والرُّوم أكثر النَّاس**»، فقال له عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أبصر ما تقول! قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ.

قال عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لئن قلت ذلك، إنَّ فيهم لخصالًا أربعًا: إنَّهم لأَحْلَمُ النَّاس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرَّة بعد فرَّةٍ، وخَيْرُهُم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك»، رواه مسلم.

قال العلامة أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «هذا الحديث

---

(١) المُفهم (٧/ ٢٣٦).

قد صدَّقه الوجود؛ فإنَّهم اليومَ أكثر من في العالم غيرَ يأجوج ومأجوج، إذ قد عمروا من الشَّام إلىٰ أقصىٰ منقطع أرض الأندلس، وقد اتَّسع دين النَّصارىٰ اتِّسَاعًا عظيمًا لم تتسعه أمَّة من الأمم، وكلُّ ذلك بقضاء الله تعالىٰ وقدره.

ووصفُ عبدِ الله بن عمرو لهم بما وصَفَهم به من تلك الأوصاف الجميلة إنَّما كانت غالبةً علىٰ الرُّوم الذين أدرك هو زمانهم، وأما ما في الوجود منهم اليوم؛ فهم أنجس الخليقة، وأركسُهم، وهم موصوفون بنقيض تلك الأوصاف».

ومن علامات السَّاعة تكلُّم الدَّوابِّ والسِّباع، أو تكلُّمها بما يفهمه الإنس؛ لأنَّ المخلوقات الأخرىٰ تتكلَّم ولها منطق لا نفقهه، ولا يعلمه إلا من علَّمه الله منطقها، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

والله عَزَّوَجَلَّ خاطب السَّموات والأرضين بما تعقله، وهو عليم بكلامها ومنطقها، قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

وقد أفهم الله خواصَّ خلقه كنبيِّ الله سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ منطقَ الطَّير، قال سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦].

وقد أفهم الله بعض خلقه كلام الدَّواب والسِّباع علىٰ خلاف المعهود، فكلَّمت في عهد النبي ﷺ بعضَ القوم بما فهموه من معهود خطابهم.

روىٰ أبو داود الطَّيالسي بإسناد صحيح عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن

النبيِّ ﷺ قال: «**بينما رجل يرعىٰ غنمًا له، إذ جاء ذئب فأخذ شاةً، فجاء صاحبها فانتزعها منه، فقال الذِّئْبُ: كيف تصنع بها يَوْمَ السَّبُعِ؟! يوم لا رَاعِيَ لها غَيْري**»

قال رسول الله ﷺ: «**فآمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر**».

قال الحافظ السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قيل: أراد من لها عند الفتن، حين يترُكها النَّاس هَمَلًا لا راعي لها، نُهبة الذِّئاب والسِّباع، فجَعَل السبُع لها راعيًا؛ إذ هو منفرد بها، ويكون حينئذ بضم الباء - السَّبُع -، وهذا إنذار بما يكون من الشدائد والفتن التي يُهمل النَّاس فيها مواشيهم، فيستمكن منها السِّباع بلا مانع».

ومن أشراط السَّاعة كثرة بالفواحش، وواجب المسلمين الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والنَّصيحة للمسلمين، لأئمَّتهم وعامَّتهم، والتَّواصي بالحقِّ والصَّبر.

عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** ألَّا أُحدِّثكم حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ، لا يُحدِّثكم أحد بعدي سمعه منه: «**إنَّ من أشراط السَّاعة أن يُرفع العلم، ويظهر الجهل، ويفشو الزِّنىٰ، ويُشرب الخمر، ويذهب الرِّجال، وتبقىٰ النِّساء، حتىٰ يكون لخمسين امرأة قَيِّمٌ واحد**»، متَّفق عليه، واللفظ لمسلم.

قال الحافظ النَّووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «معنىٰ تُشرب الخمر: شربًا فاشيًا،

---

(١) قوت المغْتذي علىٰ جامع الترمذي (٣/ ١٢٣٤، ١٢٣٥).

(٢) المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج (ص١٨٨٨).

ويظهر الزِّنى؛ أي: يفشو وينتشر».

وقال النَّووي[١]: «يقل الرِّجال بسبب القتل، وتكثر النِّساء؛ فلهذا يكثر الجهل والفساد، ويظهر الزِّنا والخمر، ويتقارب الزَّمان؛ أي: يقرب من القيامة».

وقد يقلُّ الرِّجال لكثرة ولادة الإناث، وليس بالضَّرورة بسبب قتل الرِّجال في الحروب.

وغفلة النَّاس عن الآخرة بمتاع الدُّنيا وزينتها هو من أعجب الأمور، ونحن نتدارس أشراط وعلامات السَّاعة؛ فالنَّاس في هذه الدُّنيا مشغولون بجمع الذَّهب والفضة وأنواع المال، وفي أيَّام كشف الدُّنيا عن كنوزها يفترق النَّاس في إقبالهم عليها، بحسب إيمانهم وسخاوة نفوسهم، وخوفهم من شرِّ فتنته، وقناعتهم، أو حرصهم وشرههم ورغبتهم في المال.

ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**يُوشك الفرات أن يَحْسِرَ عن كنز من ذهب، فمن حضر فلا يأخذ منه شيئًا**»، وفي رواية لمسلم: «**فيقتتل النَّاس عليه، فيُقْتل من مائة تسعون**»، أو قال: «**تسعة وتسعون، كُلٌّ يرىٰ أنه ينجو**».

قال العلامة أبو العبَّاس أحمد بن عمر القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «وكأنَّ هذا إنَّما يكون إذا أخذت الأرضُ تقيء ما في جوفها».

(١) المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج (ص١٨٨٨).

(٢) المُفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/ ٢٢٨، ٢٢٩).

وقال العلَّامة أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قوله: «**فمن حضره فلا يأخذ منه شيئًا**»، نهي على أصله من التَّحريم؛ لأنَّه ليس ملكًا لأحد، وليس بمعدن ولا ركاز، فحقُّه أن يكون في بيت المال، ولأنَّه لا يُوصَل إليه إلا بقتل النُّفوس، فيحرم الإقدام على أخذه».

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**تقيء الأرض أفلاذَ كَبِدِهَا أمثال الأُسْطوان من الذهب والفضَّة، فيجيء القاتل، فيقول: في هذا قَتَلْتُ. ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي. ويجيء السَّارِقُ، فيقول: في هذا قُطِعَتْ يَدِي. ثُمَّ يَدَعُونَهُ، فلا يأخذون منه شيئًا**».

قال الحافظ الفقيه المحدِّث الحسين بن مسعود البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «قوله: «**أفلاذ كَبِدِها**»، أراد أنَّها تخرج الكنوز المدفونة فيها؛ كما قال جل ذكره: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢]».

ومن أشراط السَّاعة التي ذكرها النبي ﷺ ليحذرها النَّاس؛ كثرةُ القتل، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم السَّاعة حتىٰ يكثر الهَرْج**»، قالوا: وما الهرج يا رسول الله؟! قال: «**القتل! القتل!**»، رواه مسلم.

وسبب كثرة القتل يكون من عدم المبالاة بهذا الذنب العظيم، فقد روىٰ مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده! لا تذهب الدُّنيا حتىٰ يأتي علىٰ الناس يوم لا يدري**

---

(١) المُفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/ ٢٢٩).

(٢) شرح السنَّة (١٥/ ٣٥).

القاتل فيما قَتَل، ولا المقتول فيما قُتِل».

قال العلَّامة أبو العبَّاس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «يعني بذلك: أنَّ الأهواء تغلبُ، والهَرْجَ والقتل يكثر ويُستسهل، حتىٰ لا يُبالىٰ به، فيكون قتلُ المسلم عند قاتله كقتل نملة؛ كما هو الحال الآن في أقصىٰ المغرب».

ومن علامات السَّاعة ظهور نار عظيمة بالحجاز تضيء لها أعناق الإبل بالشَّام، فقد روىٰ البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم السَّاعة حتىٰ تخرج نارٌ من أرض الحجاز، تُضِيءُ أعناق الإبل بِبُصْرَىٰ**».

قال الحافظ النَّووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «بُصرىٰ: بضم الباء: مدينة معروفة بالشَّام، وهي مدينة حوران، بينها وبين دمشق نحو ثلاث مراحل».

وهذه العلامة قد وقعت في القرن السابع، وليست هي نار المحشر كما قال أبو العباس القرطبي، حيث ذكر أنَّ النَّار الخارجة من قعر عدن تمرُّ بأرض الحجاز مقبلةً إلىٰ الشَّام، فإذا قاربت الشَّام أضاءت ما بينها وبين بصرىٰ حتىٰ تُرىٰ بسبب ضوئها أعناق الإبل[٣]، كذا قال.

وقال الحافظ النَّووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٤]: «تواتر العلم بخروج هذه النَّار عند

---

(١) المفهم (٧/ ٢١٥).

(٢) المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج (ص٢٠٠٦).

(٣) المفهم (٧/ ٢٤٢).

(٤) فتح الباري (١٣/ ٩٩).

جميع أهل الشَّام».

وقال العلَّامة أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «قد خرجت نار بالحجاز بالمدينة، وكان بدؤها زلزلة عظيمة في ليلة الأربعاء بعد العتمة، الثالث من جمادىٰ الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة، واستمرت إلىٰ ضحىٰ النَّهار يوم الجمعة فسكنت».

ومن أشراط السَّاعة ظهور المسلمين علىٰ اليهود، وإعانة الحجر والشَّجر للمسلمين بتسخير الله، فقد روىٰ مسلم في «صحيحه» من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم السَّاعة حتىٰ يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتىٰ يختبئ اليهوديُّ من وراء الحجر والشَّجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهودي خلفي، فتعال فاقْتُله؛ إلا الغَرْقد فإنَّه من شجر اليهود**».

قال العلَّامة أبو العبَّاس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): «هذا إنَّما يكون - والله أعلم - بعد قتل الدَّجَّال؛ فإنَّ اليهود هم أكثرُ أتباعه».

ومتىٰ أخذ المسلمون بأسباب القدرة وأسباب النصر؛ وجب عليهم جهاد اليهود، ولا يجوز تعطيل الجهاد إلىٰ خروج الدَّجَّال؛ فهذا خذلان، ومن أسباب إفساد اليهود في الأرض.

---

(١) فتح الباري (١٣/ ٩٩).

(٢) المفهم (٧/ ٢٥١).

ومنذ قيام دولة الإسلام والنبيُّ ﷺ والصَّحابة يجاهدون اليهود ويهزمونهم، واستمرَّ المسلمون قاهرين لليهود حتى وقتنا هذا حيث ضعف المسلمون عن إعداد القوَّة الحربيَّة، وضلُّوا في رايات عمّيَّة كالقوميَّة والاشتراكيَّة، وانسلخوا من دينهم وعقيدتهم؛ فسلَّط الله اليهود عليهم، ومتى عادوا لدينهم وأخذوا بأسباب النصر؛ نصرهم الله.

قال شيخنا العلَّامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «تسلّط اليهود على العرب؛ لأنَّ القتال مع اليهود في راية العروبة قتال جاهليَّة».

ومن علامات الساعة فتح القسطنطينية عند خروج الدجَّال، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم السَّاعة حتى ينزل الرُّوم بالأعماق، أو بدابق، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافُّوا قالت الرُّوم: خلُّوا بيننا وبين الذين سبوا مِنَّا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا والله، لا نخلي بينكم وبين إخواننا! فيُقاتِلونهم، فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدًا، ويُقْتَل ثُلثُهم أفْضَلُ الشُّهداء عند الله، ويَفْتَتِحُ الثُّلثُ لا يُفْتَنُون أبدًا، فيفتتحون قسطنطينيَّة، فبَيْنا هم يقسمون الغنائم قد عَلَّقوا سيوفهم بالزَّيتون؛ إذ صاح فيهم الشَّيطان: أنَّ المسيح قد خلفكم في أهليكم. فيخرجون، وذلك باطل.**

فإذا جاؤوا الشام خرج، فبينما هم يُعدُّون للقتال، يُسوُّون الصُّفُوف إذ

(١) تفسير سورة آل عمران (٢/ ٥٩).

أقيمت الصلاة، فينزل عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ **فأمَّهُمْ، فإذا رآه عَدُوُّ الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانْذاب حتىٰ يَهْلِكَ، ولكن يقتله بيده، فيريهم دمه في حَرْبته»**، رواه مسلم.

قال العلامة أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «ظاهر هذا يدلُّ علىٰ أنَّ القسطنطينية إنَّما تُفتح بالقتال، وهذا الحديث[2] يدلُّ علىٰ أنَّها تُفتح بالتهليل والتكبير، والحاصل أنَّ القسطنطينية لابُدَّ من فتحها، وأنَّ فتحها من أشراط الساعة علىٰ ما شهدت به أخبار كثيرة، منها: ما ذكرناه آنفًا، ومنها: ما خرَّجه الترمذي من حديث معاذ بن جبل عن النبيِّ ﷺ قال: «**الملحمة العظمىٰ، وفتح القسطنطينية، وخروج الدَّجَّال في سبعة أشهر**»، قال: هذا حديث حسن صحيح.

وفيه عن أنس بن مالك: أنَّ فتح القسطنطينيَّة مع قيام السَّاعة؛ هكذا رواه موقوفًا. قال محمد - البخاري -: هذا حديث غريب.

والقسطنطينية: هي مدينة الروم تُفتح عند خروج الدَّجَّال، والقسطنطينية قد فُتحت في زمان بعض أصحاب النبيِّ ﷺ.

قلت: وعلىٰ هذا فالفتح الذي يكون مقارنًا لخروج الدَّجَّال، هو الفتح المراد بهذه الأحاديث؛ لأنَّها اليوم بأيدي الروم».

---

(١) المفهم (٧/ ٢٤٩، ٢٥٠) باختصار.

(٢) حديث السبعين ألفًا الذين يغزونها، فلم يقاتلوا بسلاح ولم يَرْموا بسهم، قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر، فيُفتح لهم ويغنموا؛ رواه مسلم.

ومن علامات السَّاعة هدم ذي السُّويقتين الكعبة، وذلك حين لا يُقال في الأرض: الله، ولم يبقَ حينئذ مسلم يصلِّي مستقبلًا الكعبة.

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ قال: «**يُخَرِّبُ الكعبة ذو السُّوَيْقَتَين من الحبشة**»، متَّفق عليه.

قال العلامة أبو العبَّاس أحمد بن عمر القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «السُّويقتان: تصغير السَّاقين، وإحداهما سويقة، وصغَّرهما لدقَّتهما ورقَّتهما، وهي صفة سوق الحبشة غالبًا، وقد وصفه النبيُّ ﷺ في حديث آخر بقوله: «**كأنِّي به أسود أفحج، يقلعها حجرًا حجرًا**»، والفحج: تباعد ما بين السَّاقين.

ولا يُعارض هذا قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]؛ لأنَّ تخريب الكعبة على يدي هذا الحبشي إنَّما يكون عند خراب الدُّنيا، ولعلَّ ذلك في الوقت الذي لا يبقىٰ إلا شرار الخلق، فيكون حَرَمًا آمنًا مع بقاء الدِّين وأهله، فإذا ذهبوا ارتفع ذلك المعنىٰ».

وعلامات السَّاعة الكبرىٰ إذا ظهرت تتابعت، فقد روىٰ مسلم في «صحيحه» من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثًا لم أَنْسَهُ بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ أول الآيات خروجًا طلوع الشَّمس من مغربها، وخروج الدَّابَّة علىٰ النَّاس ضُحًىٰ، وأَيُّهُمَا ما كانت قبل صاحبتها؛ فالأخرىٰ علىٰ إثرها قريبًا**».

---

(١) المفهم (٧/ ٢٤٥، ٢٤٦).

قال العلَّامة محمد بن أحمد السَّفاريني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «الذي يظهر - والله أعلم - أنَّ أَوَّل الآيات خروج المهْديِّ، ثم الدَّجَّال، ثم نزول عيسى، ثم خروج يأجوج ومأجوج، ثم هدم الكعبة، ثم الدُّخانُ، ثم ارتفاع القرآن، ثم طلوع الشَّمس من مغربها.

ويحتمل أنَّ طلوع الشَّمس مُتَقَدِّمٌ على رفع القرآن، وخروج الدَّابَّة عقب طلوع الشَّمس من مغربها في يومها أو قريبًا منها».

وفي حديث حذيفة بن أسيد، عن النبي ﷺ؛ أنَّه لن تقوم السَّاعة حتى تروا قبلها عشر آيات: الدُّخان، والدَّجَّال، والدَّابَّة، وطلوع الشَّمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وخسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن فتطرد الناس إلى محشرهم». رواه مسلم.

وورد في حديث أنس عن النبيِّ ﷺ؛ أنَّ أوَّل أشراط السَّاعة نار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وفي حديث حذيفة بن أسيد أنّها آخر أشراط الساعة.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «في هذا أنَّها آخر الأشراط، ويُجمع بينهما بأنَّ آخريتها باعتبار ما ذُكر معها من الآيات، وأوليَّتها باعتبار أنَّها أوَّل الآيات التي لا شيء بعدها من أمور الدُّنيا، بل يقع بانتهائها النفخ في الصور،

---

(١) لوامع الأنوار البهية لشرح الدُّرة المضيَّة (٢/ ٧٧٦).

(٢) فتح الباري (١٣/ ١٠٣).

بخلاف ما ذُكر معها؛ فإنَّه يبقى بعد كل آية منها أشياء من أمور الدُّنيا».

وذكر النبيُّ ﷺ مع أشراط السَّاعة الكبرى ثلاثة خسوفات؛ بالمشرق والمغرب وجزيرة العرب، وبعض العلماء ذكر ما وقع من الخسوفات التي وقعت في نواحي الأرض مما بلغه علمه، وفسَّرها على أنَّها من أشراط السَّاعة الصغرى.

عن حذيفة بن أسيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال**: كان النبيُّ ﷺ في غُرْفة ونحن أسفل منه، فاطَّلَعَ علينا، فقال: «**ما تذكرون؟**» قلنا: السَّاعَةَ؛ قال: «**إنَّ السَّاعة لا تكون حتى تكون عشر آيات: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف في جزيرة العرب، والدُّخَانُ، والدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الأَرْضِ، ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها، ونار تخرج من قَعْرِ عدنٍ تُرَحِّلُ النَّاسَ**»[١].

قال العلَّامة أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «أوَّل هذه الآيات: الخسوفات الثلاثة، وقد وقع بعضها؛ ذكر أبو الفرج الجوزي: أنَّها وقعت بعراق العجم زلازل وخسوفات هائلة، هلك بسببها خلق كثير.

وقد سمعنا ونحن بالأندلس: أنَّ بلدًا بشرقها خُسف به، وهلك كثير من أهله».

والخسوفات التي وقعت كثيرة، ولا تزال تقع، وحصرُ النبيِّ ﷺ

---

(١) رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في الآيات التي تكون قبل السَّاعة (ص١٢٥٦، ١٢٥٧ – رقم ٧٢٨٦).

(٢) المُفهم (٧/ ٢٣٩).

للخسوفات بـ«الثلاثة» دالٌّ علىٰ أنَّه أراد أنواعًا خاصَّة.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «قد وُجد الخسف في مواضع، ولكن يُحتمل أن يكون المراد بالخسوف الثلاثة قدرًا زائدًا علىٰ ما وُجد، كأن يكون أعظم منه مكانًا أو قدرًا».

وروىٰ البخاري من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم السَّاعة حتىٰ تكثر الزَّلازل**».

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «قد وقع في كثير من البلاد الشَّمالية والشَّرقية والغربيَّة كثيرٌ من الزَّلازل، ولكن الذي يظهر أنَّ المراد بكثرتها شمولها ودوامها».

وتغير أحوال العالم العلوي عن سنَّة الله الكونية المعتادة من أحواله؛ إيذان بقيام السَّاعة، قال النبيُّ ﷺ: «**النُّجوم أمنة للسَّماء، فإذا ذهبت النُّجوم أتىٰ السَّماء ما توعد**»، رواه مسلم من حديث أبي بردة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال الحافظ النَّووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)]: «الأَمَنة بفتح الهمزة والميم، والأمن والأمان بمعنًىٰ.

ومعنىٰ الحديث: أنَّ النُّجوم ما دامت باقية، فالسَّماء باقية، فإذا انكدرت النُّجوم وتناثرت في القيامة؛ وَهَنت السَّماء، فانفطرت، وانشقَّت، وذهبت».

---

(١) فتح الباري (١٣/ ١٠٥).

(٢) فتح الباري (١٣/ ١٠٩).

(٣) المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج (ص١٨١٩).

وقال تعالىٰ: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ [القيامة: ١-١٣].

وما ورد من حديث النبيِّ ﷺ أنَّ أوَّل أشراط السَّاعة طلوع الشَّمس من مغربها؛ فهذه أوليَّة باعتبار تغيير أحوال العالم العلوي.

ودابة الأرض تخرج بعد طلوع الشمس من مغربها، وقد روىٰ مسلم في «صحيحه» من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبيِّ ﷺ؛ أنَّه قال: «**أوَّل الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابَّة**»، وقد دلَّ القرآن علىٰ أنَّها تخاطب النَّاس، فيفهمون كلامها، قال تعالىٰ: ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢].

وبعد طلوع الشمس من مغربها ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، فحينئذ يكون قول الدابَّة للكافرين: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ۝٨٢﴾ [النمل: ٨٢] في محلِّه.

وصفة الدابَّة لم يرو فيها شيء مرفوع صحيح عن النبيِّ ﷺ، والله أعلم.

قال العلَّامة أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أما كيفيَّة صفتها وخلقتها،

---

(١) المفهم (٧/ ٢٤١).

وبماذا تُكلِّمهم؛ فالله أعلم بذلك».

وفي بعض الآثار عن الصَّحابة؛ أنَّ الدابَّة تخرج من صَدْعٍ من جبل الصفا، قال العلامة عبد الرزاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أكثر الأحاديث والآثار تُؤذن أنها تخرج من الصفا، وهو قول ابن مسعود وابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وعامة المفسرين».

وروىٰ أبو داود الطيالسي وأحمد من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**تخرج دابَّةُ الأرض ومعها عصا موسىٰ وخاتم سليمان عليهما السلام، فتَخْطِمُ أنف الكافر بالعصا، وتجلي وجه المؤمن بالخاتم، حتىٰ يجتمع الناس علىٰ الخِوان، يُعرف المؤمن من الكافر**»، وفي إسناده عليُّ بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف.

والدُّخان من علامات السَّاعة الكبرىٰ، دلَّ علىٰ ذلك القرآن والسُّنَّة، قال تعالىٰ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الدخان: ١٠-١٢]، وروىٰ مسلم في «صحيحه» من حديث حذيفة بن أسيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لن تقوم الساعة حتىٰ تروا الدُّخَان، والدَّجَّال، وطلوع الشمس من مغربها، ودابة الأرض، ونزول عيسىٰ ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف**».

ومعنىٰ ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ [الدخان: ١١]: أنَّ الدُّخان يأخذ بأنفاس الكافرين،

---

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٤٩٥).

ويأخذ المؤمن منه كهيئة الزُّكام.

وفسَّر ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الدُّخان بالجوع الذي أصاب كُفَّار قريش من دعاء النبيِّ ﷺ عليهم، فصاروا من شدَّة الجوع يرون خيالًا كالدخان.

ودلالة ألفاظ القرآن والسنَّة لا تدل على معنى ما ذكره ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «الأحاديث المرفوعة من «الصحاح» و«الحسان» وغيرهما، التي أوردناها، مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أنَّ الدُّخان من الآيات المنتظرة، مع أنَّه ظاهر القرآن، قال الله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠]؛ أي: بيِّنٌ واضح يراه كلُّ أحد.

وعلى ما فسَّر به ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إنَّما هو خيال رأوه في أعينهم من شدَّة الجوع والجَهْد، وهكذا قوله تعالى: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ [الدخان: ١١]، أي: يتغشَّاهم ويعمُّهم، ولو كان أمرًا خياليًّا يخصُّ أهل مكَّة المشركين، لما قيل فيه: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾».

والذي يدلُّ على أنَّ الدُّخَان من أشراط الساعة الكبرى؛ أنَّه ذُكر مقرونًا مع طلوع الشَّمس من مغربها، وخروج الدابَّة، وقولُ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو ممَّا انفرد به عن جماعة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأحاديث النبيِّ ﷺ على خلاف قوله.

وظهور يأجوج ومأجوج على الناس من علامات الساعة الكبرى،

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٢٦).

ويأجوج ومأجوج خلق عددهم كثير، أكثر بني آدم عددًا؛ قال العلامة أبو المظفر السَّمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «يُقال: إنَّ الخلق عشرة أجزاء، تسعة أجزاء كلهم يأجوج ومأجوج، وجزء واحد هم سائر الخلق.

ويقال: إنَّ جزءًا من ألف جزء سائر الخلق، والباقي هم يأجوج ومأجوج».

وقوم يأجوج ومأجوج حجزهم ذو القرنين عن الخروج والإفساد في الأرض بالسدِّ الذي بناه؛ فمُنعوا به عن الخروج وراءه والإفساد في الأرض.

قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف: ٩٣- ٩٨].

وقوله تعالىٰ: ﴿قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ [الكهف: ٩٣]، قال الحافظ عبد الرزَّاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «لا يفقهونه إلا بعد جُهد؛ لأنَّهم لم يكونوا يعرفون غير لغتهم، وقرأ حمزة والكسائي: **(يُفْقِهون)** بضمِّ الياء وكسر القاف، أي: لا يكادون يُفقهون السامع؛ لغرابة لغتهم».

---

(١) تفسير القرآن (٣/ ٤٠٨).

(٢) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ٣٦٢).

والزُّبَر جمع زُبْرَة، وهي القطعة من الحديد، والصدفان: الجبلان، وساوىٰ بين الصدفين؛ أي: حاذاهما، والقطر هو النحاس[(١)].

قال شيخ المفسِّرين أبو جعفر الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: «يقول تعالىٰ ذكره: فلمَّا رأىٰ ذو القرنين أنَّ يأجوج ومأجوج لا يستطيعون أن يَظْهَروا ما بنىٰ من الرَّدم، ولا يقدرون علىٰ نَقْبِه؛ قال: هذا الذي بنَيْته وسوَّيْته حاجِزًا بين هذه الأمة ومَن دون الردم؛ رحمة من ربِّي، رحِمَ بها مَن دون الردم من الناس، فأعانني برحمته لهم حتىٰ بنَيْتُه وسوَّيْتُه؛ ليكفَّ بذلك غائلة هذه الأُمَّة عنهم».

ويأجوج ومأجوج خلق حبسهم ذو القرنين وراء السدِّ الذي بناه من حديد ونحاس، فإذا أذن الله في خروجهم قبل القيامة وبعد خروج الدَّجَّال[(٣)]؛ انهدم السدُّ، قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦].

وخروجهم علىٰ الناس يكون سراعًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾، قال الحافظ عبد الرزَّاق الرسعني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]: «﴿يَنسِلُونَ﴾ من النَّسَلان، وهو مُقَارَبَةُ الخَطْوِ مع الإِسْراع».

وإذا خرج يأجوج ومأجوج علىٰ النَّاس عاثوا في الأرض فسادًا، فلا

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ١٥١).

(٢) جامع البيان (١٥/ ٤١٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ١٥٣).

(٤) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ٦٦٩).

يدعون شيئًا أخضر إلا أكلوه، ويمرون بالأنهار والبحيرات العظيمة فيشربون ماءها؛ فقد روىٰ مسلم في «صحيحه» من حديث النوَّاس بن سمعان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أن النبيَّ ﷺ قال: «**يبعث الله يأجوج ومأجوج - وهم من كلِّ حدب يَنْسِلون - فيمُرُّ أوائلهم علىٰ بحيرة طَبَرِيَّة، فيشربون ما فيها، ويمرُّ آخرهم، فيقولون: لقد كان بهذه مرةً ماء**».

ويتعاظم غرور يأجوج ومأجوج بإفسادهم في الأرض، فيسيرون إلىٰ جبلٍ ببيت المقدس، فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض، هَلُمَّ فلنقتل من في السَّماء. فيرمون بنُشَّابهم إلىٰ السَّماء، فيردُّ الله عليهم نُشَّابهم مخضوبة دمًا»، رواه مسلم من حديث النوَّاس بن سمعان.

وينحاز المسلمون عن يأجوج ومأجوج، حتىٰ يبعث الله عَزَّوَجَلَّ دودًا في أعناقهم فتهلكهم، قال النبيُّ ﷺ: «**يرغب نبيُّ الله عيسىٰ وأصحابه، فيرسل الله عليهم النَّغَفَ في رقابهم، فيُصبحون فَرْسَىٰ، كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسىٰ وأصحابه إلىٰ الأرض، فلا يجدون في الأرض موْضِعَ شِبْرٍ إلا ملأهُ زَهَمُهُم ونَتْنُهُم، فيرغب عيسىٰ وأصحابه إلىٰ الله، فيُرسل الله طيرًا كأعناق البُخْت، فتحملهم، فتَطْرَحهم حيث شاء الله، ثُم يُرسلُ الله مطرًا لا يَكُنُّ منه بيت مدر ولا وَبَرٍ، فيَغْسِلُ الأرض حتَّىٰ يتركَها كالزَّلَفَة، ثم يُقال للأرض: أنْبِتي ثَمرَتَكِ، ورُدِّي بركَتَكِ**»، رواه مسلم من حديث النوَّاس بن سمعان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

والنَّغَفُ هو دود، وفرسىٰ: أي: هلكىٰ قتلىٰ، والزَّهَم: النتن والرائحة

الكريهة، والزَّلَفة هي الأرض الملساء التي لا شيء فيها[١].

ومن علامات الساعة الكبرىٰ خروج الدَّجَّال، والدَّجَّال يخرج من جهة المشرق، قال أبو بكر الصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حدَّثنا رسول الله ﷺ قال: «**الدَّجَّال يخرج من أرض بالمشرق يُقال لها: خراسان، يتَّبعه أفواج كأنَّ وجوههم المِجَانُّ المُطْرَقة**»[٢].

وجاء في حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّه إذا خرج تبعه سبعون ألف من يهود أصبهان عليهم الطيالسة. متفق عليه.

قال العلَّامة أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «الطَّيالِسَة: هي جمع طَيْلَسان بفتح اللام، ولا تكسره العرب في المشهور، وحكاه البكريُّ بكسر اللام، وهو الكساء، وهو أعجميٌّ معرَّب، والهاء في جمعه للعجمة.

ويدلُّ هذا علىٰ أنَّ اليهود أكثر أتباع الدَّجَّال».

وجاء في «صحيح مسلم» من حديث النوَّاس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّ رسول الله ﷺ ذكر الدَّجَّال وقال: «**إنَّه خارجٌ خَلَّةً بين الشَّام والعراق**».

قال الحافظ النَّووي رَحِمَهُ اللَّهُ[٤]: «في كتاب «العين»: الحلة: موضع

---

(١) المفهم (٧/ ٢٨٥، ٢٨٦).

(٢) رواه الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء من أين يخرج الدجال (ص٥١٣ - رقم ٢٢٣٧)، وقال الترمذي: «وفي الباب عن أبي هريرة وعائشة، وهذا حديث حسن غريب».

(٣) المفهم (٧/ ٢٩٣).

(٤) المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج (ص٢٠٢٢).

حزن، وصخور.

قال : ورواه بعضهم: «حلُّه» بضم اللام، وبهاء الضَّمير؛ أي: نزوله وحلوله، قال: وكذا ذكره الحميدي في «الجمع بين الصحيحين»».

ويمكث الدَّجَّال في خروجه أربعين يومًا، وقد روىٰ مسلم في «صحيحه» من حديث النوَّاس بن سمعان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: ذكر رسول الله ﷺ الدَّجَّال، وقال له الصَّحابة: يا رسول الله! وما لُبْثُه في الأرض؟ قال: «**أربعون يومًا؛ يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيَّامه كأيَّامكم**».

قال الصَّحابة: يا رسول الله! فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «**لا، اقْدُرُوا له قَدْرَهُ**».

قال الحافظ النووي رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: «معنىٰ: «**اقدروا له قدره**»: أنَّه إذا مضىٰ بعد طلوع الفجر قدر ما يكون بينه وبين الظُّهر كل يوم؛ فصلُّوا الظهر، ثم إذا مضىٰ بعده قدر ما يكون بينها وبين العصر؛ فصلُّوا العصر، وإذا مضىٰ بعد هذا قدر ما يكون بينها وبين المغرب؛ فصلُّوا المغرب، وكذا العشاء والصبح، ثم الظهر، ثم العصر، ثم المغرب، وهكذا حتىٰ ينقضي ذلك اليوم، وقد وقع فيه صلوات سنة فرائض كلها مؤدَّاة في وقتها.

وأما الثاني الذي كشهر، والثالث الذي كجمعة؛ فقياس اليوم الأوَّل أن يقدر لهما كاليوم الأوَّل علىٰ ما ذكرناه، والله أعلم».

---

(١) المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج (ص٢٠٢٢).

والمسيح الدجَّال يمسح الأرض كلها إلا الحرمين، ففي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس من بلد إلا سيطؤه الدجَّال، إلَّا مكَّة والمدينة، وليس نقب من أنقابها إلا عليه الملائكة صافِّين تَحْرُسُها، فينزل بالسَّبْخَة، فترجف المدينة ثلاث رجفات، يخرج إليه منها كل كافر ومنافق**».

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «هما حرمان آمنان منه».

وقد جعل الله دلائل كذب الدَّجَّال معه يبصرها كل مسلم؛ فإنَّه أعور العين، ناقص الخلقة، والله ليس بأعور، كامل الصفات، وهو خالق كل مخلوق ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

والله عَزَّوَجَلَّ في السماء، بائن من خلقه، والدجَّال مخلوق يمشي في الأرض.

الله عَزَّوَجَلَّ لا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب الفساد، والدجَّال شرُّ المفسدين يدعو إلى ربوبيته والشرك به مع الله.

الدَّجَّال مكتوب بين عينيه: كافر، قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الدَّجَّال ممسوح العين، عليها ظفرة غليظة، مكتوب بين عينيه: كافر، يقرؤه كل مؤمن، كاتب وغير كاتب**»، رواه مسلم من حديث حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال الحافظ النَّووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «الصحيح الذي عليه المحققون أنَّ هذه الكتابة على ظاهرها، وأنَّها كتابة حقيقيَّة، جعلها الله آية، وعلامة من جملة

---

(١) النهاية في الفتن والملاحم (ص١٠٥).

(٢) المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج (ص٢٥٢٠).

العلامات القاطعة بكفره وكذبه وإبطاله، ويظهرها الله تعالىٰ لكلِّ مسلم كاتب وغير كاتب، ويخفيها عمن أراد شقاوته وفتنته، ولا امتناع في ذلك».

ومع ما ذكره النبيُّ ﷺ من دلائل كذب الدَّجَّال، فإنَّه قال: «**من سمع به فلينأ عنه**»، وهؤلاء الذين أخذوا بوصيَّة النبيِّ ﷺ ونأوا وانحازوا عن الدجَّال؛ يأتيهم المسيح عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويشهد لهم بأعيانهم بأنَّهم في الجنة؛ ففي حديث النوَّاس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسول الله ﷺ ذكر الدَّجَّال، وقال: «**ثم يأتي عيسىٰ ابن مريم قومٌ قد عصمهم الله منه؛ فيمسح عن وجوههم، ويُحَدِّثُهم بدرجاتهم في الجنَّة**»، رواه مسلم.

أما عن صفاته الخلقية؛ فقد روىٰ مسلم من حديث النوَّاس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال**: ذكر رسول الله ﷺ الدَّجَّال ذات غداة، فقال: «**إنَّه شابٌّ قطط، عينُهُ طافئة كأنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ العُزَّىٰ بن قَطَنٍ، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف**»، رواه مسلم.

والدجَّال أعور العين اليسرىٰ كما ورد في حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ رواه مسلم. وورد في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبيِّ ﷺ؛ أنَّه أعور العين اليمنىٰ. رواه الترمذي وصحَّحه.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «قد ورد في بعض الأحاديث أن عينه اليمنىٰ عوراء، وجاء اليسرىٰ؛ فإما أن تكون إحدىٰ الرِّوايتين غير محفوظة،

(١) النهاية في الفتن والملاحم (ص١٠١).

أو أنَّ العور حاصل في كلٍّ من العينين، ويكون معنى العور: النقص والعيب».

ومن شرِّ فتنة الدَّجَّال أن الكنوز تتبعه؛ فمن اتَّبعه أرسل عليه السَّماء مدرارًا، وأخرجت له الأرض الزرع، وأسبغت ضروع المواشي له اللبن.

عن النوَّاس بن سمعان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **قال:** ذكر رسول الله ﷺ الدَّجَّال، فقال: «**يأتي على القوم فيدعُوهم، فيؤمنون به ويستجيبون له؛ فيأمر السَّماء فتُمطر، والأرض فتُنْبت، فتروح عليهم سارحَتُهم أطول ما كانت ذُرًا، وأسْبَغَه ضُروعًا، وأمدَّهُ خَوَاصِرَ. ثم يأتي القوم فيدعوهم فيَردُّون علَيْه قَوْلَهُ؛ فينصرف عنهم فيُصْبحون مُمحلين، ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويَمُرُّ بالخَرِبة، فيقول لها: أخرجي كُنُوزَكِ؛ فتتبعُهُ كُنوزُها كيعاسيب النَّحْل**»، رواه مسلم.

وفي حديث حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **قال:** قال رسول الله ﷺ: «**لأنا أعلم بما مع الدَّجال منه! معه نهران يجريان؛ أحدهما رأي العين ماء أبيض، والآخر رأي العين نار تأجج؛ فإمَّا أدْركنَّ أحد فليأت النهر الذي يراه نارًا**»، رواه مسلم.

وينزل المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ بعد أن عاث الدَّجَّال في الأرض فسادًا، فينزل بعد قتل الدَّجَّال للمؤمن الذي حاجَّه في كفره؛ ففي حديث النوَّاس بن سمعان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال النبيُّ ﷺ: «**يدعو** – الدجَّال – **رجلًا ممتلئًا شبابًا، فيضربه بالسَّيف، فيقطعه جزلتين رَمْيَةَ الغرض، ثم يدعوه فيُقبل ويتهلَّلُ وجهه، يضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم؛ فينزل عند المنارة البيضاء شَرْقيَّ دمشق، بين مَهْرُودَتَيْن، واضعًا كفَّيْهِ على أجنحة مَلَكَيْن، إذا طأطأ رَأْسَهُ قَطَرَ، وإذا رفعه تَحَدَّرَ منه جُمَانٌ**

كاللُّؤْلُؤِ؛ فلا يَحِلُّ لكافر يجد ريح نَفَسِهِ إلا مات، ونَفَسُهُ ينتهي حيْثُ ينتهي طَرْفُهُ، فَيَطْلُبُه حتىٰ يُدْرِكَهُ بباب لُدٍّ، فيقتله»، رواه مسلم.

قال الحافظ النَّووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «أما المنارة: فبفتح الميم، وهذه المنارة موجودة اليوم شرقي دمشق».

وقال النووي[٢]: «هذا الحديث من فضائل دمشق».

وقال النووي أيضًا[٣]: «وأما «المهروذتان»؛ فرُوي بالدال المهملة، والذال المعجمة، والمهملة أكثر، والوجهان مشهوران للمتقدمين والمتأخرين من أهل اللغة والغريب وغيرهم، وأكثر ما يقع في النسخ بالمهملة؛ كما هو المشهور، ومعناه: لابس مهروذتين؛ أي: ثوبين مصبوغين بورس، ثم بزعفران، وقيل: هما شُقّتان، والشقة: نصف الملاءة».

وقال الحافظ النووي[٤]: «قوله ﷺ: «**يدركه بباب لُدٍّ**»؛ هو بضم اللام وتشديد الدَّال مصروف، وهو بلدة قريبة من بيت المقدس».

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**والذي نفسي بيده ليوشكنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عادلًا؛ يكسر الصَّليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، فيفيض المال حتىٰ لا يقبله أحد**».

قال الحافظ المحدِّث الفقيه الحسين بن مسعود البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **(ت: ٥١٦هـ)**[٥]: «قوله: «**يكسر الصليب**»: يريد إبطال النصرانية، والحكم

(١-٤) المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج (ص٢٠٢٣).

(٥) شرح السنَّة (١٥/ ٨١).

بشرع الإسلام. ومعنى قتل الخنزير: تحريم اقتنائه وأكله وإباحة قتله، وفيه بيان أنَّ أعيانها نجسة؛ لأنَّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إنما يقتلها على حكم شرع الإسلام، والشيء الطاهر المنتفع به لا يُباح إتلافه.

وقوله: «**ويضع الجزية**»، معناه: أنَّه يضعها عن أهل الكتاب، ويحملهم على الإسلام؛ فقد رُوي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ ﷺ في نزول عيسى: «**وتهلك في زمانه الملل كلُّها إلا الإسلام، ويهلك الدجَّال، فيمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفَّى فيصلِّي عليه المسلمون**».

وقيل: معنى وَضْع الجزية: أنَّ المال يكثر حتى لا يوجد محتاج ممَّن يُوضَع فيهم الجزية، يدلُّ عليه قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**فيفيض المال حتى لا يقبله أحد**»».

وينزل عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ في زمن المهدي، ويُقدِّمه المهدي ليصلِّي بالنَّاس فيأبى، ويأتم بالمهدي.

وهذه الفضيلة الخاصَّة لا تستلزم أنَّ المهدي أفضل من عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنَّ الفضيلة بنوع لا تستلزم الفضيلة مطلقًا، وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من أولي العزم من الرسل؛ فهو أفضل من المهدي.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال**: قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم فَأَمَّكُمْ؟**»[1].

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد (ص ٧٨ – رقم ٣٩٣).

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قال:** سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «**لا تزال طائفة من أمَّتي يقاتلون على الحقِّ ظاهرين إلى يوم القيامة، فينزل عيسى ابن مريم** عَلَيْهِ السَّلَامُ**، فيقول أميرهم: تعال صَلِّ لنا؛ فيقول: لا، إنَّ بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأُمَّةَ**»[1].

وعهد المهدي يمتد خمس سنوات أو سبعًا أو تسعًا، كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ؛ رواه الترمذي وحسَّنه، يعيش الناس في أمن ورخاء ورفاهية، وهذا كلُّه من ثمرات العدل الذي يقيمه، فإنَّه يملأ الدنيا عدلًا.

وأبو نضرة وأبو العلاء الراويان عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قول النبي ﷺ: «**يكون في آخر أُمَّتي خليفة يحثي المال حَثْيًا ولا يَعُدُّهُ عددًا**»، قيل لهما: أترىان أنه عمر بن عبد العزيز؟ فقالا: لا. رواه مسلم.

قال العلَّامة أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «لأنَّه لم يَصُبَّ المال كما جاء في هذا الحديث.

وقد روى الترمذي وأبو داود أحاديث صحيحة في هذا الخليفة، وسمَّياه بالمهدي».

وجاء وصف حكم المهدي في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ:

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد (ص ٧٨ – رقم ٣٩٥).

(٢) المفهم (٧/ ٢٥٢).

«من أهل بيتي، يواطئ اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي، يملأ الأرض قِسطًا وعدلًا، كما مُلئت ظلمًا وجورًا». رواه أبو داود، والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنَّه رجل من أهل بيت النبي ﷺ، من ولد الحسن بن عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، يخرج في آخر الزَّمان، وقد امتلأت الأرض جورًا وظلمًا؛ فيملؤها قسطًا وعدلًا، وأكثر الأحاديث على هذا تدلُّ. وفي كونه من ولد الحسن سِرٌّ لطيف، وهو أنَّ الحسن - رضي الله تعالى عنه - ترك الخلافة لله؛ فجعل الله من ولده من يقوم بالخلافة الحقِّ، المتضمِّنة للعدل الذي يملأ الأرض، وهذه سُنَّة الله في عباده: أنَّه من ترك لأجله شيئًا أعطاه الله، أو أعطى ذريَّته أفضل منه، وهذا بخلاف الحسين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ فإنَّه حَرَص عليها، وقاتل عليها؛ فلم يظفر بها، والله أعلم».

وبعد قتل المسيح ابن مريم للدجَّال يبعث الله ريحًا طيبة فتقبض أرواح المؤمنين، فلا يبقى إلا شرار الخلق، فعليهم تقوم الساعة.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «إنَّ الذين يقاتلون الدجَّال يكونون بعد قتله مع عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ثم يرسل عليهم الرِّيح الطيِّبة، فلا يبقى بعدهم إلا الشِّرار».

---

(١) المنار المنيف (ص١٥١).

(٢) فتح الباري (١٣/ ٩٧).

ففي حديث النوَّاس بن سمعان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال النبيُّ ﷺ بعد ذكره قتل المسيح ابن مريم للدجَّال، وإهلاك الله ليأجوج ومأجوج: «**فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحًا طيِّبةً فتأخذهم تحت آباطهم، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مؤمن وكُلِّ مسلم، ويبقىٰ شرار النَّاس يتهارجون فيها تهارج الحُمُرِ، فعليهم تقوم الساعة**»، رواه مسلم.





تناولت شرح حديث جبريل بحسب تيسير الله وتوفيقه، ومدارسة هذا الحديث هو تفقُّه في حقيقة الدِّين كلِّه؛ فالإسلام والإيمان والإحسان هو الاعتقاد الصَّحيح والعمل الصَّالح، وذلك هو العلم النَّافع والعمل الصَّالح، وهو الدِّين كله.

شرائع الإسلام وشعائره مضمَّنة في حديث جبريل، فمدارسة ذلك والتفقُّه فيه ضرورة لكل مسلم، ومن علم وعمل بما فيه؛ فقد أقام دينه.

وعناية علماء المسلمين بشرح حديث جبريل معلومة، من أفضل المصنَّفات في ذلك: «شرح حديث جبريل» لشيخ الإسلام ابن تيميَّة، وقد تضمَّنت كل مصنَّفاته شرح الإسلام والإيمان والإحسان شرحًا تفصيليًّا؛ كان من أسباب هداية المسلمين للفقه في الدِّين.

وما ذكرتُه في شرح الحديث هو بعض معانيه، والإحاطة بكلِّ ما فيه من الفقه أمرٌ لم أدركه، ولكن حسبي تقريب معانيه الكليَّة.

حديث جبريل فيه منهج ربَّانِيّ تعليمي، حيث اعتنىٰ جبريل ورسول الله محمَّد ﷺ بتعليم أصول الدِّين الذي تنبني عليه كلُّ مسائله، ودعوة النبيِّ ﷺ في سنيّ دعوته كلها شرح لهذه الأصول.

فالعناية بهذه الأصول وتعليمها هو من اتِّباع منهج النبيِّ ﷺ، وهو أخذ بحقيقة الدِّين.

وفَّق الله الجميع للعلم النافع والعمل الصالح.

والحمد لله ربِّ العالمين.





دليل الموضوعات




دليل الموضوعات

